
مطبوعات
مكتبة مصر
زقاق المدق
نجيب محفوظ

مطبوعات مكتبة مصر

زقاق المدق

تأليف

نجيب محفوظ

دار الكتاب العربي بمصر

١

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوماً فى تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى . أى قاهرة أعنى ؟ . . الفاطمية ؟ . . المماليك ؟ السلاطين ؟ ، علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنه على أية حال أثر ، وأثر نفيس . كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد . . . !

ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا ، إلا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل فى أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحتفظ — إلى ذلك — بقدر من أسرار العالم المنطوى . .

* * *

آذنت الشمس بالمغيب ، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقاً أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية ، ثم يصعد صعوداً فى غير انتظام ، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن ، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهى سريعاً — كما انتهى مجده الغابر — ببيتين متلاصقين ، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة .

سكنت حياة النهار ، وسرى دبيب حياة المساء . همسة هنا وهمهمة هناك : يا رب يا معين . يا رزاق يا كريم . حسن الختام يا رب . كل شىء بأمره . مساء الخير ياجماعة . تفضلوا جاء وقت السمر . اصح يا عم كامل وأغلق الدكان . غير يا سنقر ماء الجوز . أطفىء الفرن يا جعدة . الفص كبس على قلبى .

إذا كنا نذوق أهوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر أنفسنا .

بيد أن دكانين — دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين المدخل وصالون الحلو على يساره — يظلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسياً على عتبة دكانه — أو حقه على الأصح — يغط فى نومه والمذبة فى حجره ، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين ، وتتدلى خلفه عجيزة كالقبة ، مركزها على الكرسى ومحيطها فى الهواء ، ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه ، ولا ترى له رقبة ، فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم ، أخفى انتفاخه معالم قسماته . فلا تكاد ترى فى صفحته لا سمات ولا خطوط ولا أنف ولا عينان ، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطاً عدواً ، ولا ينتهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس . قالوا له مرات ستموت بغتة ، وسيقتلك الشحم الضاغط على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا يضيره الموت وحياته نوم متصل !! .

أما صالون الحلو فدكان صغير ، يعد فى الزقاق أنيقا ، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبه شاب متوسط القامة ، ميال للبدانة ، بيضاوى الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته ، يرتدى بدلة ، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات !

لبث هذان الشخصان فى دكانيهما فى حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها ، وكان آخر من غادرها صاحبها السيد سليم علوان ، يرفل فى جبته وقفطانه ؛ فاتجه صوب الحانطور الذى

بانتظاره على باب الزقاق ، وصعد إليه فى وقار ، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان . ودق الحوذى الجرس بقدمه فرن بقوة ، وانحدرت العربة ذات الحصان الواحد إلى الغورية فى طريقها إلى الحلمية . وأغلق البيتان فى الصدر نوافذها اتقاء البرد ، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها ، وكاد المدق يغرق فى الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية ، عشش الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار . هى حجرة مربعة الشكل ، فى حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها . وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها . وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاى . وعلى كثب من المدخل تربع على الأريكة رجل فى الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضمضتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامداً كالتمثال ، صامتاً كالأموات ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه فى دنيا وحده . ثم أقبل على القهوة عجوز مهدم ، لم يترك له الدهر عضواً سالما ، يجره غلام بيسراه ، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابا . فسلم الشيخ على الحاضرين ، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى فى صدر المكان ، واعتلاها بمعونة الغلام ، ثم صعد الغلام إلى جانبه ، ووضع بينهما الربابة والكتاب . وأخذ الرجل يهيىء نفسه ، وهو يتفرس فى وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره فى نفوسهم ، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبى القهوة سنقر فى انتظار وقلق ، ولما طال انتظاره ، ولمس تجاهل الغلام له ، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ :

— القهوة يا سنقر . . !

والتفت الغلام نحوه قليلا ، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون أن ينبس

بكلمة ، ضاربا عن طلبه صفحا . وأدرك العجوز إهمال الغلام له ، ولم يكن يتوقع غير ذلك . ولكن جاءت نجدة من السماء ، إذ دخل فى تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظ إهمال الصبى ، فقال للغلام بلهجة الآمر :

— هات قهوة الشاعر يا ولد . .

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل من أسى :

— شكراً لله يا دكتور بوشى . . .

فسلم الدكتور عليه ، وجلس قريباً منه . وكان الدكتور يرتدى جلبابا وطاقية وقبقابا ! هو دكتور أسنان ، إلا أنه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى مدرسة الطب أو أية مدرسة أخرى . اشتغل فى بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان فى الجمالية ، ففقه فنه بحذقه وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة ، وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج . وربما كان خلع الضرس فى عيادته المتنقلة أليما موجعا ، إلا أنه رخيص ، بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء (أغنياء المدق طبعاً) ، فإذا حدث نزيف — وليس هذا بالأمر النادر — اعتبر عادة من عند الله ، وترك منعه أيضا لله ! . وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبياً بجنيهين بغير زيادة . وهو يدعى فى الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور ، ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه .

جاء سنقر بالقهوة للشاعر كما أمر الدكتور ، فتناول الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليطرد حرارته ، وراح يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه ، ثم نحاه جانبا . وذكر عند ذلك فحسب سوء سلوك صبي القهوة معه ، فحدجه بنظرة شزراء وتمتم ساخطا :

— قليل الأدب . .

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها ، متحاميا نظرات الغضب التى أطلقها عليه سنقر ، وراح يعزف مطلعا ، لبثت قهوة كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها ، وأخذ جسمه المهزول يهتز مع الربابة ، ثم تنحنح وبصق

وبسمل ، ثم صاح بصوته الغليظ :

أول ما نبدى اليوم نصلى على النبى .

نبى عربى صفوة ولد عدنان .

يقول أبو سعدة الزناتى . . .

وقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول :

— هس ! . . ولا كلمة أخرى . .

فرفع بصره الذابل عن الربابة فرأى المعلم كرشة ، بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين الناعستين ، فنظر إليه واجما . وتردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه . وأراد أن يتجاهل شره ، فاستدرك منشدا :

يقول أبو سعدة الزناتى . . .

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا :

— بالقوة تنشد ؟ ! . . انتهى . . انتهى ! ألم أنذرك من أسبوع مضى ؟ !

فلاح الاستياء فى وجه الشاعر ، وقال بلهجة ملؤها العتاب :

— أراك تكثر من « الكيف » ، ثم لا تجد من ضحية سواى !

فصاح المعلم فى غضب وحنق :

— رأسى صاح يا مخرف ، وأنا أعلم ما أريد أتحسب أنى آذن لك بالإنشاد فى قهوتى إذا ما سلقتنى بلسانك القذر ؟ !

خفف الشاعر من لهجته مستوهبا عطف الرجل الغاضب ، وراح يقول :

— هذه قهوتى أيضاً . ألست شاعرها لعشرين عاما خلون ؟ !

فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق الماركات :

— عرفنا القصص جميعاً وحفظناها ، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد . والناس فى أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبونى بالراديو ، وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله . . .

فاكفهر وجه الشاعر ، وذكر محسوراً أن قهوة « كرشة » آخر ما تبقى له من

القهوات ، أو من أسباب الرزق فى دنياه ، بعد جاه عريض قديم . وبالأمس القريب استغنت عنه كذلك قهوة القلعة : عمر طويل ورزق منقطع ، فماذا يفعل بحياته ؟ ! وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد ؟ ! وماذا يخبىء له المستقبل وماذا يضمر لغلامه ؟ ! اشتد به القنوط ، وضاعف قنوطه ما لاح فى وجه المعلم من الجزع والإصرار ، فقال :

— رويدك يا معلم كرشة ، إن للهلالى لجدة لا تزول ، ولا يغنى عنها الراديو أبدا . .

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :

— هذا قولك ، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتى . لقد تغير كل شىء !

فقال الشاعر فى قنوط :

— ألم تستمع الأجيال بلا ملل إلى هذه القصص من عهد النبى عليه الصلاة والسلام ؟

فضرب المعلم كرشة على صندوق الماركات بقوة وصاح به :

— قلت لقد تغير كل شىء !

وتحرك عند ذاك — لأول مرة — الرجل الجامد الذاهل — ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية — فصمد بصره إلى سقف القهوة ، وتنهد من الأعماق حتى خال المستمعون أنه يزفر فتات كبده ، وقال بصوت كالمناجاة :

— آه تغير كل شىء . أجل تغير كل شىء يا ستى ! كل شىء تغير إلا قلبي فهو بحب آل البيت عامر . . .

وطامن رأسه ببطء ، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار ، فى حركات أخذت فى الضيق رويداً رويداً حتى عاد إلى موضعه الأول من الجمود ، وغرق مرة أخرى فى غيبوبته . ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله ، إلا الشاعر فقد توجه إليه كالمستغيث وقال له برجاء :

— يا شيخ درويش أيرضيك هذا ؟

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة . وهنا قدم شخص جديد تعلقت به الأنظار فى إجلال ومودة ، وردوا تحيته بأحسن منها . كان السيد رضوان الحسينى ذا طلعة مهيبة ، عتد طولا وعرضاً ، وتنطوى عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة ، ذو لحية صهباء ، يشع النور من غرة جبينه ، وتقطر صفحته بهاء وسماحة وإيماناً . سار متمهلا خافض الرأس ، وعلى شفتيه ابتسامة تشى بحبه للناس وللدنيا جميعاً ، واختار مجلسه على المقعد التالى لأريكة الشاعر . وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه شكواه . ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه ، وكان حاول مراراً أن يثنى المعلم « كرشة » عما اعتزمه من الاستغناء عنه دون جدوى . ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب خاطره ، ووعده بأن يبحث لغلامه عن عمل يرتزق منه ، ثم غمز كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى أذنه « كلنا أبناء آدم ، فإذا ألحت عليك الحاجة فاقصد أخاك ، والرزق رزق الله والفضل فضله » . وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقاً ، شأن الكريم الفاضل يحب الخير ويصنعه ، ويزداد بصنعه رضا وجمالا . كان يحرص دائماً على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل ، أو ينقلب إلى بيته ملوما محسوراً . وإنه ليبدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين المثقلين بالمال والمتاع ، وإن كان فى الواقع لا يملك إلا البيت الأيمن من الزقاق وبضع أفدنة بالمرج . وقد وجد فيه سكان بيته — المعلم كرشة فى الطابق الثالث ، وعم كامل والحلو فى الطابق الأول — مالكا طيب القلب والمعاملة ، حتى أنه تنازل عن حقه فى الزيادة التى قررها الأمر العسكرى الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الأول رحمة بساكنيه البسيطين ، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم . وقد كانت حياته — وخاصة فى مدارجها الأولى — مرتعاً للخيبة والألم . فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل ، وقطع بين أروقته شوطا طويلا من عمره دون أن

يظفر بالعالمية ، وابتلى — إلى ذلك — بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال . ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليـأس أو كاد ، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم ، وانطوى على نفسه طويلا فى ظلمة غاشية . ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب ، فلم يعد يعرف قلبه كرباً ولا هماً . انقلب حباً شاملا وخيراً عميا وصبراً جميلا . وطأ أحزان الدنيا بنعليه ، وطار بقلبه إلى السماء ، وأفرغ حبه على الناس جميعاً . وكان كلما نـكد الزمان عنتاً ازداد صبراً وحباً . رآه الناس يوما يشيع ابناً من أبنائه إلى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه ، فأحاطوا به مواسين معزين ، لـكنه ابتسم لهم ، وأشار إلى السماء وهو يقول : « أعطى وأخذ ، كل شيء بأمره وكل شيء له ، والحزن كفر » فكان هو العزاء . ولذلك قال عنه الدكتور بوشى : « إذا كنت مريضا فالمس السيد الحسينى يأتك الشفاء ، وإذا كنت يائسا فطالع نورغرته يدركك الرجاء ، أومحزونا فاستمع إليه يبادرك الهناء» . وكان وجهه صورة من نفسه ، فهو الجمال الجليل فى أبهى صوره .

أما الشاعر فقد رضى ببعض الرضا ، ووجد شيئا من العزاء ، وتزحزح تاركا الأريكة ، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والـكتاب . وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى ، وحيا الجلوس متجاهلا المعلم كرشة ، ثم ألقى نظرة ازدراء على المذياع الذى كاد العامل يفرغ من تثبيته ، وأعطى يده للغلام فجره إلى الخارج ، وغابا عن الأنظار . ودبت الحياة مرة أخرى فى الشيخ درويش ، فأدار رأسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان ، وتأوه قائلا :

— ذهب الشاعر وجاء المذياع . هذه سنة الله فى خلقه . وقديما ذكرت فى التاريخ وهو ما يسمى بالإنجليزية (History) وتهجيتها . . (h i s t o r y)

وقبل أن يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعـد أن أغلقا دكانيهما . ظهر الحلو أولا ، وقد غسل وجهه ورجل شعره الضارب للصـفرة ، وتبعه عم كامل يتبختر كالحمل ، ويقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا . وسـلما

على الحاضرين ، وجلسا جنباً لجنب ، وطلبا الشاى ، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملآه ثرثرة . قال عباس الحلو :

— يا قوم اسمعوا : شكا إلى صديق عم كامل قال إنه عرضة الموت فى أية لحظة ، وإنه إذا مات فلن يترك ما يدفن به . . .

فقال بعض الحاضرين متهكما :

— أمة محمد بخير .

وقال البعض الآخر :

— إن له لتركة من البسبوسة تكفى لدفن أمة بأسرها .

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلا :

— لا تفتأ تذكر الموت . وتالله لتدفننا جميعا بيديك . . .

فقال عم كامل بصوت رفيع برىء كالأطفال :

— اتق الله يا شيخ أنا رجل مسكين ...

واستطرد عباس الحلو قائلا :

— يا قوم : عزت علىّ شكاة عم كامل ، ولبسبوسته فضل علينا جميعا غير منكور . فابتعت له كفنا احتياطيا ، واحتفظت به فى مكان حريز لساعة لا مفر منها ، (والتفت إلى عم كامل قائلا) هذا سر أخفيته عنك ، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا على شهوداً . .

فأبدى الكثيرون عن اغتباطهم ، متصنعين الجد ، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه ، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه ، وقالوا : إن هذا صنيع خليق به نحو الرجل الذى يحبه ويساكنه شقة واحدة ، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه . حتى السيد رضوان الحسينى ابتسم راضيا ، مما جعل عم كامل ينظر إلى الشاب فى سذاجة ودهشة ويقول متسائلا :

— أحقا ما تقول يا عباس ؟ !

فقال الدكتور بوشى :

— لا يداخلك الشك يا عم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورأيت الكفن بعيني رأسي ؛ وهو كفن قيم وددت لو يكون لي مثله . .

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

— حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاما مريئا للدود ، فيرعى لحمك الهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدع . ومعناها بالإنجليزى Frog وتهجيتها (f r o g) .

وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه ، ثم دعا له طويلا ، وانبسط وحمد الله . وارتفع عند ذاك صـــــوت فتى آتيا من الطريق يقول :

— مساء الخير . .

واتجه صاحبه إلى بيت السيد رضوان الحسيني . كان القادم حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى فى العشرين فى مثل لون أبيه الضارب إلى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الحذق والفتوة والنشاط . كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلوناً خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلا ، تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطانى . وكان ذاك ميعاد عودته من « الأرنس » كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الإعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الحلو إلى القهوة ، ولكنه شكره ومضى إلى حال سبيله .

* * *

ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعـــة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفىء واحداً فى إثر واحد . وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومى ، إلا الشـيخ درويش فقد أغرق فى ذهوله ، وعم كامل مال رأسه على ثدييه وراح فى سبات . وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات فى الصندوق ، والمعلم

« كرشة » يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر فى خمول ذوبان الفص فى جوفه ويستنيم إلى سلطنة لذيذة . وتقدمت جحافل الليل ، فغادر السيد رضوان الحسيني القهوة إلى بيته . وتبعه بعد قليـل الدكتور بوشى إلى شقته فى الدور الأول من البيت الثانى . ثم لحق بهما الحلو وعم كامل . وأخذت المقاعد تخلو تباعا ، حتى انتصف الليـــل فلم يبق بالقهوة إلا ثلاثة : المعلم والصبي والشيخ درويش . وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم « كرشة » ، وصمدوا جميعاً إلى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان ، وتحلقوا المجمرة ، وبدءوا سهرة جديدة لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا برقة :

— انتصف الليل يا شيخ درويش . . .

فانتبه الشيخ إلى صوته ، وخلع نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه ، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبته ونهض قائماً واضعاً قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة ، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الزقاق . كان السكون شاملا ، والظلمة ثقيلة ، والطرق والدروب خالية مقفرة ، فترك لقدميه مقوده ، حيث لا دار له ولا غاية ، وغاب فى الظلمة .

* * *

كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرساً فى إحدى مدارس الأوقاف ، بل كان مدرس لغة إنجليزية ! وقد عرف بالاجتهاد والنشاط ، وأسـعفه الحظ أيضاً فكان رب أسرة سعيدة . ولـما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف ، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية ، فاستحال كاتباً بالأوقاف ، ونزل من الدرجة السادسة إلى الثامنة ، وعدل مرتبه على هذا الأساس . كان من الطبيعى أن يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقاً ، وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة ، يعلنها حيناً ، ويكتمها — مقصوراً مغلوباً على أمره — أحياناً . ولقد سعى كل مسعى ، وقدم الالتماسات ، واستشفع الرؤساء ، وشـكا الحـال وكثرة العيال ، دون

جدوى . ثم سلم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت . واشتهر أمره في الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى ، عظيم اللجاج والعناد ، سريع التأثر ، لا يكاد يمضي يوم من حياته دون شجار أو اصطدام ، كبير الاعتداد بنفسه والتحدي للآخرين . وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف — وكثيراً ما يحدث — تعالى استكباراً ، وخاطب خصمه بالإنجليزية ، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب ، صاح به في ازدراء شديد « تعلم أولا ثم خاطبني ! » . وكانت أنباء شجاره وعناده تتصل برؤسائه أولا فأول ، وكانوا يتسامحون معه ، عطفاً عليه من ناحية ، وتحامياً لشره من ناحية أخرى ، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات ، وخصم يوم أو يومين . ولكنه ازداد بكرور الأيام صلفاً ، حتى تراءى له يوما أن يحرر خطاباته المصلحية باللغة الانجليزية ففعل . وكان يقول في تسويغ ذلك إنه موظف فني لا كغيره من الكتاب . وتعطل عمله مما دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة ، ولكن القدر كان أسرع من حزم المدير ، فطلب الرجل يوماً مقابلة وكيل الوزارة ، ودخل درويش افندى — كما كان وقتذاك — حجرة الوكيل في تؤدة ووقار ، وحياه تحية الند للند ، وبادره قائلا بثقة ويقين :

— ياسعادة الوكيل لقد اختار الله رجله .

فطلب إليه الوكيل أن يفصح عما يريد ، فاستدرك قائلا بوقار وجلال :

— أنا رسول الله إليك بكادر جديد .

هكذا ختمت حياته بالأوقاف . وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحداً منها . هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله كما يسميها ، ولم يستبق من آثار الماضي جميعاً إلا نظارته الذهبية . ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا مأوى . ودلت حياته على أن بعض الناس يستطيعون أن يعيشوا في هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا مأوى ولا مال ولا معين ، ثم لا يجدون هماً ولا كرباً ولا حاجة . لا جاع يوما ولا تعرى

ولا تشرد . وانتقل إلى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها . وإذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعاً صارت بيتاً له ، وإذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه ، وإذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعاً انقلبوا له أهلا . يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد ، ويتمزق رباط الرقبة فيجيئه رباط جديد ، ولا يحل مكاناً حتى يرحب به ناسه . وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه — على ذهوله — إذا غاب عن القهوة يوما . ومع ذلك فلم يكن يأتى شيئاً مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والخوارق وقراءة الغيب . فهو إما ذاهل صامت ، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى أنى يكون موقعه من النفوس . بيد أنه رجل محبوب مبارك ، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيراً ، ويقولون عنه إنه ولى من أولياء الله الصالحين ، يأتيه الوحى باللغتين العربية والإنجليزية . .

٢

نظرت إلى المرآة بعين غير ناقدة ، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا ، فعكست المرآة وجهاً نحيلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأعاجيب . وجعلت تعطفه يمنة ، وتعطفه يسرة ، وأصابعها تنسق صغيرتها ، مغمغمة بصوت لا يكاد يسمع « لا بأس ، جميل ، وأيم الله جميـل » . والحق أن هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاماً ، والدنيا لا تدع وجهاً سالماً نصف قرن من الزمان . أما جسمها فنحيل ، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق ، وأما الصدر فأمسح ، بيد أن فستاناً حسناً يستره . هذه هى الست سنية عفيفى صاحبة البيت الثانى بالزقاق ، حيث يسكن الدكتور بوشى طابقه الأول . وفى ذلك اليوم كانت تأخذ أهبتها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها أم حميدة . ولم يكن من عادتها الإكثار من زيارة أحد ، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة إلا أول كل شهر لتحصيل

الأجرة ، إلا أن باعثاً جديداً دب فى أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة . وهكذا غادرت شقتها ، ونزلت السلاليم ، متمتمة برجاء « اللهم حقق الآمال » . ودقت الباب بكفها المروقة ففتحت لها حميدة . واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة ، وقادتها إلى حجرة الضيوف ، ثم ذهبت تدعو أمها . كانت الحجرة صغيرة ، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين ، وفى الوسط خوان باهت عليه نافضة سجاير ، وأما أرضها فمفروشة بحصيرة . ولم يطل بالمرأة الانتظار ، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد غيرت جلباب البيت ، فسلمتا بشوق ، وتبادلتا قبلتين ، وجلستا جنباً لجنب ، وأم حميدة تقول :

— أهلا . . أهلا . . زارنا النبي يا ست سنية .

كانت أم حميدة ربعة ممتلئة فى الستين ، ولكنها معافية قوية ، جاحظة العينين ، مجدورة الخدين ، ذات صوت غليظ قوى النبرات ، فإذا تحدثت فكأنها تزعق ، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزاع . ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال ، لأن زيارة تقوم بها صاحبة الملاك أمر قد تسوء عواقبه ، وقد ينذر بالخطر . ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وإنها على كلتا الحالتين لقادرة . وكانت بحكم وظيفتها — خاطبة وبلانة — عميقة الملاحظة كثيرة الكلام . بل كانت لسانا لا يكف ولا يمسك ، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من شخوص الحى أو بيت من بيوته ، فهى مؤرخة راوية لأخبار السوء — على الغالب — ومعجم للمنكرات . وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضيفة ، وتطنب فى الثناء عليها ، وتروى لها نتفاً من أنباء الزقاق والأخبار المجاورة : أما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة ؟ هى كسابقاتها ، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جبته . وحسنية الفرانة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه . والسيد رضوان الحسيني الطيب الورع زجر زوجه

زجراً شديداً ، لماذا يعاملها هذه المعاملة — وهو الرجل الطيب — إن لم تكن شريرة خبيثة ! . الدكتور البوشي احتك بفتاة صغيرة في المخبأ في آخر غارة وضربه رجل محترم . كريمة الماوردي تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ أبوها القسم . طابونة السكفراوي تبيع عيشاً غير مخلوط سراً ، الخ الخ .

أصغت الست سنية عفيفي بأذن غير واعية لأنها كانت مشغولة بالأمر الذي جاءت من أجله . وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذي طال اختباره بنفسها مهما كلفها الأمر . بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تتهيأ لها فرصة مواتية . وقد تهيأت هذه الفرصة حين سألتها أم حميدة قائلة :

— وكيف الحال ياست سنية ؟

فعبست قليلا وقالت :

— الحق إني تعبة يا ست أم حميدة .

فرفعت أم حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت :

— تعبة ؟ ! كفى الله الشر !

وأمسكت ست سنية ريثما تضع حميدة — وكانت دخلت الحجرة في هذه اللحظة — صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت ، ثم قالت بامتعاض :

— تعبة ياست أم حميدة . أليس من المتعب تحصيل أجور الدكاكين ؟ تصوري وقوف امرأة مثلي أمام رجل غريب تطالبه بالأجرة . .

وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات أسيفة :

— صدقت يا ستي . كان الله في عونك .

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت : لماذا تكثر المرأة من ترداد هذه الشكوى ؟ وذكرت أنها أعادتها على سمعها مرات ! بل ذكرت أن هذه ثاني أو ثالث مرة تزورها في غير أول الشهر . وخطر لها خاطر عجيب دهشت له بحكم وظيفتها ، وكانت في أمثال هذه المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى ،

فصممت أن تسبر الزائرة من وراء وراء ، فقالت بخبث :

— هذه إحدى شرور الوحدة . أنت امرأة وحيدة ياست سنية . فى البيت وحدك ، وفى الطريق وحدك ، وفى « الفراش » وحدك ، ألا قطعت الوحدة . .

وسرت الست سنية بحديث المرأة الذى كأنه يلبى خواطرها ، وقالت وهى تخفى سرورها به :

— وما عسى أن أصنع ؟ أقاربى ذوو أسر ، وأنا لا أرتاح إلا فى بيتى . والحمد لله الذى أغنانى عن الناس جميعاً . .

وكانت أم حميدة تلحظها بمكر ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :

— الحمد لله ألف مرة ، ولكن بالله خبرينى لماذا قضيت على نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل . . . ؟ !

تخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه حيال ما تريد ، ولكنها تنهدت بإنكار وقالت بتأفف متكلف :

— حسبى ما ذقت من مرارة الزواج . . !

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب دكان روائح عطرية ، ولكنه كان زواجاً لم يصادفه التوفيق ، فأساء الرجل معاملتها ، وأشقى حياتها ، ونهب مالها ، ثم تركها أرملة منذ عشرة أعوام . ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام لأنها — على حد قولها — كرهت حياة الزوجية .

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به إهمال الجنس الآخر لها ، فقد كرهت الحياة الزوجية حقاً ، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها ، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها عهداً طويلا ، ثم أنسيت تلك العاطفة بكرور الزمن ولم تكن تتردد عن تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب . وجعلت تراود الأمل حيناً بعد حين ، حتى طال به الأمد ، فغلبها القنوط ، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب ، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هى . ولما كان من الضرورى أن يوجد فى حياة

الإنسان شيء تنعقد حوله آماله ، شيء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية أو سخيفة ، فقد وجدت ضالتها كذلك . ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة عازبة مثلها ، فأولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة . وقد كانت فى الأصل تميل قليلا نحو الحرص ، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير ، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد ذاك الميل القديم وتقويه وتتقوى به . وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة فى صندوق عاجى صغير أخفته فى أعماق صوان ملابسها ، ووزعتها رزماً من ذوات الخمس والعشر ، تتسلى بمشاهدتها ومعاودة عدها وترتيبها . ولما كانت الأوراق خرساً لا كالنقود المعدنية فقد أمنت الأخطار ، ولم يدر بها أحد من شطار المدق على شدة حساسيتهم . وجدت فى حياتها المالية عزاء ، وانتحلت منها اعتذاراً لعزوبتها ، وقالت لنفسها إن أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم ، وبأن يضيع عليها فى غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال ، ومع ذلك فما كاد يتسرب إلى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الأعذار والمخاوف جميعاً . وكانت أم حميدة المسئولة عن هذا التحول العجيب ، سواء عن قصد أو عن غير قصد ، بما قصته عليها مرة من تزويجها لأرملة عجوز . ففكرت فى الأمر على أنه ممكن التحقيق ، وسرعان ما استولى على إرادتها ، فتدافعت إلى طاعته لاتلوى على شيء . ظنت يوماً أنها نسيت الزواج ، فإذا بالزواج أملها المنشود الذى لا يغنى عنه شيء من مال أو قهوة أو سجائر أو أوراق مالية جديدة . وجعلت تتساءل فى جزع كيف ضاع ذاك العمر هباء ؟ كيف قطعت عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة ؟ ! وقالت إن هذا هو الجنون ، وحملت زوجها المرحوم تبعته ، وصممت على أن تكفر عنه ، وأن تكفر عنه اليوم قبل الغد إن أمكن .

وأصغت الخاطبة إلى تأففها المتصنع بفطنة واستهانة وقالت لنفسها : « لا يجوز على مكرك يامرة » . ثم خاطبتها بلهجة تنم عن لوم :

— لاتغالى ياست سنية . إذا كان حظك الأول قد خاب فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب . . .

فقالت الست سنية وهى تعيد قدح القهوة إلى الصينية شاكرة :

— لاينبغى لعاقل أن يعاند الحظ إذا تجهم .

فاعترضتها أم حميدة قائلة :

— ماهذا الكلام ياست العاقلات ! كفاك وحدة كفاك .

فدقت المرأة صدرها بباطن يسراها الأمسح وقالت بإنكار مصطنع :

— ياخبر . أتريدين الناس على أن يرمونى بالجنون ؟ !

— أى أناس تعنين ؟ إن أكبر منك يتزوجن كل يوم .

فتضايقت من « أكبر منك » وقالت بصوت منخفض :

— لست من الكبر كما تظنين . . لعن الله الهم .

— ماقصدت هذا ياست سنية . وماأشك فى أنك مازلت فى حدود الشباب ، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة .

فارتاحت الست ، ولكنها كانت لاتزال مصرة على تمثيل دور من يساق إلى قبول الزواج بلا تعمد ولارغبة ، فتساءلت بعد تردد :

— ألا يعيبنى أن أقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة ؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة : « لماذا قصدتنى إذاً يامرة ؟ » . ثم خاطبت الست قائلة :

— كيف يعيبك ماهو شرع وحق ! أنت ست عاقلة شريفة ، والكل يشهد لك بذلك . والزواج نصف الدين ياحبيبتى ، وربنا شرعه حكمة ، وأمر به النبى عليه الصلاة والسلام . .

فقالت الست سنية بإيمان :

— صلى الله عليه وسلم .

— كيف لا ياحبيبتى ! نبى عربى ويحب عبيده !

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الأحمر ، وثمل فؤادها سروراً ، فقالت وهى تستخرج سيجارتين من علبتها :

— ومن يرضى بالزواج منى ؟

فثنت أم حميدة سبابة يسراها ، والصقتها بحاجبها ، وقالت باستنكار :

— ألف رجل ورجل !

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت :

— رجل واحد يكفى . .

فقالت أم حميدة بيقين :

— الرجال جميعاً يحبون الزواج فى أعماقهم . ولا يكاد يشكو الزواج إلا المتزوجون . وكم من رجل عازب راغب عن الزواج ، ما إن أقول له : « عندى عروس لك ! » حتى تدب فى عينيه اليقظة ، ويغلبه الابتسام ، ويسألنى فى لهفة لا تخفى : « حقاً . . من ! . . من ؟ » . الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح ، وهذه حكمة ربنا .

فهزت الست سنية رأسها فى ارتياح وقالت :

— جلت حكمته ! .

— نعم يا ست سنية ، لذلك خلق الله الدنيا . كان فى وسعه أن يملأها رجالا فحسب ، أو نساء فحسب ، ولكنه خلق الذكر والأنثى ، ومنحنا العقل كى نفهم مراده ، فلا محيد عن الزواج .

فابتسمت الست سنية عفيفى وقالت برقة :

— كلامك كالسكر يا ست أم حميدة !

— حلى الله دنياك ، وآنس قلبك بالزواج الكامل .

فتشجعت الست وقالت :

— إن شاء الله ، وبفضلك .

— أنا امرأة — بحمد الله — مباركة . زيجاتى لا انفصام لها . ياما عمرت بيوتا ،

وأنجبت أطفالا ، وأسعدت قلوبا . فليكن اعتمادك على الله وعلى . .

— جزاؤك لن يقدر بمال .

فقالت أم حميدة فى سرها : « لا . . لا يا مرة ، ينبغى أن يقدر بمال ، وبمال كثير . هلمى إلى صندوق التوفير وأعطينى ، وكفاك تقتيرا . . » . ثم قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال إذا فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الأمور .

— أظنك تفضلين رجلا متقدماً فى السن ؟ ! .

لم تدر الأخرى بماذا تجيب . لم تكن تطمع فى الزواج من شاب ، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها ، ولكنها لم ترتح إلى « متقدم فى السن » هذه ، وكان تدرج الحديث قد خلطها بأم حميدة فآنست إليها ، واستطاعت أن تقول وهى تضحك لتدارى ارتباكها :

— أصوم وأفطر على بصلة ! .

فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنيناً مزعجاً ، وازدادت اطمئنانا إلى نفاسة الصفقة التى هى بصدد عقدها ، ثم قالت بخبث :

— صدقت يا ست . والحق أن التجارب دلتنى على أن أسعد الزيجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج ، ولكم يناسبك رجل فى الثلاثين أو يزيد قليلا .

فتساءلت المرأة فى قلق :

— وهل يوافق ؟

— يوافق ويوافق ! أنت سيدة جميلة وغنية !

— سلمت من كل سوء !

فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجد والاهتمام :

— أقول له سيدة نصف ، لا ولد لها ولا حماة ، أدب وكمال ، صاحبة دكانين بالحزاوى وبيت ذى طابقين بالمدق .

فابتسمت الست وقالت تصحح لها ما حسبته هفوة :

— بل ذى ثلاثة طوابق .

ولكن الأخرى قالت معترضة :

— اثنان حسب ، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى إيجاره مدى حياتى !

فقالت ست سنية فى سرور :

— لك عيناى يا ست أم حميدة !

— سلمت عيناك . ربنا يهىء ما فيه الخير .

فهزت رأسها الأخرى كالمتعجبة وقالت :

— يا للعجب ! جئتك لمجرد الزيارة فانظرى كيف انتهى بنا الحديث ؟ وكيف أغادرك فى حكم المتزوجات ؟ !

فجارتها أم حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضاً ، وإن راحت تقول لنفسها : « يا مرة اختشمى ، أتحسبين أن مكرك يجوز على ؟ ! » ثم قالت :

— إرادة ربنا ! أليس كل شىء بأمره ؟ !

وعادت الست سنية عفيفى إلى شقتها مسرورة فرحة ، بيد أنها حادثت نفسها قائلة : « إيجار شقة مدى الحياة ! يا لها من امرأة جشعة » .

٣

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها . كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيروسين . فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتى الفتاة ، وقالت بأسف :

— واحسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل . !

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف ، ولاحت فيهما نظرة حادة صارمة ، وقالت الفتاة بحدة :

— قل ؟ ! والنبي ما وجد المشط إلا قملتين اثنتين !

— أنسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة ؟

فقالت بغير مبالاة :

— كان مضى على رأسي شهران بلا غسيل ..

ثم اشتد ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب أمها . كانت في العشرين ، متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية البشرة ، يميل وجهها للطول ، في نقاء ورواء ، وأميز مايميزها عينان سوداوان جميلتان ، لهما حور بديع فاتن ؛ ولكنها إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين وحدت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها ! وقد كان غضبها دائماً مما لا يستهان به حتى في زقاق المدق نفسه . وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت . قالت لها يوما وهما يتسابان : « لن يلم الله شمثك برجل ، فأي الرجال يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة ! » . وكانت تقول في مرات أخرى : إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب ، وسمتها لذلك الخمسين باسم الرياح المعروفة . ومع ذلك كانت تحبها كثيراً وإن كانت في الحقيقة أمها بالتبني . كانت الأم الحقيقية شريكة لها في الاتجار بالمفتقة والملوغات ، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق في ظروف سيئة ، وأخيراً ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سن الرضاع ، فتبنتها أم حميدة ، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجي فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة ، فهي أخته بالرضاعة .

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة ، ولما طال الصمت قالت الفتاة :

— طالت الزيارة . فيم كنتما تتحدثان ؟

فضحكت أمها في سخرية وتمتمت :

— خمني !

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها :

— طلبت رفع الإيجار .

— لو فعلت لخرجت محمولة على أيدى رجال الإسعاف ، ولكنها طلبت خفضه ؟

فصاحت حميدة :

— هل جننت ؟

— أجل جننت ، ولكن خفى . .

فنفخت الفتاة وهى تقول :

— أتعبتنى !

فأرعشت المرأة حاجبيها وقالت وهى تغمز بعينها :

— صاحبتك تروم الزواج !

فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

— الزواج . !

— أجل . وتريد شابا . أسفى عليك من شابة عاثرة الحظ لا تجد من يطلب يدها !

فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهى تضفر شعرها :

— بل أجد كثيرين ، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين أن تدارى فشلك . وماذا بى مما يعيب ؟ ولكنك كما قلت امرأة فاشلة ، يصدق عليك المثل القائل « باب النجار مخلع » . .

فابتسمت أم حميدة قائلة :

— إذا تزوجت الست سنية عفيفى فلا يصح لامرأة أن تيأس . . .

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

— لست أجرى وراء الزواج ، ولكنه يجرى ورائى أنا ، وسأنبذه كثيراً . .

— طبعاً ! أميرة بنت أمراء !

فتغاضت الفتاة عن سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة :

— أفى هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار ؟

ولم تكن الأم فى الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار ، ولا تشك فى جمالها ، ولكنها كانت كثيراً ما تثور بعجبها وغرورها . فقالت باستياء :

— لا تسلقى الزقاق بلسانك ، إن أهله سادة الدنيا !

— سادة دنياك أنت . كلهم كعدمهم ، اللهم إلا واحداً به رمق جعلتموه أخى !

وكانت تعنى حسين كرشة أخاها بالرضاعة ، فهال أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء :

— كيف تقولين هـذا ؟ ما جعلناه أخا ، وما نملك أن نصنع أخا ولا أختا ، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله . .

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة :

— ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الآخر ؟

فلكمتها أمها فى ظهرها وصاحت بها :

— قاتلك الله . .

فغمغمت الفتاة بازدراء :

— زقاق العدم !

— أنت تستحقين موظفاً قد الدنيا !

فتساءلت بتحد :

— هل الموظف إله ؟

فتنهدت الأم قائلة :

— آه لو تخففين من غلوائك . . . !

فقلدت لهجة أمها قائلة :

— آه لو تنصفين ولو مرة فى العمر !

— آكلة شاربة ثم لا تشكرين . أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب !

فقالت حميدة بدهشة :

— وهل الجلباب شيء يهون ؟ ! .. ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة ؟ ! ألا ترين أن الأولى بالفتاة التي لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية ؟ !

ثم امتلأ صوتها أسفاً وهي تقول مستدركة :

— آه لو رأيت بنات المشغل ! آه لو رأيت اليهوديات العاملات ! كلهن يرفلن في الثياب الجميلة . أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتد ما نحب ؟ !

فقالت الأم باستياء :

— أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ، وهيهات أن يهدأ لك بال ..

فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها . فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة ، ثبتتها على مسند الكنبة ، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الإعجاب :

— آه يا خسارتك يا حميدة ! لماذا توجدين في هذا الزقاق ؟ ! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب ؟ !

ثم دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطل على الزقاق ، ومدت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق ، متنقلة به من مكان إلى مكان ، قائلة وكأنما تخاطب نفسها في سخرية :

— مرحباً بك يا زقاق الهنا والسعادة . دمت ودام أهلك الأجلاء . يا لحسن هذا المنظر ، ويا لجمال هؤلاء الناس . ماذا أرى ؟ ! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة عيناً على الأرغفة وعيناً على جمعة

زوجها ، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها . وهذا المعلم كرشة القهوجي متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم - وعم كامل يغط في نومه ، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب . آه . وهذا عباس الحلو يسترق النظر إلى النافذة في جمال ودلال ، ولعله لا يشك في أن هذه النظرة سترميني عند قدميه أسيرة لهواه ، أدركوني يا هوه قبل التلف . أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة ، رفع عينيه يا أماه وغضهما ، ثم رفعهما ثانية ، . . قلنا الأولى مصادفة ، والثانية يا سليم بك ؟ ! رباه هذه نظرة ثالثة ! . ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء ؟ ! . . مصادفة كل يوم في مثل هذه الساعة ؟ ! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذاً لبادلتك نظرة بنظرة ، ولقلت لك أهلاً وسهلاً ومرحباً . هذا كل شيء ، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل ؟ ! . . أوه . . ها هو ذا الشيخ درويش قادماً يضرب الأرض بقبقابه . . .

وهنا قاطعتها أمها في سخرية :

— ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجاً لك !

فلم تلتفت إليها ، ورقصت لها عجيزتها وهي تقول :

— ياله من رجل مقتدر . يقول إنه أنفق في حب السيدة زينب مائة ألف جنيه ، فهل يبخل على بعشرة آلاف ؟ !

ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفها ، وعادت إلى المرآة ملقية إليها نظراً فاحصاً ، وتنهدت وهي تقول :

— يا خسارتك يا حميدة . . .

٤

فى الثلث الأول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل ، لا تزوره الشمس إلا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله . بيد أن النشاط يدب فى الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتحه سنقر صبى القهوة فيهيء المقاعد ويشعل الوابور ، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجاً وأفراداً ، ثم يلوح جعدة حاملا خشبة العجين ، حتى عم كامل نفسه يشغل فى هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس ! . وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان إفطارهما معاً ، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل الأخضر والخيار المخلل . وكان مزاجاهما فى الأكل مختلفين ، فالحلو سريع يلتهم رغيفه فى دقائق معدودات ، أما عم كامل فبطىء يمضغ اللقمة فى أناة حتى يكاد يذيبها فى فمه ، وكثيراً ما يقول : إن الطعام المفيد يهضم فى الفم أولا ، ولذلك فالحلو ينتهى من طعامه ، ثم من احتساء الشاى وتدخين الجوزة ، والآخر مايزال يمضغ ويقضم البصل ، ولذلك أيضاً فلكى يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشاب بتجاوز حده ! . وعم كامل — رغم جسامته وضخامته — لا يعد أكولا و إن كان يلتهم الحلوى بشراهة . وهو حلوانى ماهر ، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن إلا فى الطلبات الخاصة التى يوصى عليها أمثال السيد سليم علوان والسيد رضوان الحسينى والمعلم كرشه . وطار فى ذلك صيته حتى جاوز المدق إلى الصنادقية والغورية والصاغة . ولكن رزقه كان على قد عيشته البسيطة دون زيادة ، فلم يكن كاذباً حين شكا إلى عباس الحلو أنهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به . وقد قال — ذلك الصباح — مخاطباً الحلو بعد أن فرغا من طعامهما :

— قلت إنك ابتعت لى كفناً ، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والدعاء ، ولكن ما قولك فى أن تنزل لى عنه الآن .. ؟

فتعجب عباس الحلو الذى كاد ينسى الكفن كما تنسى عادة الأكاذيب ، وسأله :

— وماذا تريد أن تفعل به ؟ ؟ !

فقال الرجل بصوته الرفيع الذى يحاكى أصوات الغلمان :

— أنتفع بثمنه ! . ألا تسمع ما يقال عن ارتفاع أثمان الأقمشة ؟

فضحك الحلو وقال :

— أنت رجل ماكر على رغم ما تتظاهر به من سذاجة . بالأمس شكوت أنك لن تجد ما تكفن به بعد موتك ، فلما أعددت لك الكفن تريد أن تنتفع بثمنه ! ولكن هيهات أن تنال ما تريد ، لقد ابتعت الكفن لأكرم به جثتك بعد عمر طويل إن شاء الله . .

فابتسم عم كامل فى ارتباك وقال :

— هب أن العمر قد امتد بى حتى تعود الحالة إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، ألا نكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالى ؟ !

— وهبك تموت غداً ؟ !

فقطب عم كامل وقال :

— لا قدر الله !

فقهقه الحلو ضاحكا وقال :

— عبثاً تحاول أن تثنينى عما اعتزمت . سيبقى الكفن فى حرز حريز حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . .

وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكه . ثم قال الشاب معاتباً :

— يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة ! . . هل استفدت منك مليما

واحداً فى حياتى ؟ ! مطلقاً . ذقنك جرداء لا تنبت ، وكذلك شاربك . رأسك أصلع . وليس بهذه الدنيا الواسعة التى تدعوها جسمك شعرة واحدة أنتفع بحلقها . سامحك الله . .

فابتسم عم كامل قائلا :

— جسم نظيف طاهر لن يشق على أحد غسله . .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه العواء ، فنظرا إلى داخل الزقاق فرأيا المعلمة حسنية الفرانة تنهال على زوجها جعدة بالشبشب ، والرجل يتقهقر أمامها لا يملك لها دفعاً ، وصراخه يعلو حتى طبق الآفاق ، فضحك الرجلان وصاح عباس الحلو مخاطباً المرأة :

— العفو والرحمة يا معلمة . .

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكياً مستعطفا . ولبث عباس ضاحكا وهو يقول لعم كامل :

— ما أخلق جسمك بهذا الشبشب حتى يذوب شحمه !

وظهر عند ذاك حسين كرشه قادماً من البيت فى سرواله وقميصه وقبعته . كان ينظر فى ساعة فى معصمه ، تياهاً فخوراً ، وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تتلألآن زهواً . وقد حيا صديقه الحلاق ، ومضى إلى الكرسى داخل الصالون وجلس عليه ليحلق شعره فى يوم عطلته . وقد نشأ الصديقان معاً فى زقاق المدق ، كما رأيا نور الدنيا فى بيت واحد ، بيت السيد رضوان الحسينى ، بيد أن عباس الحلو رأى هذا النور الدنيوى قبل صاحبه بثلاثة أعوام . وكان الحلو فى ذلك الوقت يعيش فى حضانة والديه ، قبل أن يعرفه عم كامل ويشاطره شقته بخمسة عشر عاماً . وقد قطع الصديقان الطفولة والصبا معاً ، وآخى بينهما الحب والمودة ، وظلا على صداقتهما حتى بعد أن فرق بينهما العمل ، فاشتغل عباس صبى حلاق بالسكة الجديدة ، وعمل حسين صبياً فى دكان دراجات بالجمالية . وقد تباينت أخلاقهما منذ البدء ، ولكن

امل تباينهما هذا كان من أهم الأسباب التي أبقت على صداقتهما ومودتهما .
كان عباس الحلو — ولا يزال — شخصاً وديعاً ، دمث الأخلاق ، طيب القلب ، ميالا بطبعه إلى المهادنة والمصالحة والتسامح ، أقصى ما يطمح إليه من فنون اللهو اللعب السلمى ، أو ارتيـاد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الـكومى ، مع نفور من اللجاج والشجار ، ودراية فى اتقائهما بالابتسـامة الحلوة و « الله يسامحك يا عم » . وكان يحافظ على صلاته وصومه ، ولا تفوته صلاة الجمعة فى سيدنا الحسين . أجل أهمل الآن بعض هذه الفرائض ، لا عن استهتار ولـكن عن كسل ، وما زال يحافظ على صـلاة الجمعة وصوم رمضان . ولم يكن من النادر أن يتحرش به صاحبه حسين كرشه ، ولـكنه كان إذا شد صاحبه أرخى ، فلم تصله قبضته القاسية قط . وعرف إلى ذلك بالقناعة والرضـا ، حتى أنه واصل عمله « صبياً » عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير إلا منذ خمسة أعوام ، ومنذ ذاك التاريخ وهو يحسب أنه نال أرفع ما يطمح إليه : وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه ، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان ، وجسمه البدين ، وطابع المرح الذى لايفارقه . أما حسين كرشه فكان من شطار الزقاق ، مشتهراً بالنشاط والحذق والجراءة ، بل هو معتد أثيم إذا دعا الداعى . وقد اشتغل بادىء أمره فى قهوة أبيه ؛ ولـكنهما لم يتفقا ، فهجرها وعمل بدكان الدراجات ، ولبث بهـا حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسـكرات البريطانية ، وبلغت يوميته بهـا ثلاثين قرشاً — نظير ثلاثة قروش فى عمله الأول — غير ما يسميه هو « أكل العيش يحب خفة اليد » فارتقت حاله ، وامتلأ جيبه ، ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود ، فتمتع بالثياب الجديدة ، وغشى المطاعم ، وأكثر من أكل اللحوم التى هى فى حسبانه طعـام المحظوظين ، وارتاد السينمات والملاهى ، وعاقر الخمر ، ورافق النساء ، وربما أخذته نشوة كرم فدعا رفاقه إلى سطح البيت حيث يقدم لهم الطعام والنبيـذ والحشيش . وفى نشوة من نشواته — كما يحكى

عنه — قال لبعض مدعويه : « فى بلاد الإنجليز يسمون من كان مثلى فى بحبوحة العيش باللارج « large » ولما كان مثله لا يعدم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة اللارج ، ثم حرفت فيما بعد إلى حسين كرشه الجراج ! »

أمسك عباس الحلو بالماكينة وأقبل على رأس صاحبه بهمة ونشاط ، يصلح من أطرافها ، دون مساس بالشعر المفلفل الذى يكاد يقف من فظاظته وخشونته . ولم يكن يخلو من شعور بالحزن يساوره كلما التقى بذلك الصديق القديم . أجل مازالا صديقين ، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال ، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بقهوة أبيه كما كان يفعل فى الأيام الخالية ، مما دعا إلى ندرة اجتماع الصديقين . ولم يخل الأمر من عاطفة حسد تخامر فؤاد الحلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التى تفصل بينهما . بيد أنه فى حسده — كما هو فى حياته — وديع عاقل لا يتهور ولا يتورط فى خطأ ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء ، وكأنه يغبطه ولا يحسده ، وربما قال لنفسه متعزيا : «سوف تنتهى الحرب يوماً ، ويعود حسين إلى الزقاق معدما كما خرج منه» .

وجعل حسين كرشة — بثرثرته المعهودة — يحدث صاحبه عن حياة « الأورنس » والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الإنجليز من نوادر ومداعبات ! ، وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والإعجاب ، قال :

— قال لى الأونباشى جوليان مرة إنى لا أفترق عن الإنجليز إلا فى اللون ! . . وكثيراً ما نصحنى بالاقتصاد ، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده فى زهو) الذى يربح النقود فى أثناء الحرب خليق بأن يربح أضعافها فى زمان السلم . ومتى تظن الحرب تنتهى ؟ ! لا يغرنك هزيمة الطليان فأولئك لاحساب لهم فى الحرب ، ولسوف يحارب هتلر عشرين عاما ! . والأونباشى جوليان من المعجبين بشجاعتى ، ويثق فى ثقة عمياء ، وبفضل هذه الثقة يسرحنى فى تجارته الواسعة من تبغ وسجائر وشوك

وسكاكين وملاءات أسرة وجوارب وأحذية ! . . دنيا !

فتمتم عباس الحلو متفكراً :

— دنيا ! .

فألقى حسين على صورته فى المرآة نظرة متفحصة وقال :

— أتدرى أين أذهب الآن ؟ . . إلى حديقة الحيوان . أوتدرى مع من ؟ . . مع بنت كالقشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات وسوسة) وسأنطلق بها هناك إلى أقفاص القرود .

وقهقه عالياً ثم استدرك :

— أراهن على أنك تتساءل : لماذا القرود ؟ . وهذا طبيعى من إنسان مثلك لم ير إلا قرد القرداتى . فاعلم ياحمار أن القرود فى حديقة الحيوان تعيش جماعات فى أقفاص . وهى كبيرة الشبه بالإنسان فى صورته وسوء أدبه ؛ تراها تتغازل وتتحاب فى علانية مكشوفة ، فاذا سقت الفتاة إلى هنالك تفتحت لى الأبواب !

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله :

— دنيا ! .

— النساء علم واسع لاتحذقه بمجرد شمرك المرجل .

فضحك الحلو ونظر إلى شعره فى المرآة ، وقال بصوت منكسر :

— أنا رجل مسكين !

فحدج صورته فى المرآة بنظرة حادة وتساءل متهكما :

— وحميدة ؟ ! .

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم المحبوب ، وتمثلت لعينيه صورتها ، فتورد وجهه ، وغمغم وهو لايدرى :

— حميدة . . . !

— أجل حميدة بنت أم حميدة !

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح فى وجهه الارتباك ، وراح الآخر يقول بحدة :

— يالك من رجل خامل معدوم الحياة . عيناك ناعستان ، دكانك ناعسة ، حياتك نوم وخمول . أعيانى إيقاظك ياميت . أتحسب أن هذه الحياة خليقة بتحقيق آمالك ؟ ! هيهات ، ولن ترزقك مهما سعيت بأكثر من لقمتك .

فلاح التفكير فى العينين الهادئتين وقال متكدراً بعض الكدر :

— الخيرة فيما اختاره الله . . .

فقال الشاب ساخراً :

— عم كامل ، قهوة كرشة ، الجوزة ، الكومى . ؟!

فقال الحلو فى حيرة :

— لماذا تهزأ بهذه الحياة ؟

— أهى حياة حقاً ؟ . . هذا الزقاق لايحوى إلا موتا . وما دمت فيه فلن تحتاج يوما للدفن . عليك رحمة الله . .

فسأله الحلو بعد تردد وإن كان يدرى ما الآخر قائله :

— وماذا تريدنى على أن أفعل ؟

فصاح به الفتى :

— طالما أخبرتك . طالما نصحتك . اخلع رداء هذه الحياة القذرة الحقيرة . أغلق هذا الدكان . اهجر هذا الزقاق . أرح عينيك من رؤية جثة عم كامل . وعليك بالجيش الإنجليزى . الجيش الإنجليزى كنز لايفنى هو كنز الحسن البصرى . ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم ؛ لقد بعثها ربنا لينتشلنا من وهدة الشقاء والعوز . على الرحب والسعة ألف غارة وغارة مادامت تقذفنا بالذهب . ألم أنصحك بالالتحاق بالجيش ؟ وما زلت أقول لك إن الفرصة سانحة . حقا هزمت إيطاليا ولكن ألمانيا باقية ، ووراءها اليابان ؛ وسوف تطول الحرب عشرين عاما . أقول لك للمرة الأخيرة إنه توجد أماكن شاغرة فى التل الكبير . سافر !

واستيقظ خيال الحلو ، واضطرمت عواطفه ، حتى وجد صعوبة فى امتلاك عنانه وإتقان عمله . لم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ولكنه نتيجة لإلحاحه المتواصل كلما قابله . كان بطبعه قنوعا ، عزوفا عن الحركة ، هيابا لكل جديد ، مبغضاً للأسفار ، ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا ، ولو لبث فيه مدى الحياة لما مله ولا فتر حبه له . ولكن طموحه صحا بعد سبات ، وكان كلما دبت فيه الحياة امتزج فى نفسه بصورة حميدة ، أو لعل حميدة هى التى أيقظته وبعثته بعثاً جديداً ، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئاً واحداً لا يتجزأ . وعلى رغم هذا كله خاف أن يبوح بذات نفسه ، وكأنما أراد أن يفسح لنفسه وقتاً للتدبر والتفكير ، فقال متظاهراً بالإحجام والإباء :

— السفر ابن كلب !

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به :

— أنت ابن ستين كلباً . السفر خير من زقاق المدق ، وخير من عم كامل . سافر وتوكل على الله . أنت لم تولد بعد . ماذا أكلت ؟ ماذا شربت ؟ ماذا لبست ؟ ماذا رأيت ؟ صدقنى أنك لم تولد بعد . . .

فقال عباس متأسفاً :

— من الحزن أنى لم أولد غنيا .

— من الحزن أنك لم تولد بنتاً ! لو ولدت بنتاً لكنت من بنات الدقة القديمة . حياتك فى البيت وللبيت ، لاسيما ولا حديقة الحيوان ، حتى ولا الموسكى الذى ترتاده حميدة فى المصارى .

فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتباكه ، وآلمه أن ينطق به صاحبه مستهيناً ساخراً كأنه لفظ تافه لايثير مكامن القلوب ، وقال مدافعاً عن فتاته :

— أختك حميدة فتاة كريمة الأخلاق ، ولا يعيبها أن تروح نفسها بالمشى فى الموسكى .

— أجل ولكنها فتاة طموح ما فى ذلك من شك ، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك . . .

وعاود قلبه الخفقان العنيف ، والتهب وجهه احمراراً ، وذابت نفسه وجداً وقلقاً وانفعالا . وكان انتهى من حلق رأس الشاب ، فراح يمشطها دون أن ينبس بكلمة ، وفكره لا يستريح من اضطرابه . ثم نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده . وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسى منديله فرجع مسرعاً إلى البيت . وجعل يتابعه بعينيه من موقفه ، فلاح لعينيه مرحاً نشيطاً سعيداً ، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة . « لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك » . صدق حسين بلا ريب ، إنه يعيش عيشة الكفاف ، ولا يكاد يتمخض كدح يومه إلا عن رزق ذلك اليوم ، فإذا أراد أن يبنى عشه فى هذه الأيام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد . إلام يقنع بالأحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والإرادة ؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون ؟ ! « فتاة طموح » هكذا يقول حسين ، وإن كان هو لا يدرى شيئاً على وجه التحقيق ، وربما كان حسين أدرى بها ، لأنه — عباس — اعتاد أن يراها بعين الحب الحالمة الخالقة . وإذا كانت فتاته طموحا فلا معدى له عن أن يكون طموحاً كذلك . ولعل حسين يحسب غداً — وقد ابتسم لهذا الخاطر — أنه أيقظه من سباته وخلقه خلقا جديدا ، ولكنه يعلم دون الناس جميعاً أنه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شىء أن ينتزعه من قناعته الوديعة المستسلمة . وشعر عباس فى هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب . ولعله أحس — إحساساً غامضاً لا يرتقى لمرتبة الوعى والفكر — بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والإبداع والتجديد . ولذلك خلق الله الإنسان محباً ، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة فى رعاية الحب : وقد تساءل الفتى فى وجده وانفعاله لماذا لا يسافر ؟ ألم يمش فى هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان ؟ ! فماذا أفاده ؟ إنه زقاق لا يعدل.

بين أهله ، ولا يجزيهم على قدر حبهم له . وربمـا ابتسم لمن يتجهمه وتجهم لمن يبتسم له ، فهو يقطر عليه الرزق تقطيراً ، ويغدقه على السيد سليم غدقا ؟ وعلى كثب منه تتـكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرفها الساحر ، فى حين أن راحته لا تقبض إلا على ثمن الرغيف ، فليكن سفر ، وليتغيرن وجه الحياة .

جرى فـكره هذا الشوط البعيد ، ولبث واقفاً أمام دكانه ينظر إلى عم كامل وقد مضى يغط غطيطاً والذبة فى حجره . ثم سمع وقع أقدام خفيفة آتياً من أعلى الزقاق ، فتحول إليه فرأى حسين كرشه عائداً فى خطوات واسعة . واستمر به الانفعال والقلق ، ونظر إليه كما ينظر المقامر إلى كرة الروليت الدائرة ، حتى حاذاه وأوشك أن يفوته ، فوضع يده على كتفه وقال له بقوة وعزم :

— حسين ، أريد أن أحدثك فى أمر هام : . .

٥

العصر . . .

عاد الزقاق رويداً رويداً إلى عالم الظلال : والتفت حميدة فى ملاءتها ، ومضت تستمع إلى دقات شبشبها على السلم فى طريقها إلى الخارج . وقطعت الزقاق فى عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم أن أعينا أربعا تتبعها متفحصة ثاقبة ، عينى السيد سليم علوان صاحب الوكالة ، وعينى عباس الحلو الحلاق . ولم تـكن تفاهة ثيابها لتغيب عنها ، فستان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رق نعلاه ، بيد أنها تلف الملاءة لفة تشى بحسن قوامها الرشيق ، وتصور عجيزتها الملمومة أحسن تصوير ، وتبرز ثدييها الـكاعبين ، وتـكشف عن نصف ساقيها المدملجتين ، ثم تنحسر فى أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزى الفـاتن القسمات . وكانت تتعمد ألا تلوى على شىء فتنحدر من الصنادقية إلى الغورية ثم إلى السكة الجديدة فالموسكى . . حتى إذا غابت عن الأعين الثاقبة علت شفتيها ابتسامة ، وراحت تنهب الطريق الزاخر العامر بعينيها الجميلتين هى فتـاة

مقطوعة النسب ، معدمة اليد ، ولـكنها لم تفقد قط روح الثقة والاطمئنان .
ربما كان لحسنها الملحوظ الفضل فى بث هذه الروح القوية فى طواياها ، ولـكن
حسنها لم يكن صاحب الفضل وحده ، كانت بطبعها قوية ، لا يخذلها الشعور
بالقوة لحظة من حياتها . وكانت عيناها الجميلتان تنطقان أحياناً بهذا الشعور نطقاً
يذهب بجمالها فى رأى البعض ويضاعفه فى رأى البعض الآخر . فلم تفتأ أسيرة
لإحساس عنيف يتلهف على الغلبة والقهر ، يتبدى فى حرصها على فتنة الرجال ،
كما يتبدى فى محاولتها التحكم فى أمها ، ويتعرى فى أسوأ مظاهره فيما يشتجر
بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك ، حتى أبغضنها جميعاً ،
ورمينها بكل سوء . وربمـا كان من أغرب ما رميت به أنها تبغض الأطفال ،
وأنها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الأنوثة ، وهذا ما جعل امرأة المعلم
كرشة القهوجى — أمها بالرضاعة — تتمنى على الله أن تراها أما ترضع
الأطفال فى كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويصبحها بالضرب ! مضت فى
سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية ، مرددة الطرف فى معارض المتاجر المتعاقبة .
كانت تهوى مشاهدة المعروضات النفيسة من الثياب والآنية ، فتثير فى نفسها
الطموح المتلهفة على القوة والسيطرة أحلاما ساحرة . ولذلك تركزت عبادتها
للقوة فى حب المـال على اعتبار أنه المفتاح السحرى للدنيا ، المسخر لجميع
قواها المذخورة . فجل ما كانت تعرفه عن نفسها أنها تحلم بالمال ، المال
الذى يأتى بالثياب وبكل ما تشتهيه الأنفس . وعسى أن تتساءل : أيمكن
يا ترى أن تبلغ يوما ما تتمنى ؟ ! لم تـكن الحقائق لتغيب عنها ، ومع ذلك فهى
لا تنسى قصة فتاة من بنات الصنادقية ، كانت فقيرة فى الأصل مثلها ، ثم
أسعفها الحظ بزوج ثرى من المقاولين فانتشلها من وهدتها ، ونقلها من حال
إلى حال . فماذا يمنع القصة أن تتـكرر ، والحظ أن يبتسم مرتين فى هذا الحى ؟ !
ليست دون صاحبتها جمالا ، والحظ الذى لعب دوره فى حياة الأخرى يستطيع
أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة . بيد أن هـذا الطموح

كان يضطرب فى دنيا ضيقة تنتهى عند حدود ميدان الملكة فريدة ، لا يدرى عما وراءها شيئاً ، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ ، ولا كم منهم يلقى خيراً وسعداً ، وكم منهم يتردد مثلها حائراً لا يملو لنفسه مرسى . فعلى كثب من هذه المنطقة رأت صويحباتها من عاملات المشغل قادمات ، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتسمت أساريرها ، وسرعان ما سلمن وأخذن فى تافه الأحاديث ، وهى تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين ناقدة ، ذاهبة نفسها حسرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه . أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة ، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عامة عن تقاليدهن الموروثة ، واشتغلن بالمحال العامة مقتديات باليهوديات . ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات ، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير فى ردح قصير من الزمن ، شبعن بعد جوع ، وكسين بعد عرى ، وامتلأن بعد هزال ، ومضين على أثر اليهوديات فى العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة ، ومنهن من يرطن بكلمات ، ولا يتورعن عن تأبط الأذرع والتخبط فى الشوارع الغرامية . تعلمن شيئا واقتحمن الحياة . أما هى فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص . وها هى تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها ، غابطة حياتهن المرهفة وثيابهن المزركشة وجيوبهن العامرة . كانت تضاحكهن فى صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها ، ثم لا تتردد عن نهشهن — ولو على سبيل الدعابة الساخرة — لأقل هفوة ، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء ، وهذه ذوقها سقيم ، وتلك عيناها تزوغان من التحديق فى الرجال ، والرابعة كأنها نسيت أيام كان القمل يزحف على رقبتها كالنمل ! كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم ، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها فى يومها الطويل المفعم تبرما وعراكا . ولذلك قالت يوما لأمها وهى تتنهد :

— حياة اليهوديات هى الحياة حقا !

فانزعجت أمها وقالت :

— إنك من نبع أبالسة ودمى برىء منك . .

فقالت الفتاة إمعانا فى إغاظتها :

— ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو عن سبيل الحرام ؟ !

فهزت المرأة رأسها وقالت ساخرة :

— رحم الله أباك بائع الدوم بمرجوش . .

سارت وسط صويحباتها تياهة بجمالها ، مدرعة بلسانها الطويل ، يلذها أن الأعين تمر بهن مر الكرام وتستقر عليها دونهن . ولما انتصف الموسكى أو كاد ، لاحت منها التفاتة إلى الطريق فرأت عباس الحلو يسير متأخرا عنهن قليلا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة . وتساءلت عما دعاه إلى ترك دكانه فى هذه الساعة على غير عادة . هل تبعها عمداً ؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر ؟ . كان على فقره متأنقا كأكثرية أهل فنه ، فلم يضايقها ظهوره . وقالت لنفسها إن أية واحدة من صاحباتها لا تطمع فى زوج خير منه ، وكانت تجد نحوه شعوراً غريباً معقداً ، فهو من ناحية الشاب الوحيد فى الزقاق الذى يصلح لها زوجا ، وهى من ناحية أخرى تحلم بزوج على مثال المقاول الغنى الذى حظيت به جارتها فى الصنادقية ، فهى لا تحبه ولا تتمناه ، وفى الوقت نفسه لا تقطعه ، ولعلها تسرها نظراته المشوقة ! . وكان من عادتها أن توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها إلى الزقاق ، فسارت بينهن وهى تسترق إليه النظر . فلم تعد تشك فى أنه يتبعها عامداً ، وأنه ينوى أن يخرج عن صمته أخيراً . ولم تخطىء ظنونها فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبيها حتى انحدر نحوها من الطوار ، فى خطوات مضطربة ووجـه ينطق بالانفعال ، وقاربهـا حتى حاذاهـا ، ثم قال بصوت متهدج :

— مساء الخير يا حميدة . .

فالتفتت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مبـاغتة ، ثم قطبت

وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه ، ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن العتاب :

— مساء الخير يا حميدة .

وخافت إن هى لازمت الصمت مع هذا الخطو الحثيث أن ينتهيا إلى الميدان الأهول قبل أن يقول ما يريد ، وكانت راغبة فى سماعه ، فقالت فى لهجة تنطق بالاستياء :

— يا للعار ! جار وتفعل كالغريب !

فقال عباس بلهفة :

— بل جار حقا ، ولا أفعل كالغريب . أحرام على الجار أن يتكلم ؟

فقالت عابسة :

— نعم ، الجار يحمى جارته ، لا أن يهاجمها . . .

فقال الشاب بصدق حار :

— أنا جار وأعلم واجبات الجار . ولم يخطر ببالى قط أن أهاجمك

— لا سمح الله — بيد أنى أريد أن أحدثك ، ولا عيب أن يحدث الجار جارته . . .

— كيف تقول هذا ؟ ! أليس من العيب أن تتعرض لى فى الطريق ، وتعرضنى للفضيحة . .

فهاله قولها . وقال بأسف :

— الفضيحة ؟ . . معاذ الله يا حميدة . صدرى طاهر ، ولا يكن لك إلا الطهر وحياة الحسين . وستعلمين أن كل شىء سينتهى بما أمر به الله لا بالفضيحة ، فأصغى إلى قليلا ، أريد أن أحدثك عن أمر هام . ميلى بنا إلى شارع الأزهر بعيداً عن أعين الذين يعرفوننا . .

فقالت باستياء متصنع :

— بعيداً عن أعين الناس ؟ ! ما شاء الله ! . . دمت من جار طيب حقا !

وكان قد تشجع بمنازعتها إياه الحديث فقال بحرارة :

— ما ذنب الجار ؟ ! . . أيموت قبل أن يبوح بذات نفسه !

فقالت بسخرية :

— ما أطهر كلامك ...

فقال عباس بلهفة وشت بإشفاقه من اقتراب الميدان المأهول :

— طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة . ميلى بنا إلى شارع الأزهر . أريد أن أقول لك كلمة هامة . ينبغى أن تصغى إلى . أنت تعلمين ولا شك بما أريد قوله . ألا تعلمين ؟ ألا تشعرين ؟ قلب المؤمن دليله . .

فقالت كالغاضبة :

— لقد جاوزت حدك . كلا . . كلا . . دعنى . .

— حميدة . . أنا أريد أن . . . أنا أريدك . .

— يا للعار . دعنى وإلا فضحتنى أمام الخلق .

وكانا قد بلغا ميدان الحسين ، فرقت من جانبه إلى الطوار الأيسر وحثت خطاها على عجل ، ثم انعطفت إلى الغورية وهى تبتسم ابتسامة خفيفة . كانت تعلم ما يريد قوله كما قال ، ولم تنس أنه الفتى الوحيد الصالح لها فى الزقاق ، وقد قرأت فى عينيه البارزتين آى الحب كما قرأتها مرارا من نافذتها فى الماضى القريب ، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجامد الجحود ؟ أما حالته المالية التى تعلم عنها الشىء الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها ساكنا ، وأما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة والخضوع ، مما يجعله خليقا بأن يرتاح إليه فؤادها المغرم بالسيطرة ، بيد أنها وجدت نحوه — رغم ذلك — نفوراً لم تدر له سببا . ماذا تريد إذاً ؟ ومن يرضيها إذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب ؟ ! لم تهتد لجواب بطبيعة الحال ؛ وقد عزت نفورها منه إلى فقره ! . والظاهر أن حبها السيطرة كان تابعا لحبها العراك لا العكس ، فلم تهش للمسالمة ، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال .

وكان قلبها ما يزال فى غفوته لم يستبن بعد زغائبه ، فملأها شعورها المبهم الغامض حيرة وقلقا .

ونكص عباس الحلو عن ملاحقتها خيفة الأعين ، فتراجع مفعم الفؤاد خيبة وحسرة ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس . قال لنفسه وهو يسير متمهلا غافلا عما حوله : إنها بادلته الكلام طويلا . ولو قصدت صده ونبذه ما منعها مانع ولا أعيتها الحيلة ، فهى لا تكرهه ، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعا ، ولعله الحياء الذى جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار . فكان أبعد الناس عن اليأس ، بل راح يستسلم لمغازلة الأمل ويتوثب للكرة التالية . وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من قبل . كان محبا صادقا ملتهب العاطفة ، وكان يشعر حيال نظرتها النافذة الجميلة بخضوع كلى . ولذة لا حد لها ، وحب لا يبيد . أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعا بالنساء عامة ؛ ولكنه كان كالحمام يحلق فى السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع فى النهاية على برجه ملبياً صفير صاحبه ؛ فهى دون النساء جميعا أمله المنشود . أجل لم تعد مخاطرته خائبة ؛ وتفتحت له أكمام الأحلام عن زهر الآمال ، فعاد منتشيا مسرورا فرحا بحبه وبشبابه . ولما عرج إلى الصنادقية صادف الشيخ درويش قادما من ناحية الحسين ؛ فالتقيا عند مطلع الزقاق ، وأقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبركا ، ولكن الشيخ أشار نحوه بسبابته محذرا ، وحملق فى وجهه بعينيه الذابلتين وراء نظارته الذهبية وقال :

— لا تمش بلا طربوش ! احذر أن تعرى رأسك فى مثل هذا الجو ، فى مثل هذه الدنيا . فخ الفتى يتبخر ويطير ، وهذا أمر معروف فى المأساة ومعناه بالإنجليزية Tragedy وتهجيتها t r a g e d y ..

٦

وكان المعلم كرشة قد شغل بأمر هام ، ومن النادر أن ينصرم عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر ، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص . بيد أنه كان رجلا مسلوب الإرادة ، لم يترك له الحشيش من إرادته نفعا . ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء ، لا لأن تجارته غير نافقة ، ولكن لأنه كان مبذراً — فى غير بيته — يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جارياً وراء شهواته ، خصوصاً هذا الداء الوبيل .

وعندما آذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبيء سنقر عن طيته ، مرتدياً عباءته السوداء ، متوكئاً على عصاه العجراء ، ينقل على مهل خطواته الثقيلة ! ولا تكاد تدل عيناه المظلمتان المختفيتان تقريباً وراء جفنيه الغليظين على أنه يحسن رؤية طريقه . وكان قلبه يخفق ! والقلب يخفق ولو شارف صاحبه الخمسين . ومن عجب أن المعلم كرشة قد عاش عمره فى أحضان الحياة الشاذة ، حتى خال لطول تمرغه فى ترابها أنها الحياة الطبيعية . هو تاجر مخدرات اعتاد العمل تحت جنح الظلام ، وهو طريد الحياة الطبيعية وفريسة الشذوذ ، واستسلامه لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه . بل إنه ليظلم الحكومة فى تعقبها لأمثاله ، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته الأخرى مثاراً للازدراء والاحتقار ، فيقول عن الحكومة : « إنها تحلل الخمر التى حرمها الله ، وتحرم الحشيش الذى أباحه ! وترعى الحانات الناشرة للسموم ، فى حين تكبس « الغرز » وهى طب النفوس والعقول . وربما هز رأسه آسفاً وقال : « ماله الحشيش » ! « راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو مدرّ للنسل ! » وأما عن شهوته الأخرى فيقول بقحته المعهودة : « لكم دينكم ولى دين ! » ولكن إيلافه

شهواته لا يمنع من أن يخفق قلبه كل مطلع هوى جديد . وقد سار متمهلا في الغورية ومستسلماً لخواطره ، يتساءل والأمل ملء فؤاده : « ماذا يا ترى وراءك أيها المساء ؟ » وعلى رغم انهماكه في خواطره كان يحس بالدكاكين على الصفين إحساساً غامضاً ، ويرد بين الفينة والفينة تحيات بعض أصحابها من معارفه . وكان يسيء الظن بهذه التحيات وأمثالها ، ولا يدرى إن كانت لمحض السلام أم أن وراءها ما وراءها من الغمز واللمز . فالناس لا يريحون ولا يستريحون ، ويتلقفون المثالب بأفواه نهمة جشمة . ولطالما قالوا فيه وأعادوا ، فماذا أفادهم التشهير ؟ لا شيء ! وكأنه ولع بتحديهم فراح يجهر بما كان يسره . وهكذا مضى في سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلي الأزهر ، فاشتد خفقان قلبه وتنامى تحيات الناس التي أثارت سوء ظنه ، وانبعث من عينيه المنطفئتين نور خافت شرير . وراح يدنو منه بفيه الفاغر وشفته المتدلية ، وجاز عتبته . دكان صغير يجلس في صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير ، ويستند إلى أحد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليانع ، ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره ، وتلقاه بابتسامة البائع اللبق . وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة ، واستقرت العينان على الشاب ، ثم حيا برقة . ورد الشاب التحية في لطف ، وقد أدرك لأول وهلة أنه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة في ثلاثة أيام متتابعات . وقد تساءل : لماذا لا يبتاع ما يريد مرة واحدة ؟ !

وقال المعلم :

— أرنى ما عندك من جوارب . .

فأحضر الشاب أنواعا منها وبسطها على « طاولة » المحل ، وأخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر إلى وجه الشاب ، والشاب لا يخفى أمره عليه ، وقد دارى ابتسامة كادت ترتسم على ثغره . وتعمد أن يطيل الفحص والتقصى ، ثم قال للشاب بصوت منخفض :

— لا تؤاخذنى يا بنى فبصرى ضعيف ، هلا اخترت لى لوناً مناسباً بذوقك الجميل . . .

وسكت لحظات يتفرس فى وجهه ، ثم أردف وهو يرسم ابتسامة على شفته المتدلية :

— كوجهك الجميل . .

فأراه الشاب الجميل نوعاً متجاهلا إطراءه ، فاستدرك الرجل قائلا :

— لف لى ستة . .

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب ، ثم قال :

— الأفضل أن تلف لى اثنى عشر ... أنا رجل لاينقصنى المال والحمد لله ! !

ولف الشاب له ما أراد صامتاً ، ثم غمغم وهو يناوله اللفيفة :

— مبارك . .

فابتسم المعلم كرشة ، أو بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة آلية قصيرة يرافقها اضطراب خفيف فى جفنيه ، وقال بخبث :

— شكراً لك يا بنى (ثم بصوت منخفض) الحمد لله !

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفعلا كما دخله . واتجه نحو شارع الأزهر ، ثم عبره مهرولا إلى الناحية الأخرى ، ووقف لصق شجرة فى مقابل الدكان مستظلا بالظلمة الآخذة فى الانتشار . وتف يداً متوكئة على العصا ويداً قابضة على اللفيفة ، وعيناه لا تتحولان عن الدكان من بعيد . كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد شبك ذراعيه على صدره ، فجعل ينظر نحوه ، لا يكاد يرى منه إلا صورة غامضة المعالم ، ولكن ذاكرته وخياله أسعفاه بما لم يسعفه به البصر الكليل . وراح يقول لنفسه : « أدرك المراد بلا ريب ! » ثم ذكر كيف كان رقيقا لطيفا مؤدبا . ورجعت أذناه صوته وهو يغمغم : « مبارك » فأثاج صدره وتنهد من الأعماق . ولبث فى مكانه سويعة مضطرما بالقلق والتوتر ، حتى رأى

الدكان يغلق أبوابه ، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذى اتجه صوب الصاغة ، والشاب الذى سار نحو شارع الأزهر . وابتعد المعلم عن الشجرة رويداً ، وسار فى الاتجاه الذى يتسمته الشاب ، فرآه هذا بعد أن عبر ثلثى الطريق ولكنه لم يبد اهتماما ، وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال برقة :

— مساء الخير يابنى .

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم :

— مساء الخير يا سيدى .

فسأله لمحض الرغبة فى مجاذبته الحديث :

— أغلقت الدكان ؟

ولاحظ الشاب أن الرجل يتثاقل كأنما يدعوه إلى التريث ، ولكنه ثابر على مشيته وهو يقول :

— أجل يا سيدى . .

فاضطر الرجل إلى مسايرته ، فسارا معا على الطوار والمعلم لا يحول عنه رأسه ، ثم قال :

— ساعات عملك طويلة ، كان الله فى عونك . .

فنفخ الشاب قائلا :

— ما الحيلة ؟ أكل العيش يحب التعب . . !

فسر المعلم بإقبال الفتى على محادثته ، واستبشر خيراً برقته وقال :

— رزقك الله بتعبك يابنى . .

— أشكر لك يا سيدى . .

فقال الرجل بحماسة :

— تعب كلها الحياة حقا ، ولكن من النادر جداً أن ينال التعب الجزاء الذى يستحقه ، فما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا . .

فشد هذا الكلام على وتر حساس فى قلب الفتى وقال بتبرم :

— صدقت يا سيدى ، ما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا . .

— الصبر مفتاح الفرج . أجل ما أكثر المظلومين ، ومعنى هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين . ولكن من لطف الله أن الدنيا لا تخلو من رحماء كذلك . . .

فتساءل الفتى :

— أين هؤلاء الرحماء ؟

وكاد يجيبه : « ها أنذا واحد منهم » ، ولكنه أمسك عن ذلك ، وقال بلهجة العاتب :

— لا تكن متشائماً يا بنى فأمة محمد بخير ، (ثم غير لهجته قائلا) علام تسرع ؟ أمستعجل أنت ؟ ؟

— ينبغى أن أذهب إلى البيت لأغير ملابسى . .

فسأله باهتمام :

— وبعد ذلك ؟

— أنطلق للقهوة .

— أية قهوة ؟

— قهوة رمضان .

فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لمت أسنانه الذهبية فى الظلمة ، وتساءل فى إغراء :

— لماذا لا تشرف قهوتنا ؟

— أية قهوة يا سيدى . . ؟

فاخشوشن صوت المعلم وهو يقول :

— قهوة كرشة بالمدق ، محسوبك المعلم كرشة !

فقال الفتى بامتنان :

— تشرفنا يامعلم ، هذه قهوة ذائعة الصيت

فسر المعلم ، وسأله بلهجة تشى بالرجاء :

— أتأتى ؟

— إن شاء الله . .

فقال المعلم كرشة نفد صبره :

— كل شيء بمشيئة الله . ولكن أتنوى الحضور حقاً أم تقول ذلك تملصاً منى ؟

فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال :

— بل أنوى الحضور حقاً . .

— الليلة إذاً !

ولما لم ينبس الفتى بكلمة ، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص طربا :

— لابد . .

فمغم الشاب :

— بإذن الله . . !

فتنهد الرجل بصوت مسموع ثم سأله :

— أين تقيم ؟

— عطفة الوكالة . .

— نحن جيران تقريباً . متزوج ؟

— كلا . . مع أهلى . .

فقال برقة :

— أنت ابن ناس طيبين كما يبدو لى . الإناء الطيب ينضح ماء طيباً . وينبغى أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام ، إذ لا يجوز أن تبقى مدى العمر عاملا بسيطاً فى دكان . .

فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل ، وتساءل الشاب فى خبث :

— وهل لمثلى أن يطمع فى أكثر من هذا ؟ !

فقال المعلم كرشة باستهانة :

— هل ضاقت « بنا » الحيل ! ألم يكن جميع الكبار صغاراً !

— بلى كانوا ، ولكن ليس من المحتم أن ينقلب الصغير كبيراً . .

فأردف المعلم يتم كلام الفتى :

— إلا إذا صادفه التوفيق ! فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا فيه على أنه يوم توفيق عظيم . أنتظرك الليلة ؟ !

فتردد الفتى قليلا ، ثم قال مبتسما :

— لا يأبى الكرامة إلا لئيم . . !

وتصافحا عند بوابة المتولى ، ثم رجع المعلم يخبط فى الظلماء . صحا الرجل الذاهل وسرى فى صدره دفء السرور . ولم يكن يستيقظ من دنيا النسيان التى يغط فيها إلا إذا لطمته موجة عنيفة من شهواته الخبيثة . ومر فى طريقه بالدكان المغلق فألقى عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق . وعاد إلى الزقاق وقد أغلقت دكاكينه ، وكادت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة . وكان جو القهوة — على خلاف الجو البارد فى الخارج — دافئاً يحفظ حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج « النصبة » ، وقد تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويحتسون الشاى والقهوة ، والراديو يذيع ما فى جوفه فلا يلقى إلا الإعراض والإهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صمًّا ، ودار سنقر كالنحلة لا يسكن ولا يكف عن الصياح . مضى المعلم إلى مجلسه وراء صندوق الماركات فى هدوء بالغ متحامياً الأنظار . واتفق عند حضوره أن كان عم كامل يسأل أصحابه أن يقنعوا عباس الحلو بالنزول عن الكفن المحتفظ له به ، ولكنهم أبوا عليه ذلك وأنكروا غرضه ، وقال له الدكتور البوشى :

— لا تفرط فى كسوة الآخرة . إن الإنسان ليعيش كثيراً فى دنياه عاريا ، أما عتبة القبر فلا يمكن أن يجوزها عارياً مهما كان فقره . . .

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة بالرفض والسخرية ، حتى كف الرجل يائساً . وراح الحلو بعد ذلك يعلن للإخوان ما اعتزم من العمل فى الجيش البريطانى ، ويستمع إلى آرائهم ونصائحهم ؛

وقد اجتمعت كلمتهم على الموافقة على مشروعه ، وتمنوا له النجاح والثراء ،
وكان السيد رضوان الحسيني منهمكا فى حديث طويل من أحاديثه المليئة
بالوعظ والإرشاد ، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول :

— ... فلا تقل مللت ! الملل كفر . الملل مرض يعتور الإيمان . وهل معناه
إلا الضيق بالحياة ؟ ! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه وتعالى ، فكيف لمؤمن أن
يملها أو يضيق بها ! ستقول ضقت بكيت وكيت ، فأسألك من أين جاءت
كيت وكيت هذه ؟ أليس من الله ذى الجلال ؟ فعالج الأمور بالحسنى ، ولا تتمرد
على صنع الخالق . لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها ، بيد أن مرارة
النفس الأمارة بالسوء تفسد الطعوم الشهية . صدقنى أن للألم غبطته ولليأس
لذته والموت عظته ، فكل شىء جميل وكل شىء لذيذ ! كيف نضجر وللسماء
هذه الزرقة ، وللأرض هذه الخضرة ، وللورد هذا الشذا ، وللقلب هذه القدرة
العجيبة على الحب ، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الإيمان . كيف نضجر
وفى الدنيا من نحبهم ، ومن نعجب بهم ، ومن يحبوننا ، ومن يعجبون بنا .
استعذ بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت . .

وحسا حسوة من قدح القرفة ، ثم أردف وكأنه ينبز عن خلجات ضميره :

— أما المصائب فلنصمد لها بالحب ، وسنقهرها به . الحب أشفى علاج .
وفى مطاوى المصائب تكمن السعادة كفصوص الماس فى بطون المناجم
الصخرية ، فلنلقن أنفسنا حكمة الحب .

كان وجهه الأبيض الوردى يفيض بشراً ونورا ، تحيط به لحيته الصهباء
إحاطة الهالة بالقمر . وكان كل شىء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته
الراسخة قلقاً مضطربا . وكان نور عينيه صافياً نقيا ينطق بالإيمان والخير
والحب والترفع عن الأغراض . ربما قيل إنه رجل خسر الجاه يوم أخفق
فى دراسته الأزهرية ، وإنه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الأبناء ،
ففزعت نفسه إلى تعويض خسرانها الفادح بالاستيلاء على القلوب بالحب

والجود ! ولـكن كم من المصابين مثله من سلك سبيله ، وكم منهم من سقط فريسة الجنون ، وكم منهم من صب جام غضبه على الدنيا والدين ؟ ! ومهما يكن من أمر نفسه الخافية فما من شك فى إخلاصه ، كان مؤمناً صادقا ، ومحباً صادقاً ، وجواداً صادقاً ، ومن عجب أن يكون هذا الرجل — الذى طار صيته فى الخير والحب والجود كل مطار — حازماً حاسما وعلى فظاظة وحرص فى بيته ! ربما قيل إنه وقد آيس من كل سلطان حقيق فى هذه الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذى يذعن لإرادته ، ألا وهو زوجه ! وإنه يشبع شهوته الجائعة للنفوذ والسلطان باصطناع الحزم والمهابة معها . ولـكن ينبغى ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد الزمان والمـكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا لسعادتها هى نفسها قبل كل شىء . على أن زوجه نفسها لم يكن لديها ماتشـكوه نحوه ، ولولا الجروح التى تركها الأبنـاء تذكاراً خالداً فى قلبها ، لعدت نفسها امرأة سعيـدة ، فخوراً بزوجها وحياتهـا .

أما المعلم كرشه فـكان حاضراً غائبا ، لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة ، وعانى مرارة الانتظار فى صمت كئيب . وكلما مرت دقائق لوى عنقه واشرأب به نحو مطلع الزقاق ، ثم يعود إلى صندوق الماركات متصبراً متجلداً قائلا لنفسه : « سيأتى حتما ، سيأتى كما أتى إخوان له من قبل . . » . وتمثل له وجهه ، ثم نظر إلى الـكرسى القائم بينه وبين أريكة الشيخ درويش فرآه بعين الخيال يطمئن إليه . لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة أحد من أمثال هذا الشاب إلى قهوته تستراً وحياء ، ثم افتضح أمره ، وذاعت فضيحته ، فـكشف وجهه وارتاد الإثم جهاراً . وكان يقع بينه وبين زوجه من المآسى ما يبقى حـديثاً فاضحاً تتناقله الألسن ، ويتلقه بشغف أمثال الدكتور بوشى وأم حميدة ، ولـكنه لم يعبأ شيئاً . وما تكاد النار تخمد إلى حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرمها ضراما ، وكأنه وجد

أخيراً فى الجهر لذة فلهج بها . وهكذا جلس قلقا لا تعرف السكينة سبيلا إلى نفسه الملوثة ، كأنه يجلس على مشواة ، يكاد ينبرى عنقه من كثرة ليّـه ، حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال للحلو فى خبث :

— هذه علامات الساعة !

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة ، وأنشد يقول :

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعا وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا

آه يا ست . الحب يساوى الملايين . أنفقت فى حبك يا ست مائة ألف جنيه ، وإنه لقدر زهيد . . .

* * *

وأخيراً رأى الدكتور بوشى المعلم كرشة يحدق باهتمام شديد فى مطلع الزقاق ، ورآه يستوى جالساً وقد ابتسمت أساريره ، فنظر إلى مدخل القهوة مترقباً ، وما لبث أن طالعه وجه الشاب ، وقد ألقى على السمار نظرة المتردد من عينيه الساجيتين . . .

٧

تقع الفرن فيما يلى قهوة كرشة ، لصق بيت الست سنية عفيفى . بناء مربع على وجه التقريب ، غير منتظم الأضلاع ، تحتل الفرن جانبه الأيسر ، وتشغل الرفوف جدرانه : وتقوم مصطبة فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبا الدار : المعلمة حسنية وزوجها جعدة . وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا الضوء المنبعث من فوهة الفرن . وفى الجدار المواجه للمدخل يرى باب خشبى قصير يفتح على خرابة ، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة ، إذ ليس بها إلا كوة فى الجدار المواجه المدخل تطل على فناء بيت قديم . وعلى بعد ذراع من الكوة ، وعلى رف ممتد ، مصباح يشتعل ، يلقى على

المكان ضوءاً خفيفاً يفضح أرضه المتربة المغطاة بأنواع لا يحصيها العد من القاذورات المتنوعة ، كأنها مزبلة . أما الرف الذى يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة ، كأنه رف صيدلى لولا قذارته النادرة . وعلى الأرض — تحت الكوة مباشرة — كان يوجد شىء مكوم لايفترق عن أرض المكان قذارة ولوناً ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق — على رغم كل شىء — فى لقب إنسان ؟ ذلك هو زيطة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة . وحسبه أن يرى مرة واحدة كيلا ينسى بعد ذلك أبداً ، لبساطته المتناهية ، فهو جسد نحيل أسود ، وجلباب أسود ، سواد فوقه سواد ، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان . ولم يكن زيطة — على ذلك — زنجياً ، بل إنه مصرى أسمر اللون فى الأصل . ولكن القذارة الملبدة بعرق العمر كونت على جثته طبقة سوداء . كذلك جلبابه لم يكن فى البدء أسود ، ولكن السواد مصير كل شىء فى هذه الخرابة . وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذى يعيش فيه ، فلا يزور ولا يزار ، لا نفع فيه لأحد ولا نفع فى أحد له ، اللهم إلا الدكتور بوشى ، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم . أما صناعته فمعروفة لدى الجميع ، وهى صناعة تخول له لقب دكتور وإن لم يتخذه إكراماً لبوشى . كان يصنع العاهات ، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة ، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد . يقصده الراغبون فى احتراف الشحاذة ، فبفنه العجيب — الذى يحشد أدواته على الرف — يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات . يجيئونه صحاحا ويغادرونه عميانا وكسحانا وأحدابا وقصانا ومبتورى الأذرع أو الأرجل . وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته ، وعلى رأسها جميعا اشتغاله عبداً طويلا فى سرك متجول ، ولاتصاله بأوساط الشحاذين — اتصالا يرجع عهده إلى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين شحاذين — فكر فى تطبيق فن

« المكياج » الذى تلقنه فى السرك على يد بعض الشحاذين ، فى بادىء الأمر على سبيل الهواية ، ثم على سبيل الاحتراف حين ضاقت به أوجه العيش. ومن مشاق عمله أنه يبدأ فى الليل ، أو عند منتصف الليل على الأصح ، ولكنها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة ، أما فى أثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال ، يجلس القرفصاء يأكل أو يدخن ، أو يتسلى بالتجسس على الفران والفرانة ، ولكم كان يلذه أن يسترق السمع لما يدور بينهما من حديث ، أو أن يشاهد من ثقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء ، حتى إذا أتى الليل رآهما وقد شملهما الصفاء وأقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتباسطه السمر . وكان زيطة يمقت جمدة ويحتقره ويستقبح وجهه ! وفضلا عن ذلك كله كان يحسده على ماحباه الله به من زوج « كاملة الجسم » أو على حد تعبيره « امرأة بقرى ! » . وكان كثيراً ما يقول عنها إنها فى دنيا النساء تقابل عم كامل فى دنيا الرجال ! . وكان من أهم الأسباب التى دعت أهل الزقاق إلى تجنبه رائحته المنتنة ، فلم يكن الماء يعرف سبيلا إلى وجهه أو جسده . وقد آثر وحشة العزلة على الاستحمام ! وبادل الناس مقتاً بمقت عن طيب خاطر ، فكان يرقص طربا إذا قرع مسمعيه صوات على ميت ، ويقول وكأنه يخاطب الميت : « جاء دورك لتذوق التراب الذى يؤذيك لونه ورائحته على جسدى ! » . وربما قطع وقت فراغه الطويل فى تخيل صنوف التعذيب التى يتمناها للناس واجداً فى ذلك لذة لا تعادلها لذة ، يتصور جمدة الفران هدفا لمشرات الفؤوس تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة كلها ثقوب ! . أو يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجىء ودمه يجرى نحو الصنادقية . أو يتمثل له السيد رضوان الحسينى تجره الأيدى من لحيته الصهباء نحو الفرن الملتهبة ثم يستخرجونه منها زكيبة من الفحم . . أو يرى المعلم كرشة مطروحا تحت عجلات الترام يمزق أوصاله ثم يلمون أشلاءه فى مقطف قذر يبيعونه لهواة الكلاب . . وغير هذا كثير مما يراه

دون ما يستحق الناس . وكان إذا باشر عمله وأخذ فى صنع العاهة لطالبها ، اشتد عليه فى قسوة مقصودة مستخفياً وراء سر المهنة ، حتى إذا ندت التأوهات عن فريسته لمت عيناه المخيفتان بنور جنونى . ومع ذلك كان الشحاذون أحب البشر إلى نفسه ، وتمنى كثيراً لو كان الشحاذون أكثرية أهل الأرض .

* * *

هكذا جلس زيطة غارقا فى أخيلته يترقب وقت العمل . وعندما انتصف الليل أو كاد نهض قائما ، ونفخ المصباح فانطفأ وساد ظلام ثقيل . ثم تلمس طريقه إلى الباب وفتحه فى هدوء بالغ ، ثم اخترق الفرن إلى الزقاق . والتقى فى سبيله بالشيخ درويش يغادر القهوة ، وكثيراً ما يلتقيان فى منتصف الليالى دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولذلك كان للشيخ حظ موفور فى محكمة التفتيش التى ينصبها زيطة فى خياله للبشر . وانعطف صانع العاهات إلى سيدنا الحسين فى خطوات قصيرة وئيدة ، وكان يقترب فى سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الحالكة — كانت بعض قيود الإضاءة ما تزال موجودة — فلا يراه المقبل نحوه فى الطريق حتى يصطدم بعينيه البراقتين يلمعان فى الظلام لمعان القطعة المعدنية فى حزام الشرطى . وفى الطريق ، يداخله شعور بالانتعاش والزهو والسرور ، فهو لا يشعر به إلا حين يكاد ينقطع إلا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة . وشق ميدان الحسين منعطفاً صوب الباب الأخضر فبلغ القبو القديم ، وجعل يردد عينيه المخيفتين بين أكوام الشحاذين على جانبيه ، فملأه الارتياح .. ارتياح السيد إلى قوته ، وارتياح التاجر يرى بين يديه السلع النافقة . ودنا من أقرب الشحاذين إليه ، وكان جالساً القرفصاء معتمداً رأسه على ركبتيه ويغط غطيطاً ، فوقف حياله لحظة متفرساً كأنما ليسبر نومه هل هو نوم حقيقة أو تظاهر بالنوم ، ثم ركله فى رأسه الأشعث ، فانتبه الرجل من نومه — غير مذعور — كأنما أيقظته أنامل ناعمة ، ورفع رأسه متثاقلا

وهو يحك جنبيه وظهره ورأسه بأظافره . فوقع بصره على الشبح المشرف عليه ، وحلق فيه لحظة ، فعرفه — على عماه — لأول وهلة . وتنهد الرجل فندّ عن صدره صوت كالوحوحة ، ثم دسّ يده فى صدره واستخرج مليما غمز به كف الرجل . وانتقل زيطة إلى من يليه ، ثم إلى من يليهما ، حتى إذا فرغ من جناح القبو جميعاً اتجه نحو الجناح الآخر ، ثم مضى إلى الأزقة والحوارى المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذ واحد . ولم يكن إكبابه على تحصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العاهات التى صنعها ، وربما سأل هذا أو ذاك « كيف عماك يافلان؟ » أو « كيف كساحك يا فلان ؟ » فيجيبونه « الحمد لله . . الحمد لله » . ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع فى طريقه رغيفاً وحلاوة طحينية وتبغا ورجع إلى الزقاق . كان الصمت شاملا يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسينى حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة . وجاز الرجل عتبة الفرن فى هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين ، ودفع بابه الخشبى فى حذر ورده فى سكون . . لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها ، ولم تكن خالية . كان المصباح مشتعلا ، وعلى الأرض تحته يجلس رجال ثلاثة . ودلف الرجل بينهم فى هدوء لأن وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه ، وعاينهم بعينيه البراقتين فعرف منهم الدكتور بوشى . ووقفوا له جميعاً ، وقال له الدكتور بوشى بعد أن حياه تحية طيبة :

— هاك رجلين مسكينين يستشفعان بى إليك ..

فتظاهر زيطة بعدم المبالاة ، وقال متظاهراً بالملل :

— فى مثل هذه الساعة يا دكتور ؟ !

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له :

— الليل ستار وربنا أمر بالستر !

فقال زيطة وهو ينفخ :

— ولكنى متعب الآن .. !

فقال البوشى برجاء :

— لا رددت لى يداً . .

وراح الرجلان يضرعان ويدعوان له ، فتظاهر بإذعان مرغماً ، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالها متفرساً فى أناة وهدوء . ثم ثبتت عيناه على أطولها . كان عملاقا قوياً فدهش زيطة لمنظره وسأله :

— أنت بغل بلا زيادة ولا نقصان ، فلماذا تروم احتراف الشحاذة ؟ !

فقال الرجل بصوت منكسر :

— لم أفلح فى عمل أبداً . حاولت أعمالا كثيرة ، حتى الشحاذة نفسها ، ولكن لم يقدر لى التوفيق ، حظى أسود ، وعقلى وسخ ، لاأفهم شيئاً ولا أتقن شيئاً . .

فقال زيطة بحقد :

— كان ينبغى إذاً أن تولد غنيا . .

ولم يفطن الرجل لمرماه ، وراح يستعطفه بتصنع البكاء قائلا بصوت كالخوار :

— أخفقت فى كل شىء ، حتى الشحاذة لم تجذب لى رحيما واحداً . كل الناس يقولون أنت قوى ويجب أن تشتغل ، هذا إذا لم يشتمونى وينهرونى . لا أدرى لماذا !

فقال زيطة وهو يدلك رأسه :

— ياسلام . حتى هذا لاتدركه

— الله يخليك ويجبر بخاطرك . .

وكان زيطة لا يكف عن فحصه متفكراً ، فقال بحزم وهو يغمز أعضاءه :

— أنت قوى حقا . أعضاؤك سليمة . إنى أعجب ماذا تأكل ؟

— الخبز إذا وجد ولا شىء غيره .

— هذا جسم شيطانى بلا ريب . ترى ماذا تكون لو أكلت كما تأكل حيوانات الله التى يؤثرها بخيره ونعمته ؟ !

فقال الرجل ببساطة :

— لا أدرى . .

— طبعاً طبعاً . . أنت لاتدرى شيئاً ، فهمنا هذا ، وخير ما فعلت ، فلو كنت تدرى لانقلبت واحداً منا . اسمع ياهذا لافائدة ترجى من تشويه أعضائك . .

ولاح الانقباض فى الوجه الثور ، وأوشك أن يتبا كى كرة أخرى لولا أن بادره زيطة قائلا :

— عسير جدا أن أكسر لك رجلا أو ذراعاً ، ومهما صدمت بك فلن تستثير عطف أحد . إن البغال أمثالك يثيرون الحنق أينما يحلون . ولكن لا تيأس (كان الدكتور بوشى ينتظر هذه العبارة بصبر نافد) فهنالك طرق شتى ، أعلمك فن العته مثلا ، وأنت لايقصك منه شىء ذو بال ، أجل العته ، وأحفظك بعضاً من مدائح الرسول . . .

فتهلل وجه الرجل ودعا له كثيراً ، حتى قاطعه زيطة متسائلا :

— لماذا لم تشتغل قطاع طرق ؟

فقال الرجل بانكسار :

— أنا رجل طيب مسكين ، لا أقصد إنساناً بسوء ، وأحب آل البيت .

فقال زيطة باحتقار :

— أتبدؤنى أنا بهذه البوليتيكا . . ؟

ثم التفت إلى الرجل الآخر ، كان قصيراً هزيلا ، فقال زيطة بارتياح :

— استعداد طيب . .

فابتسمت أسارير الرجل وقال ممتناً شاكراً :

— الحمد لله كثيراً . . .

— خلقت لتكون أعمى مقعداً .

فقال الرجل بسرور :

— هذا من فضل ربى . .

فهز زيطة رأسه وقال ببطء :

— العملية دقيقة وخطيرة . دعنى أسألك عن أسوإ الاحتمالات ، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو إهمال فماذا تفعل ؟

فتردد الرجل لحظة ، ثم قال بغير مبالاة :

— نعمة من الله ! وهل أفدت من بصرى شيئاً حتى آسف على ضياعه ؟

فقال زيطة بارتياح :

— بهذا القلب تستطيع أن تواجه الدنيا حقاً .

— بإذن الله ياسيدى . ستكون روحى ملك يدك . سأنزل لك عن نصف ما يجود به المحسنون . .

فحدجه زيطة بنظرة قاسية وقال بحدة :

— هذا كلام لايجوز على ، حسبي مليمين غير أجر العملية ، وإنى أعرف كيف أستخلص حقى إذا سولت لك نفسك المماطلة . .

وهنا قال البوشى محذراً :

— لم تذكر نصيبك من الخبز .

فاستدرك زيطة قائلا :

— طبعاً . طبعاً . والآن فلنشرع فى العمل ، العملية شاقة ، ولسوف تمتحن قوة احتمالك ، فا كتم الألم ما استطعت إلى ذلك سبيلا . .

وتصور ما سوف يكابده هذا الجسم النحيل الهزيل من هرس يديه القاسيتين ، فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتسامة شيطانية . . .

٨

كانت الوكالة مثار ضجيج لا ينقطع فى الزقاق طول النهار . عمال كثيرون لايكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصيرة ، وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطرد فى تتابع متواصل ، وعدد من سيارات العمل الضخمة يجعجع أزيزها فيطبق على الصنادقية وما يتاخمها من الغورية والأزهر ، وتيار زاخر من الزبائن والعملاء . هى وكالة عطارة بالجملة والتجزئة ، وليس من شك فى أن انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث فى سوقها أثراً ملحوظاً ، ولكن الوكالة على رغم ذلك حافظت على سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها وأرباحها . وفضلا عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيد سليم بالاتجار بمواد لم يكن يلق إليها بالا كالشاى ، فغامر فى السوق السوداء ، وربح أرباحا طائلة . وكان السيد سليم علوان يجلس إلى مكتبه الضخم فى نهاية الردهة الموصلة إلى فناء الوكالة الداخلى التى تحدق به المخازن ، وهو مركز وسط يستطيع أن يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، ويتيسر له مراقبة العمال والحمالين والزبائن جميعاً . لذلك كله فضل هذا المركز على الانفراد فى حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر الحق — على حد تعبيره — « ينبغى أن يكون مفتوح العينين دائماً » . وكان الرجل فى الواقع من النماذج العملية الموفقة ، خبيراً فى مهنته ، قادراً على النهوض بأعبائها . ولم يكن من حديثى النعمة الذين أنجبتهم الحرب ، لأنه على حد تعبيره أيضاً « تاجر ابن تاجر » ، بيد أنه لم يكن فى البدء معدوداً من الأغنياء ، ثم خاضت تجارته غمار الحرب الأولى وخرجت ظافرة ، وأدركتها هذه الحرب فأثقلت موازينها حتى أتخمتها بالثراء . على أن الرجل لم يخل من الهموم ، وبحسبه أن يناضل فى الميدان وحده بلا معين ولا نصير . أجل كان ما يتمتع

به من صحة جيدة وحيوية فائضة خليقا بأن يهون عليه همومه ، ولـكن لم يكن بد من التفكير فى الغد ، القريب أو البعيد ، إذا انصرم العمر أو كاد ، وافتقدت الوكالة من يديرها . فمن المؤسف حقا أن أحداً من أبنائه الثلاثة لم يقع له فى خاطر أن يتقدم لمعاونة أبيه فى عمله ، وكانوا جميعا سواء فى الإعراض عن التجارة ، وضاعت محاولاته فى ثنيهم عن إعراضهم كلها سدى ، فلم يجد مناصا — على بلوغه الخمسين — من النهوض بالأمر كله . وليس من شك فى أنه كان المسئول عن هذا الختام المرهق ، فقد كان على رغم عقليته التجارية — جواداً كريما ، أو كان كذلك على الأقل فى بيته وبين أهله ، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسة أثاث وكثرة خدم وحشم وفضلا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية إلى قصر منيف بالحلمية ، فترعرع الأبناء فى وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار وأوساطهم ، وسط يضمر بلا ريب نوعا من الاحتقار للمهن الحرة جميعاً ، فتملقوا بمثل عليا جديدة بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته . وحين جد الجد تمردوا على نصحه وأبوا حتى الالتحاق بمدرسة التجارة أن تـكون لخالهم ، وشقوا سبيلهم إلى الحقوق والطب ، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العينى . ومع ذلك كانت الحياة سعيدة ، وقد بدت آثارها الطيبة فى جسمه البدين المتين ، ووجهه الممتلىء الورد ، وحيويته الشابة المتوثبة سعادة منشؤها أن كل شيء فى موضعه المأمول ، تجارة رابحة ، صحة جيدة ، أسرة سعيدة ، أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمأن إليها . وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع ، تزوجن جميعاً وبارك الله فى زيجاتهن . فبدا كل شيء باسما منبسطا لولا ماينتابه بين الحين والحين من التفكير فى مصير الوكالة والتجارة . وبكروز الأيام تنبه الأبناء إلى متاعب الأب ، ولـكنهم قدروها من ناحية أخرى ، فساورهم خوف أن يفلت الزمام يوماً من يد والدهم ، أو أن يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون . وكان أن اقترح عليه أحدهم — محمد سليم علوان القاضى

أن يصفى تجارته ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذاك النضال الطويل. بيد أن السيد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه ، واستياء استياء لم يحاول إخفاءه ، فقال له « أتريد أن ترثني حيا ! » ودهمه قوله هذا وهاله ، لأنه وإخوته يحبون أباهم حبا صادقا ، فلم يعد أحد منهم إلى طرق هذا الموضوع الخطير . ولكن لم ينته الأمر عند هذا الحد فراحوا يقولون — واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة — إن شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الأموال فى المصارف . وفطن إلى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذى يحسن إدراك مسائل المال وما يتفرع عنها ، فهو يعلم حق العلم أن التجارة التى تدر المال بلا حساب قد تبتلعه أيضا فى ساعة نحس واحدة ، وأن التاجر الذى يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا حقيق إذا وقعت هذه الساعة — وخاصة إذا سجل ما ابتاع من عقار باسم أبنائه مثلا أو زوجه — أن يخرج من شدته ببعض المال ، وعسى أن يكون مالا كثيراً ، لا صفر اليدين . وهو إلى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة ، وانتهوا إلى الإفلاس والفقر المدقع ، أو إلى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمداً . أجل إنه يعلم ذلك كله ، ويعلم أن أبناءه على حق فيما يريدون ، ولعل التفكير فى هذا الذى يريدون لم يكن جديداً عليه ؟ ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع فى مثل هذا العمل ؟ ! كلا ، هذا بين بلا ريب . وإذاً فليؤجل إلى حين ، وليطو فى نفسه حتى يتيسر تحقيقه ولم يكد يحسب أنه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه القاضى أيضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية . قال له : كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك مالا وجاها ومقاما .

وسره هذا الإطراء . وكان فى الحق — وعلى خلاف التجار الحصفاء مغرما بالجاه والجلال ، ولكنه تساءل فى سذاجة عن السبيل إلى التماس هذه الرتبة . وغدا الأمر شغل الأسرة الشاغل ، وتحمسوا له جميعا وإن اختلفوا فى الوسيلة . فاقترح البعض عليه أن يشتغل بالسياسة وأن يدلى فيها

بدلوه ! حقا كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئا — فيما عدا التجارة — من أمور الدنيا ، ولا تكاد تسمو آراؤه أو معتقداته على آراء ومعتقدات عباس الحلو مثلا ، فكان مثله يضرع خاشعا إلى ضريح الحسين ، وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به . كان بإيجاز معدة قوية وجبة زاهية . بيد أن السياسة لا تحتاج فى كثير من الأحايين إلى أكثر من هذا . وقد مضى يفكر فى الأمر تفكيراً قويا ، لولا أن اعترضه ابنه المحامى — عارف سليم علوان — فقال له محذراً :

— السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا . ستجد نفسك ملزما بالإنفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك وأهلك وتجارتك . وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافا من أموالك دون جدوى ثمنا لكرسى غير مضمون ، وهل البرلمان فى بلادنا إلا كمريض بالقلب تهدده السكتة فى أية لحظة ! ثم أى حزب تختار ؟ إذا اخترت حزبا غير الوفد أضعفت مكانتك فى الوسط الذى تعمل فيه ، وإذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقى باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح . .

وتأثر السيد بقول ابنه ، وكان يثق فى أبنائه « المتعلمين » ثقة كبيرة ، وزاده انحيازاً إلى طرح السياسة جانباً جهله التام بشئونها ، وبروده حيالها ، فلم يكن يعلم من أمورها إلا أسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول .

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة . ولم يرقه الاقتراح من بادىء الأمر ، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه تنفر نفوراً طبيعيا من البذل والعطاء ، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف ، لأنه فى الواقع كان كرما لنفسه وبيته . على أنه لم يقطع بالرفض ، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة ، وما زال يطمع فيها ويريدها . وقد أدرك أنها تقتضيه قدراً من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه ، فما عسى أن يصنع ؟ لم يبت برأى قاطع ، وإن قال لأبنائه « كلا » ، بيد أنه أضاف الرتبة إلى همومه الأخرى القانعة بلا قض كإدارة

الوكالة وشراء العقار ، تاركا أمر الجميع للمستقبل وللظروف .

* * *

ومهما يكن من أمر هذه الهموم فهي ليست بالخطر الذى ينغص صفو الحياة وخصوصا حياة رجل يستغرقه العمل نهاراً ، والغريزة ليلا . والحق أنه إذا شغله العمل لم يعد يفكر فى شيء سواه ، وقد جلس إلى مكتبه مركزا انتبـاهه كله فى كلام سمسار يهودى ، مستجمعاً يقظته ، مستحضرا حذره ، يعجب لرقة محدثه ولطفه ، حتى ليحسبه الجاهل صديقا ودودا ، وهو فى الحقيقة نمر يتوثب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن ، والويل لمن يتمكن منه . وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، أو أنه — على حد تعبيره — شيطان مفيد . وكان يساومه بصفقة شاى مضمونة الربح غزيرته ، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شأنه إذا استغرقه التفكير الخطير ! وحاول الخواجا بعد أن فرغ من الشاى أن يعرض عليه شراء عقار صالح — وكان على علم برغبته فى الشراء — ولـكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع فى ذلك إلى ما بعد الحرب ، وأبى أن يصغى إليه ، فغادر الرجل الوكالة قانعا بصـفقة واحدة . وجاء غير هذا الخواجا آخرون . وواصل السيد العمل بما عرف عنه من مقدرة وهمة . وعند منتصف النهار نهض للغداء ، وكان يتناول غداءه فى حجرة أنيقة أعد بها فراشا للمقيل . وكان غدوه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك . ولما انتهى من طعامه مضى إلى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين . وفى أثناء ذلك تسكن حركة الوكالة ، فيسود السكون الزقاق جميعا . وكان لصينية الفريك قصة يعرفها أهل الزقاق جميعاً . هى طعام ووصفة فى آن واحد ، وقد برع فى تهيئتها أحد عماله المقربين ، فظلت حقيقتها سرا بينهما لولا أنه لا يؤمن على سر فى زقاق المدق . هى صينية فريك محشو بالحمام ، ومخلوط بقدر من مسـحوق جوزة الطيب ، يلتهمها فى الغداء ، ويحتسى بعدها شايا مرتين أو ثلاث مرات ، فيدعا كل

ساعتين ، فتحدث مفعولها ليلا ، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهجة خالصة ! . وقد ظلت الصينية سراً لا يدريه إلا الرجلان والمعلمة حسنية الفرانة . وكان أهل الزقاق يرونها فيحسبون أنها غذاء خالص ، فيقول البعض : « بالهناء والشفاء » ويغمغم البعض : « يطفحها سماً بإذن الله ! » . ثم لعب الطمع يوماً بقلب المعلمة حسنية ، فسولت لها نفسها أن تجرب هذه الوصفة في زوجها جعدة الفران ، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص . ودأبت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة إلى غفلة السيد ، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ ! بيد أن السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلا ، ولاحظ بسهولة ما طرأ من تغير على لياليه ، وعاد باللائمة بادىء الأمر على العامل الذي يهيىء الوصفة . فلما أن أبرأ الرجل ذمته داخله الشك في الفرانة ، واكتشف السرقة بغير صعوبة ، فدعا الفرانة ووبخها ، وعدل عن إرسال الصينية إلى فرنها ، مستبدلا بها الفرن الأفرنجي بالسكة الجديدة . وبدأ السر ينكشف ويذيع فعلمت به أم حميدة ، وكان في ذلك الكفاية كل الكفاية ، فسرعان ما أحاط به أهل الزقاق جميعاً ، وراحوا يتلقون الصينية بالغمز واللمز . وأدرك السيد غاضباً أن سره قد افتضح ، ولكنه لم يعبأ ذلك طويلا ! أجل . قطع أكثر عمره في الزقاق ، ولكنه لم يكن يوما من أهله ، ولم يعمل لواحد منهم حساباً ، ولولا السيد رضوان الحسيني والشيخ درويش لما عني برفع يده تحية . وكادت الصينية تصبح في وقت من الأوقات موضة الزقاق جميعاً ، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها أحد . جربها المعلم كرشة والدكتور بوشي ، حتى السيد رضوان الحسيني ذاقها بعد أن تأكد من أنها لا تحوى مادة يحرمها الشرع الحنيف ! أما السيد سليم فكان يواظب عليها إلا فيما ندر . والواقع أنه كان يضطرب من الحياة في مضطرب ضيق نهاره نهب للوكالة ، وليله خال مما يتسلى به أمثاله من الناس ، فلا قهوة

ولا ناد ولا ملهى ، ولا شيء مطلقاً إلا زوجه ، ولذلك تفنن في مسراته الزوجية تفنناً شذ بها عن جادة الاعتدال .

* * *

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى ، وارتدى قفطانه وجبته ، وعاد إلى مكتبه فوجد قدح الشاي الثاني مهيأ ، فاحتساه بتلذذ وهو يتجشأ جشآت مجلجلة يدوي صداها في الفناء الداخلي . وأقبل على عمله بنفس الهمة التي استقبله بها في الصباح . ولكنه كان يبدو في فترات وكأن قلقاً ينتابه . كان يتلفت نحو الزقاق ، وكان ينظر في ساعته الذهبية الضخمة ، وكان يعبث بأنفه على غير شعور منه . وعندما ارتفع ضوء الشمس إلى أعلا الجدار الأيسر للزقاق ، أدار مقعده اللولبي وجعل وجهه للطريق . ومرت دقائق ثقيلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق . ثم أرهف السمع ولمعت عيناه لوقع شبشب على أحجار الطريق المنحدر ، ثم مرت حميدة أمام باب الوكالة في ثوانٍ معدودات ، وفتل شاربيه بعناية ؛ ودار بكرسيه إلى المكتب وقد لاح في عينيه السرور ، وإن وجد شعوراً بعدم الارتياح ! . من العسير أن يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوق . ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت إلا من قبيل استراق النظر إلى نافذتها في أويقات نادرة كلما جازف بالظهور أمام الوكالة كأنما يريح أعصابه بالمشي . كان شديد الحذر بطبيعة الحال صوناً لمنزلته وكرامته ، فهو السيد سليم ، وهي فتاة مسكينة ، والزقاق زخار بالألسن الحداد والأعين المتطفلة . وتوقف عن العمل وجعل ينقر المكتب بسبابته متفكراً . أجل ، هي مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم وا أسفاه ، والنفس أمارة بالسوء ! . مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزي ونظرة عينيها وقدها المشوق ، كل أولئك مزايا تستهين حقاً بفوارق الطبقات ! . وما جدوى المكابرة ؟ إنه يهوى العينين الفاتنتين والوجه المليح ، والجسم الذي يقطر إغراء ، وهذه العجيزة الأنيقة التي تزري بورع الشيوخ . إنها أنفس من

وارد الهند جميعاً . ولقد عرفها منذ كانت صبية صغيرة تتردد على الوكالة لابتياع ما تحتاجه أمها من الحناء ومواد الفتقة والمغات . رأى ثدييها وهما نبقتان ثم وهما دومتان ، حتى استوتا رمانتين . وعاين عجيزتها وهى أساس أملس لم ينهض عليه بناء ، ثم وهى تكور رقيق يتمطى به النضج ، وأخيراً وهى كرة تنضح أناقة وأنوثة . وراح الرجل يحضن إعجابه المترعرع حتى أفرخ فى النهاية رغبة عارمة . إنه يعلم ذلك ، ولم يعد يحاول إنكاره . ولطالما قال لنفسه : « ليتها كانت أرملة كالست سنية عفيفى ! » لو كانت أرملة لوجد لنفسه مخرجا . أما وهى عذراء فينبغى أن يطيل التفكير فى أمره . وتساءل كما اعتاد أن يتساءل : ماذا يروم ؟ وذكر وهو لا يدرى زوجه وأسرته . كانت زوجه امرأة فاضلة ، تتحلى بكل ما يحب الرجل من أنوثة وأمومة وإخلاص ومهارة فائقة فى شئون البيت ، وكانت على شبابها مليحة ولودا . فهو لا يأخذ عليها نقيصة واحدة ، وفضلا عن ذلك كله كانت من أسرة كريمة تتفوق عليه كثيراً فى الأصل والمحتد . وهو يقر لها بفضائلها جميعاً ؛ ويضمر لها وداً صادقا ، ولا يضايقه إلا أنها استوفت شبابها وحيويتها ، فقصرت عن مجاراته ، وعجزت عن احتماله ، فبدا بالقياس إليها — وبسبب حيويته الخارقة — شابا نهما لا يجد فيها ما يشتهيه من متاع ! . والحق أنه لا يدرى إن كان ذلك ما علقه بحميدة ، أم أن هواه ما جمله يستشعر هذا الفراغ الأليم ! . ومهما يكن الأمر فقد أحس رغبة لا تقاوم إلى دم جديد ! ، وقال لنفسه صراحة : « مالى أحرم على نفسى ما أحل الله لها ! » . على أنه كان رجلا محترما ، حريصاً جداً على أن يقر له كل إنسان بالاحترام ، ويكربه غاية الكرب أن يكون مضغة الأفواه . كان من الذين يعملون للناس وآرائهم كل حساب . وكان يقول مع القائلين : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » . وإنه ليأكل صينية الفريك ، أما حميدة . . . . ! رباه ! لو كانت من أسرة كريمة ما تردد لحظة فى طلب يدها . ولكن كيف تصير

حميدة ضرة للسيدة عفت ! ؟ وكيف تصبح أم حميدة الخاطبة حماته كما كانت يوما المرحومة ألفت هانم ؟! وعلى أى وجه تكون حميدة امرأة أب لمحمد سليم القاضى وعارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم ؟! . وهنالك أمور أخرى — لا تقل عن هذه خطورة — ينبغى تقديرها حق قدرها . هنالك بيت جديد لا بد — فى هذه الحالة — أن يتهيأ ، ونفقات جديدة ربما ضاعفت من نفقاته القديمة ، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتماسكة ، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء . وفى سبيل أى شىء كل هذه المتاعب ؟ . . . ميل رجل — بل زوج وأب — فى الخمسين لفتاة فى العشرين ! لم يغب عنه شىء من هذا ، لأنه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تتصل بالمال وأحوال المعيشة . ومضى يراجع نفسه حائراً متردداً لا يقر له قرار . وباتت هذه العاطفة إحدى الهموم المعلقة فى حياته ، وانتظمتها سلسلة مشاكله التى لم تفض كإدارة الوكالة ومستقبلها ، وشراء العقار وتشييد العمارات ، ورتبة البيكوية ، بيد أنها كانت أشد إلحاحاً وأبعث شجناً .

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر إذا خلا إلى نفسه ومد له حبل التفكير ، أما إذا خطرت حميدة أمام عينيه ، أو لاحت لها فى النافذة ، فلم يكن يفكر إلا فى أمر واحد . . .

٩

أصبحت أم حسين — إمرأة المعلم كرشة — فى هم مقيم . فانقطاع عادة مألوفة لا يمكن أن يمر دون تساؤل ، خصوصاً إذا كان انقطاعها فى الماضى يقترن دائماً بشر مستطير . وقد قطع المعلم كرشة عادة محبوبة لا يصح أن تقطع لغير سبب خطير ، فراح يمضى سهرته الليلية بعيداً عن البيت ، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين إلى حجرة السطح كل منتصف ليل فيمتد بهم السهر حتى مطلع الفجر . وطافت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم

الذي ينغص عليها صفو الحياة . ما الذي يدعوه إلى قضاء الليل خارج داره ؟ أيكون ذلك السبب القديم ؟ ذلك الداء الوبيل ؟ . سيقول الفاجر إنه مجرد تغيير يراد به دفع الملل ، أو الانتقال لمكان أوفق لفصل الشتاء ، ولكن هيهات أن تهضم نفسها أمثال هذه المعاذير الكاذبة ، وإنها لتعلم من أمر نفسه ما يعلمه الناس جميعاً . لذلك أصبحت المرأة في هم مقيم ، وباتت تتحرق على فعل شيء حاسم مهما كانت عواقبه . وكانت امرأة قوية — على دنوها من الخمسين — لا تنقصها أسباب الجراءة التي تجاوز الحد في كثير من الأحايين . وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالبأس — كحسنية الفرانة وأم حميدة — واشتهرت بوجه خاص لما يقع بينها وبين زوجها من دواعي الملاحاة بسبب شذوذ سلوك الرجل ! ، كما اشتهرت بأنفها الكبير الغليظ الأفطس . وكانت زوجا ولوداً ، أنجبت بناتا ستا وذكراً واحدا هو حسين كرشة وجميع بناتها متزوجات ، وجميعهن يحيين حياة زوجية مقلقلة ، لا تخلو من نكد وإن كانت تسير ولا تنقطع . وقد حدثت لصغراهن مأساة كانت حديث الزقاق يوما ، إذ اختفت بغتة في عامها الأول من الزواج ، ثم ضبطت في بيت عامل ببولاق ، وانتهى بها وبه المطاف إلى السجن . كانت مأساة الفتاة كربا شديداً للأسرة ، ولكنها لم تكن المأساة الوحيدة التي ابتليت بها ، فالمعلم نفسه مأساة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء . وكانت أم حسين تعرف السبيل إلى معرفة ما خفي عليها من الأمر ، فراحت تستخبر عم كامل وتستنطق الغلام سنقر صبي القهوة حتى علمت بالشاب الذي أخذ يتردد في عهده الأخير على القهوة فيحتفي به المعلم كل احتفاء ويقدم له الشاي بنفسه ! وأخذت تراقب رواد القهوة خفية حتى رأت الشاب بنفسها وشاهدت مجلسه لى يمين المعلم ، ولمست احتفاءه به . وجن جنونها ونكأ الجديد القديم من جروحها ، فباتت ليلة جهنمية ، وأصبحت على شر حال وأسوإ نفس . ولم تكن رأيها قد استقر على حال ، كانت تغلى غليانا ولكنها لا تدري أى سبيل تسلك ولطالما جربت العراك فيما سلف دون جدوى ولم تكن تتردد عن إعادة

بالكرة ، بيد أنها تريثت قليلا — لاتأففا منه — ولكن دفعا لشماتة الشامتين .
وكان حسين كرشة يتهيأ للخروج إلى عمله فقصدته هائجة النفس ثائرتها ، وقالت له بانفعال شديد :

— يا بنى أما علمت أن أباك يمد لنا فضيحة جديدة ؟

وأدرك حسين لتوه ما تعنيه ! فلا يمكن أن يعنى قولها إلا معنى واحداً معروفا مشهوراً . وامتلأ حنقاً ، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطاير منهما الشرر . ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يوما من المتاعب والفضائح . ولم تكن دواعى السخط لتنقصه حتى بدون هذه الفضائح . كان برما بكل شيء مما حوله . ولعل برمه هذا الذى دفعه إلى الارتماء بين أحضان الجيش البريطانى . ثم ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل أن تسكنه وتطامنه ، فضاق بآله وبيئته وبالزقاق جميعا . وجاء أخيراً قول أمه نفطا على لهيب ، فقال غاضبا :

— ماذا تريدين ؟ وما حيلتى فى هذا كله ! لقد تدخلت فيما سلف وحاولت الإصلاح ، فكاد يبلغ بنا الحال أن نتعارك وأن نتضارب ، فهل تريديننى على أن أمسك بتلابيب أبى ؟ !

لم يكن يعنيه الإثم فى ذاته ، ولكن كان يغيظه ما يثيره حولهم من فضيحة وجرسة ، وما يشعله فى البيت من نيران السباب والشتائم والعراك . أما الإثم ذاته فلم يكن يهمه على الإطلاق ، بل إنه حين تناهى إليه خبره أول مرة هز منكبيه استهانة وقال دون مبالاة « إنه رجل والرجل لا يعيبه شيء ! » . ثم سخط مع الساخطين ونقم على والده ، حين وجد أسرته مضغة الأفواه ونادرة المتندرين . وكانت علاقته بأبيه فى الأصل متوترة ، ذلك التوتر الذى ينشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين ، فكلاهما فظ شرس غضوب ، ثم جاء هذا الإثم فضاعف من أسباب شقاقهما حتى أصبحا كعدوين ، يتحاربان حينا ، ويتهادنان حينا ، ولا يسكت عنهما السخط أبدا .

ولم تدر أم حسين ماذا تقول ، ولكنها لم تراجعه أن تكون السبب

فى إلقاء عداوة جديدة بين الابن وأبيه . وتركته يغادر الشقة وهو يهدر غاضباً شاتماً ، وقطعت نهارها على أسوأ حال . ولم تكن تذعن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة والمهانة ، فصدقت عزيمتها على تأديب الرجل الآثم ولو عرضها ذلك لشماتة الشامتين . بيد أنها رأت أن تقدم إنذارها بين يدى يأسها ، فانتظرت حتى انتصف الليل ، وتفرق السمار ، وتأهب زوجها لإغلاق القهوة ، ثم نادته من النافذة ! فصعد الرجل رأسه منزعجاً وعلا صوته متسائلا :

— ماذا تريدين يا أم حسين ؟

فجاءه صوتها يقول :

— اصعد يامعلم لأمر هام . .

وأومأ المعلم لفتاه أن ينتظره حيث هو ، وراح يرتقى السلاليم متثاقلا ، ووقف على عتبة باب شقته لاهثا ، ثم سألها بصوته الغليظ :

— ماذا تريدين ؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتى الصباح ؟

رأته المرأة وقد تسمرت قدماه بالعتبة لا يريد أن يزايلها كأنه يتحاشى أن يخرق حرمة بيت غريب ، فتميزت غيظا ، وحدجته بعينين محمرتين من السهر والغضب ، ولكنها لم ترد أن تبادره بالغضب ، فقالت وهى تغالب انفعالها :

— تفضل بالدخول يامعلم .

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم إذا كان لديها حقاً ما تريد أن تقوله ، ثم سألها بخشونة :

— ماذا تريدين ؟ . . انطقى !

ياله من رجل نافد الصبر ! يقطع الليالى الطوال خارج البيت دون ملل ، ولكنه يضيق ذرعا بحديث دقيقتين معها . ومع ذلك فهو رجلها أمام الله والناس ، وأبو أبنائها جميعاً ، ومن عجب أنها لم تستطع — على إساءته إليها — أن تبغضه أو تهمل شأنه . فهو رجلها وسيدها الذى لا تنى عن الاستئثار به ،

واسترداده كلما مد الإثم يداً لاختطافه . بل إنها لفخور به حقاً ، نخور بفحولته ومكانته فى الزقاق وسيطرته على المعلمين من أقرانه ، ولولا هذه النقيصة المكرة لما وجدت له ضريبا فى الدنيا . ها هو يستجيب لداعى الشيطان ، ويود لو أعفته من حديثها لينطلق إليه من توه ! واشتد بها الغيظ فقالت بحدة :

— ادخل أولا . . لماذا تقف على العتبة كالأغراب ؟ !

فنفخ المعلم مغيظا محنقا ، وجاز العتبة إلى الدهليز برما ساخطا وهو يتساءل بصوته الأجش :

— ماذا وراءك ؟

فقالت وهى ترد الباب :

— استرح قليلا . . . لدى كلمة قصيرة . . .

ونظر إليها مستريبا ! ماذا تريد المرأة ؟ هل تعترض سبيله مرة أخرى ؟ ! وصاح بها :

— تكلمى لماذا تضيعين الوقت سدى ؟

فسألته بحنق :

— أمتعجل أنت يا معلم ؟

— أتجهلين هذا ؟

— ما الذى يدعو لهذه العجلة ؟

فازدادت ريبته ، وامتلأ صدره حنقا ، وتساءل إلام يحتمل هذه المرأة ؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة . كان يكرهها حينا ويحبها حينا آخر . ولكن كانت الكراهية تغلب عليه إذا جره الإثم إلى هاويته ، ويزيد الأمر وبالا إذا توثبت المرأة للانقضاض عليه . وكان يتمنى فى قرارة نفسه لو كانت امرأته « عاقلة » فتركته وشأنه . ومن عجب أنه كان يرى نفسه على حق دائما ، ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر ! أليس من حقه أن يفعل ما يشاء ؟ وأليس من واجبها أن تطيع ، وأن ترضى ما دامت

حاجتها مقضية ورزقها موفورا ؟ ! وقد أمست من ضرورات حياته ، كالنوم والحشيش والبيت ، بخيرها وبشرها ، فلم يفكر جادا فى التخلص منها ، ولو أراد ما منعه مانع ، ولكنها كانت تملأ فراغا ، وتقوم على العناية بأمره ، ويريدها — على أية حال — زوجا له ! . ولكنه تساءل على رغم هذا كله — فى حنقه — إلام يحتمل هذه المرأة ؟ وصاح بها :

— لا تكونى حمقاء وتكلمى أو دعينى أذهب لحال سبيلى . . .

فسألته باستياء وحنق :

— ألا تجد قولا أفضل من هذا تخاطبنى به ؟

فزمجر المعلم قائلا :

— الآن علمت أنه ليس لديك ما تقولينه : والأفضل أن تنامى شأن النساء العاقلات . . .

— ليتك تنام أيضا شأن الرجال العقلاء !

فضرب المعلم كفاً بكف وصاح :

— كيف لى بالنوم فى هذه الساعة :

— فلماذا خلق الله الليل ؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ :

— ومتى كنت أنام الليل ؟ هل أنا مريض يامرة ؟ !

فقالت بلهجة ذات معنى خاص علمت أنه سيدركه من فوره :

— تب إلى الله يامعلم وادع الله يقبل التوبة ولو جاءت متأخرة ! وأدرك ما تريد ، وقطع الشك باليقين ، ولكنه قال متجاهلا وهو يتميز غيظاً :

— ما فى السهر من ذنب يتوب الإنسان عنه .

فزادها تجاهله لها حنقاً وقالت :

— تب عن الليل وعما فى الليل . . !

فقال المعلم بخبث :

— أتريدينى أن أهجر حياتى !

فصاحت به وقد غلبها الغضب :

— حياتك !

فقال بخبث :

— أجل . الحشيش حياتى !

فتطاير الشرر من عينيها وهى تقول وقد حدثتها نفسها بأن تصك خديه السوداوين :

— والحشيش الآخر ؟ !

فقال متهكما :

— أنا لا أحرق إلا صنفا واحدا .

— أنت لا تحرق إلاى . لماذا لا تسهر فى مكانك المعتاد من السطح !

— ولماذا لا أسهر حيث يروقنى السهر ؟ على السطح ، فى المحافظة ، فى قسم الجمالية ؟ ما شأنك أنت ؟

— لماذا غيرت مكان سهرتك ؟

فصعد الرجل رأسه وصاح :

— اللهم فاشهد . أعفيتنى حتى الآن من محاكم الحكومة ونصبت لى محكمة دائمة فى بيتى (ثم طامن رأسه كرة أخرى واستدرك) ألا فاعلمى أن بيتنا قد أصبح مشبوها . والمخبرون يجوسون حوله :

فسألته بسخرية مرة :

— ترى هل هذا الشاب المتهتك من بين هؤلاء المخبرين الذين أطاروك عن عشك .

آه ، صار التلميح تصريحا ! واربد وجهه الضارب للسواد ، وسألها بصوت ينم عن الضجر :

— أى شاب هذا ؟

— الفاجر الذى تقدم له الشاى بنفسك كأنك رددت صبياً كسنقر !

— مافى ذلك من عيب ، فالمعلم يخدم زبائنه كالصبي سواء بسواء .
فسألته متهكمة بصوت متهدج من الغضب :
— لماذا لا تخدم عم كامل مثلا ؟ لماذا لا تخدم إلا الفاجر ؟
— الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد !
— الكلام سهل على من يريده ، ولكن فعلك فاضح فاجر .
فأومأ إليها بيده منذراً وهو يقول :
— أمسكى لسانك يامجنونة .
— الناس جميعا يكبرون فيعقلون . .
فقرض أسنانه وسب ولعن ، ولكنها لم تباله واستطردت تقول :
— الناس يكبرون فيعقلون ، أما أنت فكلما كبرت قل عقلك .
— خرفت يامرة ! خرفت وحياة الحسين ! عليه العوض !
فصاحت به بصوت غليظ مرتعش النبرات :
— الرجال أمثالك يستأهلون العذاب . هلا كفيتنا شر الفضائح ! هلا كفيتنا ذل الشماتة !
— عليه العوض ! عليه العوض !
وغلبها اليأس والغضب فصاحت به منذرة :
— اليوم تسممنى أربعة جدران ، غدا تسممنى الدنيا كلها ؟
فرفع جفنيه الثقيلين وسألها بقوة :
— تهددينني ؟ !
— أهددك ، وأهدد أهلك ! أنت تعرف من أنا !
— يبدو لى أنى سأهشم هذا الرأس الخرف !
— هيء . . . هيء ، والله ماترك الحشيش والفجر قوة فى ساعديك ، والله ما تستطيع أن ترفع يدا ! . . انتهيت ، انتهيت يا معلم . .
— انتهيت بفضلك . وهل ينهى الرجال إلا النساء . . !
— أسفى على من دون النساء جميعاً !

— له ؟ ... خلفت بناتا ستا ورجلا . . غير حالات الإجهاض والسقط .

فصاحت فى غضب جنونى :

— ألا تستحى من ذكر الأبناء ؟ ألا يزجرك ذلك عما تتردى فيه من الفجور ! .

فضرب الجدار بقبضته ، وتحول عن موقفه متجها نحو الباب ، وهو يقول:

— امرأة مجنونة حرفة . .

فصرخت وراءه :

— هل نفد صبرك حقا ؟ . . أتشفق عليه من طول الانتظار ؟ . . سترى عاقبة فجرك يا داعر . . ؟

وأغلق المعلم الباب بعنف ، فرنت صفقته رنينا مدويا مزق سكون الليل ، وجعلت أم حسين تكور يدها فى غضب وحنق ، وقد امتلأت نفسها رغبة فى الانتقام .

١٠

ألقى عباس الحلو على صورته فى المرآة نظرة فاحصة ناقدة حتى لاحت فى عينيه البارزتين نظرة ارتياح : وكان قد رجل شعره بأناة ، ونفض الغبار عن بدلته بعناية ، ثم دلف من باب دكانه ووقف ينتظر . هى ساعة الأصيل المحبوبة ، والسماء صافية عميقة الزرقة ، والجو ملطف بدفء طارىء جادت به الطبيعة غب رذاذ اتصل يوما كاملا ، وقد اغتسلت أرض الزقاق التى لا تستحم إلا مرتين أو ثلاثا فى العام ، وظلت بعض منخفضات الصنادقية مغمورة بالماء ملبدة بالطين . وكان عم كامل داخل دكانه الصغير يهوم على كرسيه ، فأشرق وجه الحلو بابتسامة لطيفة ، وما لبث أن دب الوجد فى أعماقه فراح يدندن بصوت منخفض :

هلبت ياقلبي على طول الزمن ترتاح

وتنول وصال اللى تهوى ، وفيه ترتاح

مصير جروحك على طول الزمن تبرى

ويجيلك الطب . لا تعلم ولا تدرى

مثل سمعناه منقول عن ذوى الخبرة

الصبر يامبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عم كامل عينيه وتثاءب ، ثم نظر إلى الشاب الواقف على باب دكانه ، فضحك هذا وعبر الطريق إليه وقرصه فى ثديه الهش ، وقال بسرور :

— عشقنا وستضحك لنا الدنيا . .

فتنهد عم كامل وقال بصوته الرفيع :

— مبارك ياعم ، ولكن هلا سلمتنى الكفن قبل أن تبيمه لتحصل على المهر !

فضحك عباس الحلو ضحكة عالية ، وغادر الزقاق متمهلا . كان يرتدى بدلته الرمادية ، وهى الوحيدة أيضا ، وكان قد قلبها منذ عام ، ثم رفا الرفاء بعض أطرافها ، ولكنه كان يعنى بتنظيفها وكيها ، فبدا — على نحو ما — أنيقاً ! وكان يضطرم حماسة ونشوة وشجاعة ، ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذى يسبق عادة البوح بمكنون الفؤاد . كان فى تلك الفترة يحيا بالحب ، للحب ، ويدوم بجناحيه الملائكيين فى سماء السرور . وكان حبه عاطفة رقيقة ورغبة صادقة وشهوة جائعة ، يهوى الثديين كما يهوى العينين ويلتمس وراء الثديين حرارة الجسد ، كما يتلمس فى العينين نشوة غامضة ساحرة . وقد سر سرور الظفر يوم تعرض للفتاة فى الدراسة ، وصور له خيـــاله إعراضها كما لو كان ذلك الإعراض السلبي الذى تلبى به النساء نداء الهوى . واستأثرت به النشوة أياماً ، ثم مضت حماسته تفتر ونشوته تخبو ، لا لجديد جد ، ولكن لتيقظ الشك وفعله . وراح يتساءل لماذا يظن الإعراض دلالا ؟ ؟ ولم لا يكون إعراضاً حقاً ! ؟ ألأنها صدته فى غير قسوة ولا

فظاظة ؟ ولكن هل يتوقع الإنسان من جارة العمر أقل من هذه المجاملة ؟ . .
حقاً لقد غالى فى سروره ؛ وإنها لنشوة كاذبة . بيد أنه لم ينكص على عقبيه ،
وكان كلما لسعه الشك اندفع فى سبيله ذائداً عن سعادته . كان عند
الضحى يبرز أمام دكانه فيراها إذ تفتح النوافذ لتشمس الشقة ، وفى المساء
يجلس بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافذتها ، يدخن الجوزة ، ويخطف
النظرة تلو النظرة من الشباك المغلق يجثم وراء خصاصه الشبح المحبوب .
ولم يقنع بهذا فتعرض لها مرة ثانية فى الدراسة ، ولكنها صدته كما صدته
أول مرة ، وأعاد الكرة فأفلتت منه أيضاً . ولكنه رجع وقد عاوده
الأمل وأظله الفرح والسرور . وقال لنفسه إن السعادة مهيأة له ولا تقتضيه
إلا مزيداً من الشجاعة والصبر . وهكذا انطلق هذه المرة ممتلئاً شجاعة
وثقة وهياما . ورأى حميدة وصويحباتها قادمات فانتحى جانباً حتى مررن به ،
ثم تبعهن متمهلا . وقد لاحظ أن أعين البنات يثقبنه بخبث مريب فداخله
سرور وزهو ، وتابع سيره حتى انفرط عقدهن عند نهاية الدراسة ، فحث
خطاه حتى صار منها على مرمى ذراع ، وابتسم إليها ابتسامة رقيقة متعثرة
بالارتباك ، وغمغم بتحيته المحفوظة :

— مساء الخير يا حميدة . .

كانت تنتظره بلا ريب ، ولكنها كانت فى حيرة من أمر نفسها .
لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه ، ولعل كونه الفتى الوحيد الذى يصلح
لها فى الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه أو صده بحزم وفظاظة . فأغضت
عن تعرضه لسبيلها مرة بعد أخرى ، مكتفية بزجر لين ، وإفلات لطيف ،
ولو شاءت أن تصفعه لصفعته . وكانت على رغم تجربتها المحدودة فى الحياة
تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذى
يضرمه نزوعها الغريزى إلى القوة والجموح والسيطرة والعراك ! . حقاً
كانت تهيج جنونا إذا قرأت فى نظرة عين معنى للتحدى أو الثقة ، ولكن
لم تبعثها إلى الرضا هذه النظرة الوديعة الطيبة التى تلوح دواما فى عينى

الحلو ، وتولاها شعور بالحيرة والقلق لترددها بين الحرص عليه بوصفه الفتى الصالح لها فى الزقاق ، والنفور منه نفوراً لا ينهض على أسباب واضحة يطمأن إليها . فلا ميل صريح ولا نفور صريح . ولولا إيمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت فى نبذه والقسوة عليه . لذلك أحبت مجاراته ، وسبر غوره ، واستخراج مكنون لسانه ، لعلها تجد فى ذلك كله أو فى بعضه مخرجا لها من حيرتها المؤسية . وخاف الفتى أن يمتد صمتها حتى ينطوى الطريق ، فغمغم كالضارع :

— مساء الخير . . .

وانبسط وجهها البرنزى الجميل ، وتمهلت فى مشيتها وهى تنفخ فى ضجر مصطنع قائلة :

— ماذا تريد !

ولمح انبساط وجهها فلم يعبأ بضجرها ، وقال بأمل ورجاء :

— ميلى بنا إلى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام وشيك . .

وعدلت صامتة عن طريق الدراسة إلى الأزهر ، فتبعها وهو يكاد يخرج من جلده فرحا . ورجع رأسها صدى هذه الكلمات « طريق مأمون .. الظلام وشيك » ، فأدركت أنها تقارف فعلا تحاذر عليه أعين الرقباء ، وابتسمت بجانب ثغرها فى تحد ! . كانت « الأخلاق » أهون شىء على نفسها المتمردة ، وقد نشأت فى جو لا يكاد يتفيأ ظلها ، أو يتقيد بأغلالها . وزادها استهانة طبع جموح وأم مهملة قليلا ما تستكن فى بيتها ، فانطلقت على سجيتها تخاصم هذه وتمارك تلك فلا تعمل لشىء حسابا ، ولا تقيم لفضيلة وزناً . وأما عباس الحلو فقد لحق بها ، وسار لصقها وهو يقول بصوت ينم عن الفرح والسرور :

— دمت من فتاة كريمة . . !

ولكنها قالت له فى شبه ضجر :

— ماذا تريد منى ؟

فقال الفتى وهو يتمالك أنفاسه المضطربة :

— الصبر طيب يا حميدة ، تلطفي معي ولا تكوني قاسية على . .

فعطفت نحوه رأسها وهى تغطيه بطرف ملاءتها وقالت بحدة :

— هلا قلت لى ماذا تريد !

— الصبر طيب . . أريد . . أريد كل شيء طيب . . .

فقالت بتأفف :

— لا تريد أن تقول شيئاً ، ونحن نجد فى السير فنبتعد عن طريقنا ، والوقت يمضى ، وأنا لا أستطيع أن أتأخر عن موعد عودتى . .

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة :

— سنعود فى وقت قريب فلا تخافى ولا تجزعى . وسنجد عذراً تنتحلينه لأمك . إنك تفكرين كثيراً فى الدقائق أما أنا فأفكر فى العمر كله ، فى حياتنا جميعا . هذا هو شغلى الشاغل . ألا تصدقيننى ؟ إنه جل تفكيرى وهمى وحياة الحسين الذى يبارك هذا الحى الطاهر . . !

كان يتكلم فى بساطة وصدق فشمرت بحرارة حديثه ، ووجدت لذة فى الإصغاء إليه ، وإن لم يتحرك قلبها الجامد ، فتناست حيرتها المعذبة ، وألقت إليه بانتباهها . ولكنها لم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت ، وتشجع الفتى فاستدرك قائلا فى انفعال :

— لا تعدى على الدقائق ولا تلق على هذا السؤال الغريب . تسأليننى يا حميدة عما أريد ، أتجهلين حقا ما أريد قوله ؟ ! لماذا أتعرض لك فى الطريق ؟ لماذا أتبع عينى ظلك حيث تكونين ؟ لك ما تشائين يا حميدة . ألم تقرئى شيئا فى عينى ؟ يقولون إن قلب المؤمن دليله ؟ فماذا علمت ؟ اسألى نفسك . اسألى أهل الزقاق جميعا ، كلهم يعرفون .

وقطبت الفتاة وتمتمت وهى لا تدرى :

— فضحتنى . . . !

فهاله قولها ، وهتف متأثراً :

— لا فضيحة في حياتنا وما أكن لك إلا الخير ، وهـذا الحسين يشهد قولي ويعلم بسريرتي . أنا أحبك ، ولطالما أحببتك ، أحبك أكثر مما تحبك أمك ، وأحلف لك على صدقي بالحسين ، وجد الحسين ورب الحسين .

وشعرت بسرور ولذة ، ودخلها زهو تملق نزوعها الجامح إلى القوة والسيطرة . والحق أن كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب الآذان ولو لم ترجع القلوب أنغامها ، فهي كالأفاويه للنفس المسدودة ! بيد أن خيالها وثب وثبة قوية عبر بها قنطرة الحاضر إلى المستقبل ؛ فتساءلت ترى كيف تكون حياتها في كنفه لو صدقت الأيام أمله ؟ إنه فقير ، رزقه كفاف يومه ، ولسوف يأخـذها من الطابق الثاني ابيت الست سنية عفيفي إلى الطابق الأرضي في بيت السـيد رضوان الحسيني . وأحسن ما يمكن أن تجهزها أمها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الأواني النحاسية . ولا يدخر لها بعد ذلك إلا الكنس والطبخ والغسل والإرضاع . وربما قطعت طريقها حافية في جلباب مرقع . وربمت كأنما اطلعت على مشهد مخيف . وتحرك في أعماقها هيامها المفرط بالثياب ؛ وتيقظ ذلك النفور الوحشي من الأطفال الذى تميرها به نسوة الزقاق . وعاودتها حيرتها المذبة ، فلم تدر أأصابت أم أخطأت في مطاوعتها له وسيرها معه . وكان عباس ينعم إليها النظر في افتتان وهيام وأمل ، فأول صمتها وتفكيرها على هواه ، وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده :

— لماذا تصمتين ياحميدة ! . . كلمة واحدة تشفي الفؤاد وتغير الدنيا . كلمة واحدة تكفيني . تكلمي ياحميدة . اخرجي عن هذا الصمت . . .

ولكنها لم تنبس بكلمة ، وظلت فريسة للحيرة ، فاستطرد عباس قائلا :

— كلة واحدة تملأ روحي أملا وسعادة لعلك لا تدرين مافعله حبك بي ! إنه يبعث في روحا جديدة لاعهد لي بها ! إنه يخلقني خلقاً جديداً ، ويدفعني لاقتحام الدنيا غير هياب . أما علمت هـذا ؟ . . لقد استيقظت من سباتي ؛ وغداً ترينني شخصاً جديداً . . .

ماذا يعنى ؟ وانعطف رأسها كالمتسائل . فانشرح صدره لاهتمامها وقال بحماسة وفخار :

— أجل . توكلت على الله وسأجرب حظى كالآخرين . سألتحق بخدمة الجيش البريطانى ، وعسى أن يصادفنى من التوفيق ما صادف أخاك حسين .

فلاح الاهتمام فى عينيها وسألته على غير وعى منها :

— حقاً ، . . متى يكون ذلك ؟

كان يؤثر بلا شك أن تحدثه حديثاً آخر ، وأن يلمس انفعالها قبل أن يستشير اهتمامها . أن يسمع هذه الكلمة العذبة التى تذوب نفسه شوقا لسماعها ؛ ولكنه ظن هذا الاهتمام قناعا نسجه الحياء ليستتر به عاطفة مشبوبة كعاطفته تهاب البوح بسرها . واهتز صدره فرحا ، وقال مفتر الثغر :

— عما قريب أسافر إلى التل الكبير ، وسأشتغل بادىء الأمر بيومية مقدارها خمسة وعشرون قرشا ، وقد أكد لى جميع الذين استشرتهم فى الأمر أن هذا المقدار قليل من كثير مما يصيب جميع المشتغلين فى الجيش . وسأجعل همى فى أن أوفر من يوميتى أقصى ما أستطيع توفيره ، حتى إذا عدت إلى هنا عقب انتهاء الحرب — وهى بعيدة كما يقولون — فتحت صالونا جديداً فى السكة الجديدة أوشارع الأزهر ، واستقبلت حياة رغيدة ننعم بها . . معاً .. إن شاء الله . ادعى لى يا حميدة ...

هذا شىء جديد لم يخطر لها ببال . وإذا كان الفتى جاداً فقد حقق لها كثيراً مما تصبو إليه نفسها . وإن نفساً كنفسها مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بأن يروضها المال ويستأنسها . وغمغم عباس معاتباً :

— ألا تريدين أن تدعى لى ؟

فقالت بصوت خافت وقع من أذنيه موقعاً جميلا وإن كان صوتها نقطة ضعف فى جمالها :

— الله يوفق خطاك . .

فتنهد مسرورا وقال :

— آمين . استجب لها يارب . ستبسم لنا الدنيا بإذن الله . ارضى أنت علىّ ترض الدنيا جميعاً . . أنا لا أسألك شيئا إلا الرضا .

وأخذت تخرج من حيرتها رويداً رويدا ، فقد وجدت فى الظلمة التى كانت تتخبط فيها بصيص نور . نور الذهب اللامع . وإذا كان شخصه لايرضيها ، ولا يحرك أنوثتها ، فعسى أن يبرز منه هذا الضوء اللامع الذى يستهويها ، ويلبي نزوعها الصارخ إلى القوة والجاه . وهو بعد هـــذا كله — وقبل هذا أيضاً — الفتى الوحيد الصالح فى الزقاق ! أجل ، هذا حق لاريب فيه . وقدخامرها شعور بالارتياح ، وأنصتت إليه وهو يقول :

— ألا تسمعيننى ياحميدة ؟ أنا لا أسألك إلا الرضا !

فارتسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة ، وغمغمت :

— وفقك الله . .

فعاد يقول فى ابتهاج :

— ليس من الضرورى أن ننتظر حتى نهاية الحرب ! . . . سنكون أسعد مخلوقين فى الزقاق . .

وقطبت فى تقزز ، وندت عنها هذه الكلمة بلا وعى ، وفى ازدراء شديد :

— زقاق المدق !

فنظر إليها فى ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذى يحبه ويؤثره على الدنيا جميعا . وتساءل منزعجا : ترى هل تزدرى هذا الزقاق الطيب كأخيها حسين ؟ حقا لقد رضعا من ثدى واحد ! . وأراد أن يمحو ما تركه فيها من أثر سيىء فقال :

— تختار المكان الذى تحبين . هاك الدراسة والجمالية وبيت القاضى ، اختارى بيتك حيثما تشائين !

وتنبهت لقوله فى حيرة ، وأدركت أنها تكلمت أكثر مما ينبغى ، وأن لسانها خانها بلا وعى منها ، فعضت على شفتها ، ثم قالت بإنكار :

— بيتى ؟ ! أى بيت تعنى ؟ ! ماشأنى أنا فى هذا الأمر !

فهتف بها فى عتاب :

— كيف تقولين هـذا القول ؟ ألم يكفك ماعانيت من عذاب ؟ ألا تدرين أى بيت أعنى ؟ سامحك الله ياحميدة . أعنى البيت الذى سنختاره معاً ، بل الذى تختارينه أنت وحدك ، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعاً . وإنى أهاجر فى سبيل هذا البيت كما علمت . ولقد دعوت لى بالتوفيق ، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة . اتفقنا ياحميدة وانتهى الأمر .

هل اتفقا حقا ؟ أجل اتفقا ! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنازعته الحديث والخوض فى أحلام المستقبل . وماذا يضيرها من ذلك ؟ أليس هو فتاها على أى حال ؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد . أحقا أصبحت فتاة أخرى لا تـكاد تملك من أمر نفسها شيئا ؟ وأحست عند ذاك بده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضفى على أناملها الباردة حرارة ودفئا . أتنتزعها منه وتقول له « كلا » ... لاشأن لى فى هذا الأمر ! » ؟ ولـكنها لم تفعل شيئا ، ولم تنبس بكلمة ؛ ومضيا معاً وراحتها فى كفه الساخنة . وشعرت بأصابعه تشد عليها بحنان ، وسمعته يقول :

— سنتقابل دواما .. أليس كذلك ؟

وأبت أن تنبس بكلمة ، فقنع بلغة الصمت وقال مرة أخرى :

— سنتقابل كثيراً ، ونزن أمورنا جميعاً . ثم أقابل أمك .. لابد من الاتفاق معها قبل السفر .

وانتزعت راحتها من يده وهى تصيح فى جزع :

— سرقنا الوقت ، وابتعدنا كثيرا .. هلم إلى العودة ..

ودارا على عقبيهما معا وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت بعض أصداء

السعادة التى يجيش بها قلبه . واستحثا الخطى حتى بلغا الغورية فى دقائق ، وافترقا عندها ، فمالت هى إليها ، واتجه هو نحو الأزهر ليعود إلى الزقاق عن طريق الحسين ...

١١

« اللهم عفوك ورحمتك » .

نطقت الست أم حسين بهذه العبارة وهى ماضية إلى مسكن السيد رضوان الحسينى . كانت تسأل الله العفو والرحمة فى يأس وغيظ وحنق مما تعانيه . أعياها إصلاح زوجها وعجزت عن ردعه ، فلم تر بدا فى النهاية من مقابلة السيد رضوان ، لعله أن يفلح هو — بصلاحه وهيبته — فيما أخفقت هى فيه . ولم يكن سبق أن فاتحت السيد فى مثل هذا الأمر الفظيع ، ولكن يأسها من ناحية ، وإشفاقها من شماتة الأعداء إذا جاهرت بالخصومة والطحان من ناحية أخرى ، دفعاها إلى طرق هذا الباب الصالح الآمن امل وعسى ! . وفى البيت استقبلتها حرم السيد رضوان فجلسا معا بعض الوقت . وحرم السيد فى منتصف الحلقة الخامسة من عمرها ، وهى حلقة يعتز بها نساء كثيرات ، ويعتبرنها الغاية من النضج الأنثوى ؛ ولكن المرأة كانت مهزولة مهدمة ، تلوح فى جسمها وروحها آثار السهام التى سددها إليها الدهر حين انتزع من بين ذراعيها أطفالها طفلا بعد طفل . وكانت لذلك تضفى على بيتها الساكن روحاً من الحزن والكآبة لم يجد إيمان السيد العميق فى تبديد غشاوته . وكانت تبدو ، فى هزالها وحزنها ، صورة مناقضة لصورة زوجها القوى المشرق المطمئن البسام . كانت امرأة ضعيفة فلم يقلها إيمانها — على رسوخه — من عثرتها الضنية . وكانت أم حسين تعلم بأمرها ، فأقبلت تشكو بثها وهمها بقلب مطمئن إلى أنه سيجد أذنا صاغية تستميلها الشكوى والأحزان . ثم استأذنت فى مقابلة السيد رضوان

فتابت المرأة لحظات ثم رجعت تدعوها إلى لقائه ، وقادتها إلى حجرته .

وكان السيد يجلس على فروة مسبحا ، المجمرة أمامه ، وإبريق الشاى على يمينه . كانت حجرته الخاصة صغيرة أنيقة ، تحدق بأركانها الكنبات ، ويغطى أرضها سجاد شيرازى ، تقوم فى وسطها مائدة مستديرة رصت عليها الكتب الصفر ، ويتدلى فوقها من السقف مصباح غازى كبير . وكان السيد يرتدى جلباباً رماديا فضفاضا ، وطاقية صوفية سوداء يضىء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير . فى هذه الحجرة كان يخلو إلى نفسه كثيراً ، قارئاً أو مسبحاً أو متأملا . وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار يتذاكرون الأخبار ويروون الأحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء . ولم يكن السيد رضوان معدوداً من العلماء المتفقهين فى الدين ، ولا من الأذكياء الأفذاذ ، ولا من أولئك الذين يجهلون أقدارهم فيضعونها من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقتها ، ولكنه كان مؤمناً صادقاً ، وورعاً تقيا ، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وصدره السماح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته ، فكان بحق من أولياء الله الصالحين .

وقد استقبل أم حسين واقفا ، غاضا بصره ، فأقبلت عليه فى ملاءتها مبرقعة ، وسلمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاءة كيلا تنقض وضوءه . ورحب بها الرجل قائلا :

— أهلا وسهلا بجارتنا الفاضلة . .

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكنبة قبالته ، وتربع الرجل على الفروة وراحت أم حسين تدعو له :

— الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيل عمرك بحق جاه المصطفى . .

وكان يحدس ما حملها على مقابلته ، فلم يسألها عن صحة المعلم زوجها كما تقضى بذلك آداب الضيافة ! وكان يعلم كالآخرين بسيرة المعلم كرشة ، وتناهى

إليه ما قام بين الرجل وزوجه من شقاق وشجار فى ظروف سابقة مماثلة . . فأيقن أنه أقحم فى هذا النزاع المتجدد على غير إرادة . وسلم للأمر الواقع ، وتلقاه بصدره الرحب كما يتلقى غيره مما يكره ، وابتسم ابتسامة لطيفة وقال يشجعها على الكلام :

— خير إن شاء الله .

لم تكن المرأة تعرف التردد ، ولا كان الحياء من أسباب ضعفها فى يوم من الأيام ، بل هى امرأة على قدر كبير من الشراسة والوقاحة ، ولم تكن امرأة تفوقها مراسا فى الزقاق كله اللهم إلا حسنية الفرانة ؛ لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ :

— يا سيد رضوان ، أنت الخير والبركة ، وأنت رجل زقاقنا الفاضل ؛ لذلك قصدتك أسألك المعونة فى شدتى ، وأشكو إليك الرجل الفاجر زوجى . . .

وعلا صوتها فى آخر كلامها واخشوشن ، فابتسم السيد مرة أخرى ، وقال بصوت لا يخلو من رنة الأسف .

— هاتى ما عندك ياست أم حسين . إنى مصغ إليك ..

فتنهدت المرأة وقالت :

— الله يرفع قدرك يا زين الرجال : الرجل ياسى السيد لا يحتشم ولا يرعوى . وكلما حسبت أنه قد تاب عن غيه طلع على بفضيحة جديدة . إنه رجل فاجر لا يرده عن شهوة لا سن ولا زوجة ولا أبناء . ولعلك علمت بأمر هذا الشاب الرقيع الذى يوافيه كل ليلة إلى القهوة ؟ ! . هذه هى فضيحتنا الجديدة ...

ولاحت فى العينين الصافيتين سيماء الكدر ، وأطرق متفكراً مغتما . اغتم الرجل الذى عجز ألم الثكل المبرح عن أن ينال من صفاء نفسه ، ولبث صامتا ساكنا ، يتعوذ قلبه من الشيطان وعبثه . واتخذت المرأة من حزنه مبرراً قويا لغضبها فانفعلت ، وهدرت قائلة بنبرات فظيعة :

— فضحنا الرجل المتهتك . ووالله لولا عشرة العمر والأبناء لهجرت بيته لغير رجعة أبداً . أيرضيك هذا العار يا سى السيد ؟ ! أيرضيك هـذا السلوك الشائن ؟! لقد نصحته فلم ينتصح ، وأنذرته فلم يرعو ، فلم أجد سبيلا إلاك . وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة ، ولكن لاحيلة لى ، وأنت سيد الحى جميعا ، ورجله الفاضل ، وأمرك مطاع . فلعلك بالغ منه مالم يبلغه كلامى ولا كلام الناس جميعاً ، حتى إذا تبين لى أن نصحك نفسه لا يجدى كان لى معه شأن آخر . أجل إنى أدارى اليوم غضبى ، ولكنى إذا يئست من صلاحه فسأشب النار فى الزقاق جميعاً وأجعل من جسده النجس حطاما لها . . . !

فحدجها السيد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف :

— أفرخى روعك ياست أم حسين ، ووحدى الله ، ولاتغلبى الغضب على نفسك . أنت ست طيبة ! والكل يشهد لك بالفضل ! فلا تجعلى من نفسك وزوجك نادرة تلوكها الألسن . الزوجة الطيبة غطاء محكم يستر ما أمر الله به أن يستر ، عودى إلى دارك آمنة مطمئنة ، ودعى لى هـذا الأمر ، والله المستعان . .

فقالت المرأة وهى تمالك انفعالها :

— الله يكرمك ، الله يسعدك ، الله يشرف قدرك . أنت ياسيدى الملاذ والمأوى ، وسأدع هـذا الأمر بين يديك وأنتظر ، وربنا بينى وبين هذا الرجل الفاجر . . .

وسكن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيب ، وكان كلما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانهالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفا من فضائحه ، حتى أوشك صبر الرجل أن ينفد ! ثم ودعها مكرمة وهو يتنهد من الأعماق ! . وعاود جلسته متفكراً . كان يتمنى بلا شك لو لم يقحم فى هذا الأمر ، أما وقد وقع المحذور فلا معدى عن إنجاز وعده . ونادى خادمه ، وأمره أن يدعو إليه المعلم كرشة ، فمضى الغلام على عجل .

وانتظر ساكنا ، وذكر أنه يدعو لحجرته — لأول مرة — فاسقا ، فلم يدخلها قبل ذلك إلا الفقهاء والصوفيون . وتنهدمن الأعماق ثم قال لنفسه : « إن من يهدى فاسقا خير ممن يجالس مؤمنا » . ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقا ؟ . وهز رأسه الكبير واستشهد بقوله تعالى « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . ومضى يتعجب من غواية الشيطان للإنسان ، وكيف يشذ به عن فطرة الله السوية . ثم قطع عليه حبل تأملاته دخول خادمه معلنا حضور المعلم ، فأذن له ، ونهض لاستقباله . وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل ، وألقى على السيد من تحت جفنيه الثقيلين نظرة تجلة واحترام ، وانحنى على يده مسلما . ورحب به السيد رضوان ودعاه للجلوس ، فجلس الرجل فى المكان الذى كانت تجلس فيه زوجه قبل هنيهة ، وملأله قدحا من الشاى . كان المعلم آمنا مطمئنا لايتوجس خيفة ، ولا يدرى شيئاً عما دعا السيد إلى استدعائه . والحق أن من بلغ مبلغه من الذهول والشرود خليق بأن يفقدكل قدرة على التوجس والحيطة والحدس. وقد قرأ السيد فى عينيه نصف المغمضتين الطمأنينة فقال له بهدوء مبتسما :

— شرفت دارنا يامعلم .

فرفع المعلم يديه إلى عمامته وقال :

— شرف الله قدرك ياسى السيد .

فقال السيد :

— لاتؤاخذنى على دعوتك فى أثناء عملك ، فقد رأيت أن أحادثك فى أمرهام كما يتحادث الإخوان ، ولم أجد لذلك مكانا أنسب من البيت .

فأحنى المعلم رأسه وقال بأدب جم :

— إنى طوع أمرك ياسى السيد . .

وخاف السيد الاسترسال فى المجاملات فيضيع الوقت سدى ، وتطول مدة غياب المعلم عن عمله ، فأراد أن يخوض الموضوع بلا تردد ، ولم تكن

تنقصة الشجاعة ولا تعوزه الصراحة ، فقال بلهجة جدية :

— أحب أن أحدثك كما يتحدث الإخوان ، أو كما ينبغى أن يتحادث الإخوان إذا كان رائدهم المودة والإخلاص . والأخ المخلص من إذا رأى أخا له يهوى تلقاه بذراعيه ، أو وجده يتعثر أقاله من عثرته ، أو حسبه فى حاجة إلى النصح محضه النصيحة . . .

وفترت حماسة المعلم ، وأدرك فى تلك اللحظة فحسب أنه وقع فى فخ ، فلاحت فى عينيه المظلمتين نظرة ارتياب ، وتمتم فى ارتباك وهو لايدرى ماذا يقول :

— نطقت بالحق ياسى السيد . .

ولم يخف على السيد شىء من ارتباكه وارتيابه ، فقال بلهجة جدية أيضاً لطفتها نظرته الوديعة الصافية :

— أخى ، سأصارحك بما فى نفسى فلا تؤاخذنى على صراحة ، فما استحق الموجدة من كان هدفه الإصلاح وباعثه المودة والإخلاص . والحق ياأخى أنى رأيت فى بعض سلوكك ما ساءنى ، وما لا أعده خليقاً بك . .

وقطب المعلم كرشة منزعجاً ، وجعل يخاطب السيد فى سره قائلا « مالك أنت ولهذا ! » . ثم قال متضمناً الدهشة :

— أساءك سلوكى حقاً ياسى السيد ؟ ! . . معاذ الله . .

ولم يعبأ السيد دهشته المتصنعة واستدرك قائلا :

— إن الشيطان ليجد أبواب الشباب مفتحة فيلجها خفية وعلانية ويعيث فساداً ، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب مفتح الأبواب ، ونلزمه أن يغلق أبوابه فى وجه الشيطان ، فماذا يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة ؟ ماذا يكون الحال لو رأيناهم يفتحون أبوابهم طواعية ويدعون الشيطان بأنفسهم ؟ ! . . . هذا ما ساءنى يامعلم كرشة . . .

شباب شيوخ ! أبواب مفاتيح ! شيطان شياطين ! لماذا لايريح نفسه

ويدع الناس يستريحون ! ؟ . وهز رأسه حيرة ، ثم قال بصوت منخفض :

— لا أفهم شيئاً ياسيد رضوان . .

وحدجه السيد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخلو من عتاب :

— حقا ؟ !

فغمغم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف :

— حقا . .

فقال السيد رضوان بحزم :

— حسبتك تعلم ما أعنى . والحق أنى أعنى هذا الشاب الرقيع ..

وسدت المنافذ فى وجهه ، فاحتدم الغيظ فى نفسه ، ولكنه كالفأر الواقع فى المصيدة جعل يتخبط وراء المنافذ المسدودة ، فتساءل بصوت ينم عن الهزيمة :

— أى شاب يا سى السيد ؟

فقال السيد بلهجة وديعة متحاميا إثارته :

— أنت تعرفه يا معلم . وإنى لم أفاتحك بأمره لأسىء إليك أو أخجلك ، معاذ الله ، ولكن لأرشدك لما فيه الخير . مافائدة النكران ؟ . الجميع يعرفون والجميع يتكلمون . وهذا لعمرى ما آلمنى أشد الألم . آلمنى أن أجدك مضغة الأفواه ..

فغلب المعلم الغضب ، وضرب فخذه بقبضة قاسية ، وقال بصوت أجش تطايرت فظاظته مع نثار ريقه :

— ما بال الناس لا يريحون ولا يستريحون ! أحقا تراهم يتكلمون يا سى السيد ؟ هكذا هم أبدا منذ خلق الله الأرض ومن عليها . إنهم يخوضون فى الأعراض لا لقبح يستقبحون ، ولكن لينتقصوا إخوانهم . ولو لم يجدوا نقيصة لخلقوها خلقا ثم خاضوا فيها . أتحسبهم يتهامسون تأففاً وازدراء ؟ كلا والله . إنه الحسد يأكل قلوبهم أكلا . . . ؟

وهال السيد هذا الرأى ، فقال له دهشا :

— ياله من رأى خاسر ! أتحسب أن هذا الفعل الشائن مما تحسد عليه ؟ !

فتهانف ضاحكا وقال بحقد :

— لاتشـك فى قولى ياسيد رضوان ! إنهم طغمة هالـكة . وليس للخير من رجع فى نفوسهم (وأدرك عند ذاك أنه سلم بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) ألا تدرى من هذا الشاب ؟ إنه شاب مسكين أدارى بؤسه بالإحسان ! !

فضجر السيد من مراوغته ، وحدجه بنظرة كأنما يقول له « أيجوز هذا القول على ! » ثم قال :

يا معلم كرشة ؛ الغالب أنك لا تفهمنى . أنا لا أحاكمك ولا أعيرك ، فكلانا فقير إلى رحمة الله وعفوه ، ولـكن لا تحاول النكران . إذا كان هذا الشاب مسكينا فدعه لخالقه والدنيا ملأى بالمحتاجين إن أحببت إحسانا ؟

— ولماذا لا يكون إحسانى لهذا الشاب ؟ يؤسفنى أنك لا تصدقنى وأنا رجل برىء .

ونظر السيد إلى الوجه المشرب بالسواد فى استياء مكتوم ، وقال بتؤدة :

— هذا شاب رقيع سىء السمعة ، ولقد أخطأت فى محاولة خداعى ، وكان الأخلق بك أن تقدر نصحى ، وتواجهنى صادقا صريحاً .

وأدرك المعلم أن السيد قد استاء وإن لم يلح الاستياء فى وجهه ، فلاذ بالصمت كاظما غيظه ، وأخذ يفكر فى الانصراف . ولـكن السيد استدرك قائلا :

— إنى أدعوك لما فيه صلاحك وصلاح بيتك ، ولست يائسا من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب إنه رجس من عمل الشيطان . وتب إلى ربك إنه غفور رحيم . لو كنت من الصالحين لـكنت الآن من الموسرين ؛ ولـكنك تربح كثيرا و تخسر فى بالوعة الرجس كثيراً ؛ وتبقى على الأيام فقيراً معدما . فماذا قلت ؟

وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية ، وخاطب نفسه قائلا إنه حر يفعل مايشاء ، وليس لأحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسيني نفسه ! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة فى إغضاب السيد ولا تحديه ، فأطبق جفنيه على عينيه الظامئتين ، وقال بصوت منكر :

— هذا أمر الله !

فلاح الانزعاج فى الوجه الصبيح وقال بحدة :

— بل أمر الشيطان ! حرام عليك ياشيخ .

فغمغم المعلم قائلا :

— لما يأمر الله بالهدى !

— لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك . اهجر هذا الشاب أو دعنى أصرفه بسلام . .

فانزعج المعلم وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه فقال بجزم :

— كلا ياسى السيد ، لاتفعل . .

فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء ، وقال بصوت ينم عن الأسى :

— أرأيت كيف تؤثر الغواية على الهداية ؟ !

— ربنا الهادى ؟

وتولاه اليأس من هدايته ، فقال متضجراً :

— أقول لك للمرة الأخيرة اهجره أو دعنى أصرفه بسلام . .

فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح إلى طرف الكنبة كأنما يهم بالنهوض :

— كلا ياسى السيد . أضرع اليك أن تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية .

فتعجب السيد من عناده الوقح ، وتساءل متقززا :

— ألا يخجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن ؟ !

ونهض المعلم قائما وقد ضاق صدره بالسيد ووعظه ، وهو يقول :

— إن الإنسان ليقارف أعمالا كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها ، فادع

لى بالهداية ، ولا تغضب على ، وتقبل عذرى وأسفى . ماذا يملك الإنسان من أمر نفسه ؟

فابتسم السيد ابتسامة حزينة ، وقال وهو ينهض قائما كذلك :

— يملك كل شيء لو أراد ، ولكنك لن تفقه منى لقولى ، فالأمر لله .

ومد له يده قائلا :

— مع السلامة .

وغادر المعلم كرشة البيت مقطبا مدمدما ، يسب الناس والزقاق والسيد رضوان .

١٢

وانتظرت أم حسين متصبرة متجلدة يوما ويومين . كانت تقف وراء خصاص النافذة المطلة على القهوة تترقب مقدم الشاب ، فتراه قادما يخطر ثم تراه مرة أخرى — عند انتصاف الليل — وزوجها منصرفين صوب الغورية ! ابيضت عيناها من المقت والغضب ؛ وتساءلت ياترى هل ذهبت نصيحة السيد رضوان هباء ؟ وزارت السيد مرة أخرى ؛ فهز رأسه آسفا وقال لها « دعيه لحاله حتى يقضى أمرا كان مفعولا » ، فرجعت إلى شقتها تغلى غليانا ، وتتوعد شرا . لم تعد تقيم وزنا لشماتة الشامتين ، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم الشاب ؛ فتلفعت بملاءتها وغادرت الشقة كالمجنونة ؛ ونزلت السلالم وثبا فكانت أمام القهوة فى دقيقة واحدة . كانت الدكاكين قد أغلقت وأوى أهل الزقاق إلى القهوة كعادتهم كل ليلة ، وكان المعلم كرشة مكبا على صندوق الماركات فى شبه نعاس فلم يتنبه لحضورها . واستقر بصرها الزائغ على الشاب وهو يرشف الشاى من قدح فى يده ، فاقتربت منه مارة أمام المعلم الذى لم يرفع بصره إليها ؛ وضربت القدح بكفها فاندلق على حجر الشاب الذى قام فزعا صارخا ! وصاحت به بصوت كالرعد :

— تشرب شاياً يا ابن العاهرة !

وأحدقت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من أهل الزقاق أو من لا يعرفها من بقية الجلوس . والتفت نحوها المعلم كرشة كأنه يستيقظ بصب دلو ماء على وجهه ، وهم بالوقوف ، ولكن المرأة دفعته فى صدره ، وهى تصرخ فى وجهه وقد أخرجها الغضب عن وعيها :

— إياك وأن تتحرك يافاجر (والتفتت نحو الشاب واستدركت) ماذا أفزعك ياشاطر . يامرة فى ثياب رجل ، هلا أخبرتنى عما يدعوك إلى المجىء هنا ؟ !

ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد ألجم الغضب لسانه ، واربد وجهه ، ولكنها صاحت فى وجهه :

— إن حدثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشمت عظمك أمام الناس .

واندفعت نحو الشاب الذى تقهقر حتى التصق بالشيخ درويش وهى تصيح :

— أتريد أن تخرب بيتى يارقيع ياابن الرقماء !

فقال لها الشاب مرتعداً .

— من أنت ياستى ، ماذا فعلت حتى ...

— من أنا ؟ ألا تعرفنى ؟ ! ... أنا ضرتك ..

وانهالت عليه ضرباً ، فسقط طربوشه ، وسال الدم من أنفه . ثم قبضت على ربطة رقبته وشدت عليها بعنف حتى اختنق صوته . وقد ذهل الجلوس ، وحملقوا فيما يقع أمامهم بأعين دهشة ، ولكن قلوبهم رقصت جذلا ، ومنوا أنفسهم برؤية منظر بهيج مسل . فى حين دعا صراخ أم حسين المعلمة حسنية الفرانة فجاءت مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغراً فاه . ثم ظهر بعد قليل زيطة صانع العاهات ، ولكنه وقف بعيداً كأنه شيطان انشقت عنه الأرض . ولم تلبث نوافذ البيتين أن فتحت وأطلت منها الرءوس تستطلع ما هنالك . وأهاج الغضب المعلم كرشة ، ورأى فتاه يتضور متلوياً ، محاولا

عبثاً أن يخلص عنقه من قبضة المرأة القوية ، فاندفع نحوها ثائراً وهو يرغى ويزبد كالفحول ، وشد على ساعدى امرأته صائحاً فى وجهها :

— اتركيه يامرة وكفى فضيحة !

وأجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد سقطت ملاءتها عند قدميها ، فجن جنونها ، وتمالى صراخها ، وأمسكت بتلابيب المعلم وهى تصيح :

— أتضربنى يافاجر دفاعاً عن رفيقك ! اشهدوا ياناس على الرجل الفاجر !

وانتهز الشاب فرصة إفلاته فتطاير خارج القهوة ، وعدا لا يلوى على شىء . واستمرت المعركة بين المعلم وزوجه ، هى تشد على تلابيبه ، وهو يحاول دفعها والتخلص منها ، حتى نهض إليهما السيد رضوان الحسينى وخلص بينهما . وتلفعت المرأة بملاءتها وهى تلهث ، وصرخت بصوت كادت تتصدع له أركان القهوة :

— ياحشاش ، يامذهول ، ياوسخ ، يا ابن الستين ، يا أبا الخمسة وجد المشرين ، ياعرة ، يارطل ؟ سفخص على وجهك الأسود ...

فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو ينتفض من الانفعال ، وصاح بها :

— لمى لسانك يامرة ، وسدى هذا المرحاض الذى يقذفنا بوسخه !

— قطع لسانك ، ما مرحاض إلا أنت ، يا خرع ، يا مفضوح ، يا ظل العيال . .

فلوح لها بقبضته وهو يقول :

— تخرفين كعادتك . كيف سولت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة ؟

فضحكت المرأة ضحكة مروعة وقالت بسخرية مريرة :

— زبائن القهوة ؟ ! العفو ! ماقصدت زبائن القهوة بسوء ، ولكنى اعتديت على زبون المعلم الخصوصى !

وتدخل السيد رضوان مرة أخرى ، وطلب من المرأة أن تمسك ، وأن تعود

إلى بيتها ؛ ولكنها قالت وقد غيرت نبرات صوتها بجهد شديد :

— لن أعود إلى بيت الفاسق ماحييت ...

فألح عليها ، وتطوع عم كامل لمعاونته ، فقال لها بصوته الرفيع الملائكى :

— عودى إلى بيتك ياست أم حسين . عودى ووحدى الله واسمعى كلام السيد رضوان . .

وحال السيد بينها وبين مغادرة الزقاق ، ولم يتركها حتى رجعت إلى البيت مظهرة السخط والتذمر . واختفى عند ذاك زيطة ، وانسحبت حسنية الفرانة يسبقها زوجها ، وقد لكمته فى ظهره وهى تقول له :

— لاتفتأ تندب حظك وتقول مالى أضرب من دون الرجال جميعاً ! أرأيت كيف يضرب أسيادك وأسياد من خلفوك . . !

وخلفت جعجعة المعركة صمتاً ثقيلا . وتبادلت الالحاظ نظرات ساخرة تشى بالخبث والسرور ، وكان أشد الحاضرين سروراً وارتياحا الدكتور بوشى ، وهو الذى هز رأسه آسفاً وقال فى نبرات حزينة :

— لاحول ولاقوة إلا بالله ، اللهم أصلح الحال ...

وكان المعلم « كرشة » لايزال ملازما مكانه — الذى باشر فيه المعركة — فتنبه إلى فرار فتاه ، وقطب فى عناد ، وبدا منه أنه يريد اللحاق به ، ولكن السيد رضوان — وكان غير بعيد عنه — وضع يده على كتفه وقال بهدوء :

— اقعد يامعلم واسترح . .

فنفخ مغيظاً محنقا ، وتراجع متثاقلا وهو يخاطب نفسه فى حقد شديد :

— لبؤة ، فاجرة ، ولكن الحق على ، أنا أستأهل أكثر من هذا ، مغفل من لايبيت امرأته بالعصا ..

وعلا صوت عم كامل وهويقول :

— وحدوا الله ياهوه ..

وارتمى المعلم كرشة على مقعده . ثم أخذه الغضب كرة أخرى ، فثارت ثائرته ، وراح يضرب جبهته بكف غليظة قاسية صائحاً :

— أنا فى الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحى عرفنى مجرما يرتوى بالدماء . أنا مجرم ، أنا ابن كلب ، أنا وحش ، ولـكنى أستأهل كل إهانة لأنى تبت بمحض إرادتى عن الشر (ورفع رأسه) انتظرينى يامرة ياوسخة ، ستلقين الليلة كرشة الزمان الأول ..

وصفق السيد رضوان بيديه وهو يتربع على الأريكة وخاطب المعلم قائلا :

— وحد الله يامعلم كرشة . نريد أن نشرب الشاى فى هدوء !

ومال البوشى على أذن عباس الحلو وهمس قائلا :

— لابد أن نصلح بينهما ..

فسأله الحلو بخبث :

— بين من ومن ؟

فـكتم الدكتور ضحكة فخرجت من أنفه ريحاً كالفحيح ، وقال :

— أتظنه يعود إلى القهوة وقد حصل ماحصل ؟

فمط الحلو بوزه وقال :

— إن لم يعد هو جاء غيره !

ثم شمل القهوة جوها المألوف ، وعاد القوم إلى ما كانوا فيه من لعب وسمر ، وكادت تنسى المعركة وتذهب آثارها ، لولا أن هاج المعلم كرشة مرة أخرى ، وصاح مرعداً كالوحوش الضارية :

— لا لا .. لايمكن أن أذعن لإرادة امرأة . أنا رجل ، حر ، أفعل ماأشاء ، لتترك البيت إذا شاءت ، ولتتسكع مع الشحاذين ، أنا مجرم ... أنا من آكلى لحوم البشر ..

ورفع الشيخ درويش رأسه بغتة وقال دون أن يلتفت نحو المعلم :

— يامعلم ، امرأتك قوية ، فيها من الرجولة ما يعوز الـكثيرين من الرجال ، هى ذكر وليست بأنثى ، فلماذا لاتحبها ؟

وصوب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح فى وجهه :

— اقطع لسانك !

وصاح أكثر من واحد من الجالسين :

— حتى الشيخ درويش !

وولاه المعلم ظهره صامتا ، وراح الشيخ درويش يقول :

— هذا شر قديم يسمونه فى الإنجليزية Homosexuality وتهجيتها h o m o s e x u a l i t y ولكنه ليس بالحب . الحب الحقيق لآل البيت . تعالى يا حبيبتى .. تعالى يا ست .. أنا عاجز يا أم المواجز ..

١٣

كانت مقابلة الأزهر فتحاً جديداً فى حياة عباس الحلو . عهد الحب ، شعلة وهاجة تضطرم فى الفؤاد ، نشوة سحر تسكر العقل ، شهوة تصهر الأعصاب . كان مرحا مختالا مزهواً ، كأنه فارس لا يشق له غبار ، أو ثمل قد أمن عوادى الخمار . وتقابلا بعد ذلك مرات ، فلم يملا الحديث عن مستقبلهما . أجل بات مستقبلهما واحدا ، ولم تنكر حميدة ذلك ، لا فى حضوره ولا فى غيابه ! ولكم تساءلت : ترى هل تظفر واحدة من صويحباتها بنات المشغل بخير منه ؟ .. وتعمدت أن تسير معه وقت ظهورهن ، وجعلت تسترق النظر إلى أعينهن الفاحصة وكأنها ارتاحت إلى ما تركه فيهن من أثر . وقد سألنها يوماً عن الشاب « الذى رأينه معها » فقالت :

— خطيبى ... صاحب صالون حلاقة !

وقالت لنفسها إن أية واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة إذا خطبها صبى قهوة أو صبى حداد ، وهذا صاحب دكان ، أوسطى . وأفندى أيضا ! كانت مشغولة أبداً بالموازنة والاختبار والتفكير ، فلم تنجذب إلى الدنيا

السحرية التى يهيم فى سماواتها . بيد أنه كان يبلغ بهـا التأثر فى لحظات منتهاه ؛ فـكأنها كانت — فى تلك اللحظات — محبة حقا . وفى إحدى هذه اللحظات استوهبها قبلة . فلم تقل لا ولم تقل نعم . أرادت أن تذوق هـذه القبلة التى سمعت عنها كثيراً وتغنت بها كثيراً . ونظر هو محاذراً يراقب المارة ، وتحسس ثغرها فى ظلمة المساء . ثم وضع شفتيه على شفتيها وهو يرتعد ، وغمرتها أنفاسه الملتهبة ، فسالت إلى نحرها وطرفت عيناها .

ثم دنا موعد سـفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة ، واختـار الدكتور بوشى — الذى تيسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق — سفيراً له لدى أم حميدة . وسرت المرأة بالشاب الذى تراه الصالح الوحيد لابنتها فى الزقاق ، وكانت تعده دائماً « صاحب صالون وقد الدنيا » ؛ ولـكنها خافت شماس ابنتها المتمردة ، وظنت أنها مقبلة على معركة طاحنة ، فما أدهشها بعد ذلك إلا أن تتلقى الفتاة الخبر برضا وتسليم مما جعلها تهز رأسها وتقول :

— هذا فعل النافذة وراء ظهرى !

وكلف الحلو عم كامل بصنع صينية بسبوسة فاخرة وإرسالها لأم حميدة ، واستأذن فى مقابلتها ، ومضى إليها مصحوباً بعم كامل شريكه فى بيته وحياته . وقد وجد عم كامل صعوبة شديدة فى ارتقاء السلم ، وجعل يتوقف كل درجتين لاهثا متوكئا على الدرابزين . حتى قال للحلو مداعباً عند أول « بسطة » :

— هلا أجلت الخطبة لحين عودتك من الجيش ؟ !

ورحبت بهما أم حميدة . وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات ، حتى قال عم كامل :

— هذا عباس الحلو ابن زقاقنا ، وابنك ، وابنى ، يطلب إليك يد حميدة . .

فابتسمت المرأة وقالت :

— أهلا بالحلو الذى هو حلو ، ستسكون ابنتى عنده وكأنها لم تفارقنى . .

وتحدث عم كامل عن الحلو وأخلاقه ، وعن الست أم حميدة وأخلاقها ، ثم قال :

— سيغادرنا الفتى فتح الله عليه ، وقريباً تتحسن حاله فيتم له ولنا المراد بإذنه تعالى . .

ودعت أم حميدة له ، ثم داعبت عم كامل قائلة :

— وأنت يا عم كامل متى تنوى وتتوكل على الله ؟

فضحك عم كامل حتى صار وجهه كالطماطم فى إبانها ، ومسح على كرشه المحيط وقال :

— دون ذلك هذا الحصن المنيع . . !

وقرأوا الفاتحة وشربوا الشربات . . .

ثم كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهر . سارا واجمين ، والحلو يشعر بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا إلى مجارى عينيه . وقد سألته :

— هل تغيب طويلا ؟

فقال الشاب بصوت رقيق حزين :

— ربما امتدت خدمتى عاماً أو عامين ولكن لن تفوتنى فرصة مناسبة للحضور . .

فغمغمت قائلة ، وكانت تجد نحوه فى تلك اللحظة وداً عميقاً :

— يا له من زمن !

فابتهج قلبه — على أساه — لهذه العبارة التى تنم عن الجزع ، وقال منفعلاً :

— هـذا آخر لقاء قبل السفر ، والله وحده يدرى متى يكون اللقـاء التالى . وإنى لفى حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور . أجدنى محزوناً لأنى مبتعد عنك ، ثم أجدنى مسروراً لأن هذا الطريق الطويل الذى اخترت هو الطريق الوحيد المفضى إليك . ولكنى سأترك قلبى ورائى فى الزقاق ، فتصورى رجلا مهاجراً بلا قلب ، رمى به السفر إلى بلد ناء ، وأبى قلبه أن

يسافر معه . وغداً فى التل الكبير ، وعند مطلع كل صباح ، سأفتقد النافذة المحبوبة التى كنت أراك تكنسين حافتها . أو تمشطين شعرك وراء فرجة مصراعيها ، وهيهات أن أجد لها أثراً . ولقاؤنا فى الموسكى والأزهر ماذا يبقى لى منه ؟ أواه يا حميدة ، هذا ما يتقطع له قلبى . دعينى آخذ منك كل ما أستطيع أخذه ، ضمى راحتك فى يدى ، وشدى على يدى كما أشد على يدك . لله ما أطيب مسك ، إنه يرعش قلبى ، إنى قلب كبير بين يديك ، يا عزيزة ، يا حبيبة ، يا روح قلبى يا حميدة . ما أجمل اسمك ، كأنى إذا نطقت به أستحلب سكراً . .

واستنامت الفتاة إلى كلامه المتدفق الحار ، فلانت نظرة عينيها ، وغمغمت قائلة :

— أنت الذى اخترت السفر . .

فقال بصوت كالنواح :

— أنت السبب يا حميدة . أنت أنت السبب . أنا والله أحب زقاقنا ، وأحمد الله على ما يرزقنى به من كفاف . وما أحب أن أنأى عن الحسين الذى أقوم وأقعد باسمه . ولكنى وا أسفاه لا أستطيع أن أهيء لك الحياة التى ترضينها ، فلم أجد عن السفر مذهبا . وربنا يأخذ بيدى ، ويجمعنا على أهنأ حال . .

فقالت حميدة بتأثر شديد :

— سأدعو لك بالتوفيق ، وسأزور سيدنا الحسين وأسأله أن يرعاك ويكتب لك النجاح . والصبر طيب ، والحركة بركة . .

فتنهد من الأعماق وقال :

— أجل الحركة بركة ، ولكن يا ويلى من بلد لا أجد لك فيه ظلا . .

فغمغمت برقة :

— لن تكون هكذا وحدك . .

فالتفت نحوها وقد سكر بقولها ، ورفع يدها حتى مست قلبه ، وهمس :

— حقا ؟ !

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الهائمتين على الضوء المنبعث من بعض الدكاكين . وغاب فى تلك اللحظة عن كل شىء ماعدا وجهها المحبوب ، وسالت هذه الكلمات من بين شفتيه :

— ما أجملك ، ما أرقك ، ما أعذبك . هذا هو الحب . إنه عذب جميل ياحميدة . الدنيا من غيره لا تساوى مليما واحداً . .

ولم تدر ماذا تقول فتعوذت بالصمت ، وجرت كلماته متناغمة فى أذنيها ، فأخذتهما نشوة الطرب ، وودت ألا يسكت أبداً . وكانت حرارة العاطفة قد أذهلته عن وعيه فراح يقول :

— هذا هو الحب . هو كل مالنا . فيه الكفاية وفوق الكفاية . هو فى القرب السرور ، وفى البعد العزاء ، وفى الحياة حياة فوق الحياة . .

وسكت لحظة متنهداً ، ثم استطرد :

— أسافر باسمه ، وبفضله أعود وقد ربحت كثيراً . .

فتمتمت وهى لا تدرى :

— كثيراً إن شاء الله . .

— بإذن الله ، وببركة الحسين . وسوف يحسدك جميع أولئك الفتيات .

فابتسمت فى سرور قائلة :

— آه ... ما أمتع هذا !

وانطوى الطريق وهما لايشعران ، فضحكا معاً فى فرح ، ثم دارا على عقبيهما . وأحس فى العودة أن اللقاء يقترب من نهايته ، فعاودته أفكار الوداع والفراق ، وخبت كثيراً نشوته ، واعتوره الشجن . وعند انتصاف الطريق سألها بلهفة :

— أين أودعك ؟

وأدركت ما يعنيه ، وقلقت شفتاها ، فقالت متسائلة :

— هنا ؟ !

ولكنه اعترض قائلا :

— لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفاً ...

— أين تريد إذاً ؟

— اسبقيني على البيت وانتظريني على السلم ...

وحثت خطاها ، وسار هو متمهلا فبلغ الزقاق وقد أغلقت دكاكينه ، واتجه نحو بيت الست سنية عفيفي لا يلوى على شيء . وارتقى السلم محاذراً في ظلمة دامسة ، كاتماً أنفاسه ، يداً على الدرابزين ، ويداً تتحسس الظلام . وعند « البسطة » الثانية لمست أنامله طرف الملاءة . فخفق قلبه باعثاً الشوق الحبيس في أطرافه ، وقبض على ذراعها ، واقترب منها في رفق ، وأحاطها بذراعيه ، ثم ضمها إلى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوق ، وهوى إليها بفمه ، فوقع على أنفها ، ثم هبط على شفتيها ، وكانتا منفرجتين لاستقباله ؛ وأخذته سنة من ذهول الحب لم يستيقظ منها حتى تخلصت من ذراعيه بلطف ، ومضت مصعدة وهو يهمس وراءها « مع السلامة » . لم يبلغ بها الانفعال يوماً ما بلغه هذا المساء على السلم . حيث في دقيقة قصيرة حياة طويلة مفعمة بالإحساس والعاطفة والحرارة . وحسبت أن حياتها قد ارتبطت به إلى الأبد .

* * *

وزار عباس الحلو أم حميدة ، تلك الليلة ، مودعا . ثم مضى إلى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة ليمضي آخر سهرة فيها قبل سفره . وكان حسين يبدو مسروراً ظافراً لانتصار رأيه ، وجعل يقول لصاحبه بصوته الذي ينم عن التحدي لسبب ولغير ما سبب :

— ودع هذه الحياة القذرة واستمتع بالحياة الحقيقية ...

فابتسم الحلو صامتاً ، وقد أخفى عن صاحبه الكآبة القابضة على قلبه لفراق الزقاق الذي يحبه ، والفتاة التي يهيم بها . وجلس بين رفاقه يعاني

أشواقه المكتومة ، ويتلقى كلمات التوديع وما تحمل من جميل الدعاء . وقد باركه السيد رضوان الحسيني . ودعا له طويلا ، وقال له ناصحاً :

— اقتصد ما يفيض عن حاجتك من مرتبك ، واحذر الإسراف والخمر ولحم الخنزير ، ولا تنس أنك من المدق ، وأنك إلى المدق راجع ...

وقال له الدكتور بوشي ضاحكا :

— ستعود إلينا إن شاء الله من الموسرين ، ولابد عند ذاك من خلع أسنانك المسوسة هذه وتركيب طقم ذهبي يليق بالمقام ...

فابتسم الحلو ، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان ، لأنه هو الذي أسفر بينه وبين أم حميدة ، ولأنه هو أيضاً الذي باع له أدوات صالونه بثمن لا بأس به كي ينتفع به في سفره . وكان عم كامل واجماً ساهماً ، يحز الفراق الوشيك في فؤاده ، ولا يدري كيف يلقى غداً الوحشة والوحدة ، بعد أن يذهب الشاب الذي شاطره العيش أعواماً طويلة ، والذي أحبه كأنه فلذة كبده . وكان كلما أثنى أحد على الحلو أو توجع لفراقه أغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعاً .

وقرأ الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي وقال له :

— أصبحت الآن من المتطوعين في الجيوش البريطانية ، وإذا أظهرت بسالة فليس بعيداً أن يقطعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة ينصبك عليها نائب ملك ، ومعناها بالإنجليزية Viceroy وتهجيتها . . . v i c e r o y

* * *

وفي الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملا بقجة ثيابه . كان الجو باردا شديد الرطوبة ، ولم يكن أحد من أهل الزقاق قد استيقظ إلا الفرانة وسنقر صبي القهوة ، ورفع الشاب رأسه إلى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة ، فودعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطل على خصاصها . وسار متمهلا مطرقا حتى بلغ باب دكانه فألقى عليها نظرة أخرى متنهداً ، وعلق

بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخط كبير « للإيجار » ، فانقبض صدره وأوشكت عيناه أن تدمعا . . .

وحث خطاه كأنما ليفر من عواطفه ، فما إن ترك الزقاق وراء ظهره حتى شعر بأن قلبه يفارقه إليه ...

١٤

كان حسين كرشة الذى أغرى عباس الحلو بالخدمة فى الجيش البريطانى ، ولما أن سافر الشاب إلى التل الكبير ، وخلا منه الزقاق — حتى دكانه اكتراها حلاق عجوز — جن حسين جنوناً واجتاحه ثورة عنيفة تفور مقتاً للزقاق وأهله . أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق وأهله ، ويتطلع لحياة جديدة ، ولكنه لم يستبن سبيله ، ولم يعزم عزمة صادقة على تحقيق أحلامه ، حتى ذهب الحلو ، فجن جنونه . وكأنما كبر عليه أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القذر ، وهو باق فيه لايدرى كيف يتخلص منه ، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر . وبفظاظته المعهودة قال لأمه يوماً وقد امتلأ بعزمه حتى فاض عنه :

— أصغى إلىّ ، لقد عزمت عزماً لا رجعة فيه ، فهذه الحياة لا تطاق ولا داعى مطلقاً لتحملها قسراً !

وكانت المرأة آلفة سخطه ، معتادة سماع سبابه للزقاق وأهله ، وكانت تراه — كأبيه — سفيهاً لا يصح أن تحفل بهذيانه ، فسكتت عنه وهى تغمغم :

— اللهم تب علىّ من هذه الحياة !

ولكن حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه الصغيرتين واربد وجهه الضارب للسواد :

— هذه الحياة لا تطاق ، ولن أحتملها بعد اليوم ...

ولم يكن فى وسعها أن تلزم الصمت طويلا حيال هياج أحد ، فنفد

صبرها الرقيق ، وصاحت به بصوت دل على أن صوته متوارث عنها :

— مالك ؟ ! مالك يا ابن اللئيم

فقال الشاب بازدراء :

— لا بد من هجر هذا الزقاق .

فحدجته بحنق ، وانتهرته قائلا :

— أجننت يا ابن المجنون !

فشبك ذراعيه على صدره وقال :

— بل ثبت إلى رشدى بعد جنون طويل . افهميني جيداً ، فلست ألقى القول على عواهنه ، ولكني أعنى ما أقول ، ولقد جمت ثيابى فى البقجة ولم يبق إلا أن أستودعك الله . بيت قذر . زقاق نتن ، أناس بهائم !

وحدجته بنظرة متفحصة لتقرأ عينيه ، فخبلها عزمه المتوثب وصاحت به :

— ماذا تقول ؟

فعاد يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— بيت قذر ، زقاق نتن ، أناس بهائم . .

فهزت رأسها ساخرة وقالت :

— مرحباً بك يا ابن الأماثل ! يا ابن كرشة باشا !

— كرشة قطران . كرشة المشبوه . أف أف ، ألم تعلمى بأن فضيحتنا زكمت الأنوف جميعاً ؟ ! . . يغمزوننى فى كل مكان . يقولون هربت أخته مع واحد ، وسيهرب أبوه مع واحد آخر !

وضرب الأرض بقدمه حتى طقطق زجاج النافذة وصرخ غاضباً :

— ماذا يضطرنى إلى البقاء فى هذه الحياة؟ سأحمل ثيابى وأذهب إلى غير رجعة.

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— جننت والله . أورثك الحشاش جنونه . ولكنى سأدعوه ليردك إلى عقلك .

فصاح حسين باستهانة :

— ادعيه . نادى أبى ، نادى الحسين نفسه . أنا ذاهب . . ذاهب ... ذاهب . .

ولما وجدته المرأة جاداً معانداً ، ذهبت إلى حجرته فرأت البقجة منتفخة بالثياب كما قال ، فتولاها القنوط ، وصممت على إحضار أبيه مهما تكن العواقب . كان حسين عزاءها الوحيد فى حياتها ، ولم تكن تتصور أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة . وكانت إلى ذلك ترجو أن تستبقيه حتى بعد زواجه حين يتزوج ، فلم تستطع مغالبة قنوطها ، وأرسلت فى طلب أبيه وهى تصيح نادبة حظها « علام يحسدوننا ؟ ... على خيبتنا القوية ! . . على فضائحنا ! ... على شقائنا ! » . وجاء المعلم كرشة بعد قليل مكشراً عن أنيابه ، وانتهرها قائلا :

— ماذا تريدين ؟ فضيحة جديدة ؟ زبون جديد رأيتنى أقدم له الشاى !

فقالت المرأة ملوحة بيدها كالنادبة :

— فضيحة ابنك ! أدركه قبل أن يهجرنا ، فقد ضاق بنا ذرعاً !

فضرب المعلم كفاً بكف وقال وهو يهز رأسه مغيظاً محنقاً :

— أمن أجل هذا أترك عملى ياهوه ! . . أمن أجل هذا أصعد مائة درجة ؟ آه يا أولاد الكلب ، لماذا تعاقب الحكومة على قتل أمثالكم ؟!

وجعل يردد بصره بين الأم وابنها واستطرد قائلا :

— ربنا ابتلانى بكما ليقتص منى . ما هذا الذى تقوله أمك ؟

ولزم حسين الصمت . وراحت أمه تقول بهدوء ما وسعها الصبر :

— هدىء روعك يامعلم ، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك لا لغضبك . لقد جمع ثيابه فى بقجته ، ونوى مغادرتنا . .

فسدد نحوه نظرة حقد وغضب ، وهو بين مصدق ومكذب ، وقال كالمتسائل :

— جننت يابن القديمة !

وكانت أعصاب المرأة متوترة فلم تملك أن صاحت به :

— دعوتك لتعقله لا لتشتمنى ..

فالتفت نحوها غاضبا وهو يقول :

— لولا جنونك الموروث لما شب ابنك مجنونا ...

— الله يسامحك . أنا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هـذا ، واسأله عما خالط عقله ؟!

وحدج ابنه بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تناثر ريقه :

— مالك لا تتكلم يا ابن القديمة ! هل تروم حقا مغادرتنا ؟

وكان الفتى يتحامى أباه عادة ، ولا يصطدم به إلا إذا ضاقت به السبل . ولـكنه كان قد عزم عزما صادقا على نبذ ماضيه مهما كلفه الأمر ، فلم يتردد ولم يتراجع ، خصوصاً وأنه كان يرى أن مسألة إقامته فى البيت أو مغادرته من صميم حقه الذى لا ينازعه فيه منازع ، فقال بهدوء وعزم معاً :

— نعم يا أبى ..!

فسأله الرجل وهو يعانى خناق غيظه :

— ولماذا ؟

فتفـكر الشاب قليلا ثم قال :

— أريد أن أحيا حياة أخرى ...

فقبض الرجل على ذقنه ، وهز رأسه ساخراً وقال :

— فهمت .. فهمت . تريد حياة أخرى تناسب المقام ! لأن كلبا مثلك نشأ محروما جائعا . يجن إذا امتلأ جيبه . وأنت الآن صاحب قرش انجليزى ، فمن الطبيعى أن ترتاد حياة أخرى ، تليق بمقامك العالى يا قنصل الأوز !

فـكظم حسين غيظه وقال :

— لم أكن كلبا جائعا قط ، لأنى نشأت فى بيتك ، وبيتك لم يعرف

الجوع أبداً والحمد لله . وكل ما فى الأمر أنى أريد أن أغير حياتى ؛ وهـذا حق لا مراء فيه ، ولا داعى مطلقاً لغضبك وسخطك .

ولم يفهم المعلم مراده . كان الشاب يتمتع بحرية مطلقة ، فلا يسأل عما يفعل ، فلماذا يريد أن ينشىء لنفسه بيتا خاصاً ؟ وكان المعلم ، على رغم ما يقوم بينهما من أسباب الشقاق والملاحاة والخصام ، يحبه . ولـكنه حب لم يظفر قط بالجو الذى يستطيع أن يتنفس فيه ، وغشيته دائماً غواشى الغيظ والحنق والسباب ، ولطالما نسى كثيراً أنه يحب ابنه الوحيد . وحتى فى هذه الساعة والفتى ينذره بهجره غاب حبه وإشفاقه تحت ستار الغضب والحنق ، وتمثل له الأمر تحديا وعراكا . ولذلك سأله فى تهكم مر :

— نقودك فى جيبك ، تنفقها كما تشاء وينعم بها الخمارون والحشاشون والقوادون ، هل سألناك مليما ؟ .

— أبداً . . أبدا . أنا لا أشـكو هذا مطلقا . .

فتساءل المعلم بنفس اللهجة المرة .

— أمك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما إلا التراب ، هل أخذت منك مليما ؟ .

فقطب حسين ضجراً وقال :

— قلت إنى لا أشكو هذا . كل ما فى الأمر أنى أريد حياة غير هذه الحياة . إن كثيرين من زملائى يقطنون فى بيوت فيها الـكهرباء ! .

— الـكهرباء !! أمن أجل الـكهرباء تترك بيتك ؟! . . الحمد لله على أن أمك بفضائحها قد جعلت بيتنا أحمى من الـكهرباء . .

وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة :

— مظلومة والله يا ربى ظلم الحسن والحسين ..

واستدرك حسين قائلا :

— إن زملائى جميعاً يحيون حياة جديدة ، وقد انقلبوا جميعاً جنتلمان كما يقول الإنجليز .

ففغر المعلم فاه ، فانفرجت شفتاه الغليظتان عن أسنانه الذهبية وقال :

— ماذا تقول ؟

فلزم الفتى الصمت مقطبا ، واستدرك المعلم :

— جلمان ؟ ! . ما هذا ؟ . . صنف حشيش جديد ؟ ! .

فقال حسين متذمرا :

— أعنى رجلا نظيفا . . !

— ولكنك وسخ ، فكيف تريد أن تكون نظيفا . . يا جلمان ! .

وضاق حسين بتهكم أبيه فقال منفعلا :

— أبى ، أريد أن أحيا حياة جديدة ، هذا كل ما هنالك ، وسأتزوج من بنت ناس ! .

— بنت جلمان ! .

— بنت ناس طيبين .

— ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك ؟ ! .

فتأوهت أم حسين قائلة :

— الله يرحمك يا أبى كنت فقيهاً وقوراً .

فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال :

— فقيه ! . . كان قارىء قبور ، يتلو السورة بمليمين ! .

فقالت المرأة متوجعة :

— كان يحفظ كلام الله وكفى ...

وتحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع ، وسأله بصوت مخيف :

— حسبنا كلاما ، فليس لدى من وقت أضيعه بين مجانين . أتريد حقاً أن تترك هذا البيت ؟ ! .

فلم حسين أطراف شجاعته وقال باقتضاب :

— نعم .

فأدام المعلم النظر إليه مليا ، ثم ثارت ثائرته بغتة ، فضربه براحته على وجهه . ولم يستطع الفتى أن يتفادى الضربة العنيفة فتلقاها بحنق جنونى ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح :

— لا تضربنى ، لا تمسنى ، لن ترانى بعد اليوم .

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة ، وتلقت لكماته على صدرها ووجهها ، حتى كف الرجل وهو يصرخ :

— أغرب عنى بوجهك الأسود ! ولا تعد أبداً . سأفرض أنك مت واندلقت فى الجحيم .

وجرى الفتى إلى حجرته ، وتناول البقجة ، ونزل السلم وثبا ، وقطع الزقاق لا يلوى على شىء ، وقبل أن يعدل إلى الصنادقية بصق عليه ، وهتف بصوت مرتعش من الحنق :

— غر .. انجحر ، لعنة الله عليك وعلى أهلك .

١٥

سمعت الست سنية عفيفى طرقا على الباب ، ففتحته ، فرأت — فى فرح لا يوصف — وجه أم حميدة يطالعها بصفحته المجدورة ، وهتفت من الأعماق :

— أهلا وسهلا بالحبيبة .

وتعانقتا عناقا حاراً — أو هكذا بدا على الأقل — وقادتها إلى حجرة الاستقبال وهى تأمر الخادم بصنع القهوة ، وجلستا على كنبة متلاصقتين ، واستخرجت من علبة سيجارتين ، وجعلتا تدخنان فى انبساط وسرور . وكانت الست سنية تكابد آلام الترقب والانتظار مذ وعدت أم حميدة بالبحث لها من زوج . ومن عجب أنها صبرت على العزوبة أعواما طوالا

ولكنها لم تستطع مع فترة الانتظار — على قصرها — صبرا . واعتادت في هذه الفترة أن تتردد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل ، والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء ، وما انفكت تمدها وتمنيها ، حتى أيقنت الست سنية أن المرأة تسوف وتماطل حتى تظفر منها بأكبر نفع مرجو . ومع ذلك كانت معها جوادة كريمة ، فأعفتها من دفع إيجار الشقة ، وتنازلت لها عن عدد من كوبونات الكيروسين ، ونصيبها من الأقمشة الشعبية ، غير صينية بسبوسة كلفت عم كامل بصنعها لها . ثم آذنتها المرأة بخطبة عباس الحلو لابنتها حميدة ! وتظاهرت الست سنية بالسرور ، ولكن الخبر وقع من نفسها موقعاً مقلقا ، وتساءلت ترى هل تضطر إلى المساهمة في تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن تجهز نفسها ؟! هكذا تنازعها الخوف من أم حميدة والتودد إليها طوال فترة الانتظار . وقد جلست لصقها تسترق إليها النظر بين آونة وأخرى متسائلة عما عسى أن تتمخض عنه زيارتها هذه : وعود وأماني كالعادة أم البشرى التي يتلهف قلبها عليها ؟! وراحت تداري اضطرابها بشجون الحديث ، فكانت — على غير المألوف — المحدثة وأم حميدة المنصتة . تكلمت عن فضيحة المعلم كرشة ، ومغادرة ابنه حسين لبيته ، وانتقدت أم حسين في تصرفاتها الفاضحة التي تحاول بها تقويم سلوك زوجها الشاذ ، ثم تدرج الحديث إلى عباس الحلو ، فأثنت عليه قائلة :

— أنعم به من شاب طيب . سيفتح الله عليه ويرزقه ، ويمكنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التي تستأهل كل خير .

وابتسمت أم حميدة عند ذاك وقالت :

— الشيء بالشيء يذكر . اعلمي أني حاضرة اليوم لأخطبك يا عروس

وخفق فؤادها بعنف . وذكرت كيف حدثها قلبها بأن زيارة اليوم خطيرة ، وبأن المرأة تطوى صدرها على سر تضن به إلى حين . وتورد

وجهها ، وجرى فى عوده الذابل ماء شباب ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت فى حياء مصطنع :

— واخجلتاه ! ماذا تقولين ياست أم حميدة !

فقالت المرأة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة ظفر وارتياح :

— أقول إنى حاضرة لأخطبك يا ست الناس !

— حقاً ! ياله من أمر خطير ! أجل أذكر ما تم الاتفاق عليه ، ولكن لا يسعنى إلا أن أضطرب ، وأن أخجل أيضاً ، واخجلتاه !

فجارتها أم حميدة فى تمثيلها وقالت محتجة :

— حاشا لله أن تخجلى لغير ما عيب أو نقيصة ، ولكنك تتزوجين على شرع الله وسنة الرسول . . .

فتنهدت الست سنية ، تنهد من يدفع إلى التسليم على غير إرادته ، وقد رن قول الأخرى لها « ستتزوجين » رنيناً حلواً محبوباً فى أذنيها . أما أم حميدة فقد أخذت نفساً طويلا من سيجارتها ، وهزت رأسها هزة الثقة والاطمئنان وقالت :

— موظف ...

ودهشت الست سنية ، ونظرت إلى محدثتها بعينين لا تكادان تصدقان . موظف ! ! إن الموظف فاكهة محرمة على زقاق المدق ! وتساءلت قائلة :

— موظف ؟

— أى نعم موظف !

— فى الحكومة ؟ !

— فى الحكومة !

وسكتت أم حميدة هنيهة لتستمتع بظفرها ، ثم استطردت :

— فى الحكومة ، وفى قسم بوليس بالذات . . !

فازداد عجب الست وقالت متسائلة :

— وماذا يوجد فى القسم غير الضباط والعساكر ؟!

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت :

— يوجد موظفون أيضاً . اسأليني أنا . أنا أعرف الحكومة والوظائف والدرجات والعلاوات . هذه مهنتي ياست !.

فقالت الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا يصدق :

— هو أفندى إذاً !!

— أفندى بسترة وبنطلون وطربوش وحذاء !

— الله يشرف قدرك ياست أم حميدة .

— إنى أختار الطيب للطيب ، وأعرف لكل إنسان قدره . ولو كان فى أقل من الدرجة التاسعة ما وقع اختيارى عليه . .

فتمتمت الست سنية متسائلة :

— الدرجة التاسعة ؟

— الحكومة درجات . ولكل موظف درجة . والتاسعة إحدى هذه الدرجات . ولكنها درجة ولا كل الدرجات يا حبيبتى !

فقالت الست وعيناها تتألقان سروراً :

— دمت من صديقة محبة عزيزة !

فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشى بالظفر والثقة :

— يجلس إلى مكتب كبير ، تتكدس عليه الملفات والأوراق للسقف ، والقهوة داخلة خارجة ، هذا يرجوه وهذا يسأله ، وهو ينهر هذا ويشتم ذاك ، العساكر تحييه ، والضباط تحترمه . .

فابتسمت الست سنية ، ولاحت فى عينيها نظرة أحلام ، وواصلت أم حميدة الحديث قائلة :

— مرتبه عشرة جنيهات لا تنقص مليما

وصدقتها الست سنية فهتفت قائلة :

— عشرة جنيهات !

فقالت المرأة ببساطة :

— هذا قليل من كثير ، وما مرتب الموظف إلا بعض رزقه ، وبالحذق والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه ، ولا تنسى علاوة الغلاء ، وعلاوة الزواج ، ثم علاوة الأطفال ..

فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت :

— سامحك الله ياست أم حميدة ، مالى أنا والأطفال !

— ربك قادر على كل شيء . .

— نحمده ونشكر فضله على أى حال .

— أما عمره فثلاثون عاما . .

فصاحت الست فى إنكار :

— رباه ! أكبره بعشرة أعوام !

ولم يخف على المرأة أنها تناست عشرة أعوام من عمرها ، ولكنها قالت فى لهجة تنم عن العتاب :

— لا زلت شابة ياست سنية ! ومع ذلك فقد صارحته بأنك فى الأربعين ووافق مسروراً . .

— أرضى حقا ؟ ! . . ما اسمه ؟ ! . .

— أحمد أفندى طلبة من أهل الخرنفش ، وابن الحاج طلبة عيسى صاحب المقلة بأم الغلام ، أسرة طيبة شريفة تنحدر من صلب سيدنا الحسين . .

— أسرة طيبة حقاً . وأنا شريفة أيضاً كما تعلمين ياست أم حميدة . .

— أعلم هذا يا حبيبتى . وهو لا يتحرى إلا الأخلاق الطيبة ، ولولا هذا لتزوج من عهد طويل ، ولكنه يزدرى بنات اليوم وينقم عليهن قلة الحياء . ولما أن حدثته عن أخلاقك واحتشامك ، وقلت له إنك سيدة شريفة وصاحبة قرش ، سر سروراً لا مزيد عليه ، وقال لى هذه طلبتى ، بيد أنه سألنى شيئاً واحداً لايخرج عن حدود الأدب ، وهو أن يرى صورتك !

فتورد الوجه النحيل ، وقالت بإشفاق :

— والله ما صورت منذ أمد بعيد . .

— أليس لديك صورة قديمة ؟

فأومأت الست إلى صورة على منضدة وسط الحجرة دون أن تنبس بكلمة . فانحنت المرأة قليلا وتناولتها بيدها ونظرت فيها متفحصة . كانت صورة يرجع تاريخها إلى ما قبل ستة أعوام ، وكانت صاحبتها وقتذاك على شيء من الامتلاء والحياة ، فرددت المرأة بصرها بين الصورة والأصل ، ثم قالت جازمة :

— طبق الأصل ، كأنها صورت بالأمس القريب . .

فتهدج صوت المرأة وهي تقول :

— الله يحلى دنياك ...

وأودعت جيبها الصورة بإطارها ، وأشعلت سيجارة أخرى قدمت لها ، ثم قالت بلهجة رزينة :

— ولقد تحدثنا طويلا فعرفت أموراً عما في مرجوه ...

ولحظتها الست بنظرة حذرة لأول مرة ، وانتظرت أن تواصل حديثها فلما أن طال الصمت ، سألتها مبتسمة ابتسامة باهتة :

— ترى ماذا في مرجوه ؟

أتجهل حقاً أم تظنه يريد الزواج منها حباً في سواد عينيها ؟ واغتاظت المرأة قليلا ، بيد أنها قالت بهدوء وبصوت منخفض قليلا :

— أظن ليس لديك مانع من إعداد جهازك بنفسك .. ؟

وفهمت الست سنية المقصود لأول وهلة ، فالرجل لا يريد أن يدفع صداقا ، ويرغب ولاشك أن يترك لها وحدها عبء الجهاز . ولم يكن ذلك ليغيب عنها من أول الأمر ، منذ تملكتها الرغبة في الزواج . وسبق أن لمحت أم حميدة إلى هذا في ثنايا أحاديثها فلم تفكر قط في الاعتراض عليها . فقالت بلهجة تنم عن التسليم :

— ربنا المعين .

فابتسمت أم حميدة وقالت :

— نسأل الله التوفيق والسعادة ...

ونهضت المرأة تريد الانصراف ، فتعانقتا عناقاً حاراً . وسارت الست فى توديعها حتى الباب الخارجى ، ووقفت مرتفقة الدرابزين وأم حميدة تنزل السلم إلى شقتها ، وقبل أن تغيب عن ناظريها هتفت بها :

— مع ألف سلامة . قبلى عنى حميدة . .

ثم عادت إلى حجرتها بقلب فتى ، ابتعث حرارته الأمل الجديد . وجلست تستعيد ما قالت أم حميدة جملة جملة وكلمة كلمة . كانت الست سنية على شىء من الحرص ولكنه ليس الحرص الذى يقف عثرة فى سبيل سعادتها . أجل فطالما آنس المال وحدتها ، سواء ذاك الذى تحفظه فى صندوق التوفير أو هذا الذى تتملاه رزما جديدة بديعة فى صندوقها العاجى ، ولكن لا هذا ولا ذاك يغنى عن الرجل الخطير الذى سيصبح بإذن الله بعلا لها . ولكن هل تعجبه الصورة ؟ وتورد وجهها حتى أحست بحرارة دمها تلفح جبينها . ونهضت إلى المرآة تعاين صورتها ، وجعلت تحرك وجهها يمنة ويسرة حتى تراءى لعينيها أحسن الأوضاع فثبتته عليه ، وأنعمت فى الصورة النظر ، ولاح فى وجهها شىء من الرضا ، وغمغمت برجاء « ربنا يستر » . ثم عادت إلى جلستها وهى تقول « المال يغطى العيوب » ألم تقل له المرأة إنها صاحبة قرش ؟ ! وإنها لكذلك . وليست الخمسون بسن اليأس ؛ فلا يزال أمامها عشرة أعوام ، وكم من امرأة فى الستين تستطيع أن تتمتع بالسعادة إذا كفاها الله شر الأمراض . والزواج كفيل برى العود الذابل ، وبعث الجسد الخامد . هكذا سرحت مع أفكارها الوردية حتى اعترض تيارها الصافى زبد متلبد ، فقطبت فجأة ، وتساءلت مغيظة : ترى ماذا يقول الناس غداً ؟ آه ، إنها تعرفهم حق المعرفة ، وستكون أم حميدة نفسها فى طليعة المتقولين . سيقولون لقد جنت الست سنية ، ويقولون امرأة فى الخمسين

فتزوج من ابن لها فى الثلاثين ، وسوف يتحدثون طويلا عن المال الذى يصلح ما أفسد الدهر ، وربما قالوا غير هذا وذاك كثيراً مما لا يخطر لها ببال . فليقولوا ما شاء لهم القول .. وهل كانوا أعتقوها من شر ألسنتهم وهى أرملة ؟ ! وهزت الست كتفيها استهانة ، ثم دعت ربها من الأعماق قائلة :

— اللهم احفظنى من شر العين . . .

ثم خطر لها خاطر سرعان ما رحبت به ، وصدقت نيتها على تنفيذه ، وهو أن تذهب إلى الشيخة رباح بالباب الأخضر تستقرئها الطالع ، وتستوهبها بعض الرقى ، فما أحوجها فى حالتها هذه إلى حجاب مفيد أو بخور نافع .

١٦

— ماذا أرى ؟ ! إنك لرجل وقور . !

قال زيطة ذلك وهو يتفرس وجه رجل عجوز منتصب القامة ، يمثل بين يديه فى خضوع واستكانة . . كان رث الجلباب ، نحيل الجسد ، ولكنه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات ، كبير الرأس أبيض الشعر ، مستطيل الوجه ، له عينان هادئتان خاشعتان ، كأنه لوقاره وطول قامته واعتدالها من رجال الجيش المتقاعدين . وراح زيطة يتفحصه بدهشة وأناة على ضوء المصباح الخافت ، ثم عاد يقول :

— إنك لرجل وقور ، أترغب فى امتهان الشحاذة حقاً ؟ !

فقال الرجل بصوت هادىء النبرات :

— أنا شحاذ بالفعل ولكنى غير موفق . .

فتنحنح زيطة ، وبصق على الأرض ، ومسح شفتيه بكم جلبابه الأسود ، وقال :

— إنك أرق من أن تحتمل أى ضغط شديد على أعضائك . والحق

إنه لا يصح التقدم لاتخاذ عاهة كاذبة بعد العشرين ، فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء فيما تقتضيه من عناء ! وكلما كان العظم طريا ضمن الشحاذ عاهة فى حكم المستديمة حقاً . وأنت شيخ كبير على عتبة الفناء فما عسى أن أصنع بك ؟

ومضى يفكر . وكان إذا اعتراه الفكر فغر فاه وأرعش لسانه فلاح فى فمه كرأس أفعى . ثم ومضت عيناه البراقتان بغتة وصاح :

— الوقار أنفس عاهة !

فسأله الرجل متحيراً :

— ماذا تعنى يا أستاذ ؟ !

فانكفا وجه زيطة غضباً وصاح به محتداً :

— أستاذ ؟ ! . . أسمعتنى أقرأ على القبور ؟

فدهم غضبه الرجل ، وبسط راحتيه مستعطفاً وقال بصوت منكسر :

— معاذ الله . . . ما قصدت إلا تبجيلك . .

فبصق زيطة مرتين وقال منفعلا فى زهو وعجب :

— إن عملى ليعجز أعظم أطباء البلد لو حاولوه . ألا تعلم أن إحداث عاهة كاذبة أشق من إحداث عاهة حقيقية ألف مرة ؟ . . إن عاهة حقيقية لا تستقضينى أكثر من أن أبصق على وجهك . . .

فقال الرجل بأدب جم :

— لا تؤاخذنى يا سيدى ، إن الله غفور رحيم . . .

وسكت الغضب عن زيطة ، وحدج الرجل بنظرة حادة ، ثم قال بصوت لم تمح منه بعض آثار الحدة :

— قلت إن الوقار أنفس عاهة . .

— كيف يا سيدى ؟

— الوقار كفيل بأن يكتب لك النجاح كشحاذ نادر المثال .

— الوقار يا سيدى ؟ !

فمد زيطة يده إلى كوز على الرف ، واستخرج منه نصف سيجارة ، ثم أعاده إلى موضعه ، وأشعلها من فوهة زجاجة المصباح ، وأخذ نفساً طويلا وهو يضيق عينيه البراقتين ، وقال بهدوء :

— ليست العاهة بمطلبك . بل أنت فى حاجة إلى مزيد من التحسين والتجميل . اغسـل جلبابك جيداً ، واحصل بأية طريقة على طربوش نصف عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه فى خشوع وأدب ، واقترب فى إشفاق من رواد المقاهى ، ثم قف فى حياء ، ومد يدك فى تألم دون أن تنبس بكلمة . وتـكلم بعينيك ، ألا تعرف لغة الأعين ؟ . . ستحدق فيك العيون بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحاذين المحترفين . أفهمت الآن ما أريد ؟ ستربح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاهاتهم . . .

وأمره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد ، ووقف يراقبه مدخناً سيجارته ، وتفكر قليلا ثم قال مقطباً :

— ربما سولت لك نفسك أن تأكل أجرى بحجة أنى لم أصنع لك عاهة تستحق الأجر ، وأنت حر تفعل ما تشاء ، على شرط أن تولى وجهك وجهة غير حى الحسين العامر .

فتعوذ الرجل فى إنـكار وقال متألماً :

— حاشاى أن أخون صاحب الفضل علىّ . . .

وانتهت المقابلة عند ذاك ، فسار زيطة بين يدى الرجل ليدله على الطريق ، ووصله حتى الباب الخارجى للفرن ، وفى أثناء عودته لاحظ أن المعلمة حسنية متربعة على حصيرة بمفردها ، وليس لجعدة من أثر ، وكان من عادته إذا التقى بها أن يخلق سبباً لمبادلتها كلمة أو كلمتين ، تودداً إليها ، وإفصاحاً عن إعجابه السـكمين ، فقال لها :

— أرأيت هذا الرجل ؟

فقالت المعلمة حسنية بغير مبالاة :

— طالب عاهة ، أليس كذلك ؟

فضحك زيطة وراح يقص عليها قصته ، والمرأة تضحك وتلعنه على شيطنته . ثم اتجه نحو الباب الخشبي القصير الذي يؤدي إلى مأواه ، وتردد على عتبته لحظة ثم سألها :

— أين جعدة ؟

فأجابته المرأة :

— في الحمام ..

وظن الرجل لأول وهلة أنها تسخر منه لقذارته المعروفة ، فرمقها بحذر ولكنه وجدها جادة . فأدرك أن جعدة قد ذهب حقا إلى حمام الجمالية ، وهو ما يفعله مرتين في العام ، وأنه لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب . فحدثته نفسه بأن يجالس المعلمة قليلا ، متشجعاً بمـــا أثارته قصته فيها من سرور . وجلس على عتبة بابه مستنداً إلى مصراع الباب ماداً ساقيه كعمودين رقيقين من الفحم ، غير عابىء بما أحدثه جلوسه من دهشة وإنكار لاحت آياتهما في عينيها . وكانت المرأة تعامله كما يعامله بقية أهل الزقاق ، غير كلمات يتبادلانها في ذهابه أو إيابه ، بوصفها مالكة مأواه . ولم تكن تشك في أن علاقته بها تنقطع عند هذا الحد ، ولم يدر لها بخلد أنه يطلع على الكثير من دخائل حياتها ودقائقها . ولكن مخلوقاً كزيطة لا يعدم أن يجد منفذاً في الجدار بينه وبين الفرن يطلع منه على ما يروى غلته المتطفلة ، وأحلامه البهيمية . فصـــار وكأنه واحد من هذه الأسرة ، يشهد عملها وراحتها ، ويلذه بوجه خاص أن يرى المعلمة وهي تكيل الضرب لبعلهـا لأقل هفوة . وما أكثر هفوات جعدة التي يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم ، حتى بات الضرب من غذائه اليومي ، يتلقاه تارة في تصبر وتجلد ، وتارة في بكاء وصراخ وعواء . وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرغفة في أثناء خبزها ، أو يسرق البعض الآخر ليلتهمه خفية فيما بين الوجبات ، أو يبتاع بسبوسة بنصف قرش من أجر الخبز الذي يحصله من البيوت ،

ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوماً بعد يوم ، دون توفيق فى طمس معالمها ، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة . وكان زيطة يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعتهه . وأعجب من هذا أنه — زيطة — كان يستقبحه ويهزأ بصورته ! كان جمدة طويل القامة لحد مفرط ، طويل الذراعين ، ممطوط الفك الأسفل ، غائر العينين ، غليظ الشفتين . ولطالما حقد عليه زيطة تمتعه بهذه الزوجة المائلة التى يرمقها بعين الإعجاب والرغبة ، ولذلك مقته واحتقره ، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصوانى . ولذلك أيضاً سره أن يجد فى غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلاً ، فجلس ومد ساقيه ، غير عابىء بما يحدثه جلوسه من دهشة وإنكار . ولم تتردد المعلمة حسنية بجرأتها المعهودة أن سألته بجفاء بصوت غليظ :

— مالك جلست هكذا ؟

فقال زيطة لنفسه « اللهم ارفع غضبك ومقتك عنا » ثم قال لها بلطف وتودد :

— أنا ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان . . .

فقالت بتقزز :

— ولماذا لا تنجحر وتريحنى من وجهك ؟

فقال زيطة برقة مبتسما عن أنيابه الوحشية :

— لا يمكن أن يقضى الإنسان حياته كلها بين الشحاذين والقاذورات والديدان ، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهج وأناس أفضل .

فانتهرته بعنف قائلة :

— يعنى لا مفر من أن يؤذى الناس بمنظره الكريه ورائحته الخبيثة ! . . أف . . أف . . انجحر وأغلق الباب وراءك . !

فقال زيطة بخبث :

— ومع ذلك فعسى أن توجد مناظر أفظع وروائح أخبث .

وأدركت المعلمة أنه يلمح إلى زوجها ، فاربد وجهها وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

— ماذا تعنى يا أخا الديدان ! ؟

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجرأة :

— أخونا الفاضل جمدة . . .

فصاحت به بصوت مخيف :

— حذار يا ابن اللئيمة . لو بلغتك يدى شطرتك اثنين . .

ولم يتعام الرجل عن الخطر الماثل أمامه فقال مستعطفاً :

— قلت إنى ضيف يا معلمة ، والضيف لايهان . ثم إنى لم أعرّض بجمدة إلا بعد أن ثبت لى ازدراؤك له ، وانهيالك عليه بالضرب لأتفه الأسباب .

— جمدة هذا ظفره برقبتك . !

فقال زيطة محتجاً :

— ظفرك أنت بألف رقبة كرقبتى ، أما جمدة . . .

— أتحسب أنك خير من جمدة ؟ !

فلاح الانزعاج فى وجه زيطة وفغر فاه دهشة ، لا لأنه — فى حسبانه — خير من جمدة فحسب ، ولكن لأنه كان يعتقد أن مجرد مقارنته به سبة لاتغتفر ، فأين هذا الحيوان الأعجم من شخص مقتدر مثله ، يعد بحق ملكا على دنيا برمتها أيا كانت هذه الدنيا ؟ . وسألها بدهشة :

— ماذا ترين أنت يا معلمة ؟

فقالت حسنية بتحد وازدراء :

— أرى أن ظفره برقبتك . .

— هذا الحيوان . . ؟

فهتفت بصوت فظ :

— هذا رجل ولا كل الرجال يا وجه العفريت . .

— هذا المخلوق الذى تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالة . ؟

وأدركت المرأة فى كلامه حنقاً وغيرة ، فراقها ذلك على انفعالها ،

وعدلت عن ضربه بعد أن حدثتها نفسها به ، وراحت تقول كأنما لتضاعف حنقه وغيرته :

— هذا شيء لا تفهمه ، وما أجدر أن تموت حسرة على لكمة مما يصيبه . .

فقال زيطة حانقاً :

— لعل الضرب شرف لا أدركه . . .

— شرف لا تطمح إليه يا عشير الديدان .

وتفكر زيطة ملياً ، ترى هل تطيب لها مماشرة هذا الحيوان حقاً ؟ ! وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، ولكنه كان يأبى أن يصدق هذا . إن المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت ، ولكنها تبطن شيئاً آخر بلا جدال . ورمق بنيانها الضخم المكتنز بعين نارية فازداد إباء وعنادا . ونشط خياله بارعا مجنونا فصور له المستقبل فى ألوان زاهية . وأوحى له خلو المكان بتخيلات محمومة ، فلمعت عيناه المختفيان . أما حسنية الفرانة فقد استلذت غيرته ، ولم يقلقها انفراده بها لعظيم ثقتها بقوتها ، فقالت فى تهكم :

— حتى أنت يا تراب الأرض . . استخرج جسمك من التراب الذى يغطيه أولا ، ثم كلم الناس بعد ذلك .

ليست المرأة غاضبة . ولو كانت غاضبة حقا لما دارت غضبها ولصفعته بوحشيتها . إنها تمازحه ولا شك ، فلا يجوز أن تفلت الفرصة من بين يديه . قال :

— أنت لا تفرقين يا معلمة ما بين التراب والتبر .

فقالت المرأة بتحد :

— هل تستطيع أن تنكر أنك طين ؟

فهز منكبيه استهانة وقال ببساطة :

— كلنا طين . . .

فقالت المرأة ساخرة :

— خسئت ! إنك طين على طين وقذارة على قذارة . ولذلك لا عمل لك إلا تشويه البشر ، كأنك تنبعث إلى ذلك برغبة شيطانية فى النزول بالبشر إلى مستواك القذر .

فتضاحك زيطة وما يزداد إلا أملا ، وقال :

— ولكنى أحسن الناس ولا أقبحهم . ألا ترين أن الشحاذ بغير العاهة لا يساوى مليما ، حتى إذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهبا ؟ ! . والرجل يقوم بثمنه لا بصورته . أما إخونا جعدة فلا ثمن ولا صورة . . .

فزجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد :

— أتعود إلى هذا الحديث مرة أخرى ؟

فتعامى عن وعيدها ، وتجاهل الموضوع الذى طرقه متعمداً ، وتخطاه قائلا :

— ومع ذلك فجميع زبائنى من الشحاذين المحترفين ؛ فماذا تريدينى على أن أفعل بهم ؟ . . أكنت تريدين أن أحليهم وأزينهم وأسرحهم فى الطرقات لغواية المحسنين ؟ !

— يالك من شيطان ! لسان شيطان ، وصورة شيطان .

فتنهد بصوت مسموع ، وقال باستكانة المستعطف :

— كنت مع ذلك ملكا فى يوم ما . .

فهزت رأسها متسائلة فى سخرية :

— ملكا من الأسياد والعفاريت ؟

فقال بلهجة الاستكانة والاستعطاف نفسها :

— بل من البشر أنفسهم . وأى واحد منا تستقبله الدنيا كملك من الملوك ، ثم يصير بعد ذلك ما يشاء له بخسه . وهذا خداع حكيم من الحياة ، وإلا فلو أنها أفصحت لنا عما فى ضميرها منذ اللحظة الأولى لأبينا أن نفارق الأرحام . . . !

— ما شاء الله يابن الدائخة !

فاستدرك زيطة فى حماسة وسرور :

— وهكذا كنت يوماً ما مولوداً سعيداً ، تلقفته الأيدى بالسرور ، وحاطته بالعناية والرحمة ، فهل تشكين بعد ذلك أنى كنت ملكا ؟

— أبداً يا مولانا . .

وأسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل ، فمضى قائلا :

— وكان مولدى يمنا وبركة أيضا . ذلك أن والدى كانا شحاذين محترفين ، وكانا يكتريان طفلا تحمله أمى فى أثناء تجوالهما . فلما أن رزقهما الله بى أغناهما عن أطفال الناس ، وفرحا بى فرحا عظيما .

فلم تملك حسنية أن ضحكت ضحكة مجلجلة ، فازداد حماسة وحرارة ، وقال مواصلا حديثه :

— آه من ذكريات طفولتى السعيدة ؛ لازلت أذكر مستراحى من الطوار . كنت أزحف على أربع حتى أبلغ حافة الطوار المطلة على الطريق ؛ وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة فى الأرض يركد فيها ماء من مطر أو رش أو دابة ، يتكتل الطين فى قمرها ، وعلى سطحها يغنى الذباب ، وعلى شطآنها تتجمع نفاضة الطريق . منظر ساحر يأخذ بالألباب . ماؤها مطين ، وساحلها زبالة متعددة ألوانها : قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب وطين ، والذباب يحوم حولها ويقع عليها ، فكنت أرفع جفنى المثقلين بالذباب ، وأسرح طرفى فى ذاك المصيف الطروب ، والدنيا لاتسعنى فرحا . .

فهتفت المعلمة ساخرة :

— يا بختك . . ياحظك . .

ولذه سرورها وإقبالها على حديثه ، فقال متشجعا :

— هذا سر ولعى بما يسمونه ظلما بالقاذورات ، والإنسان خليق بأن يألف أى شىء مهما شذ وغرب ، ولذلك أخاف عليك أن تألفى ذاك الحيوان .

— أتعود أيضا إلى هذا ؟ .

فقال وقد أعمته الشهوة وأصمته :

— طبعا . لا قبل لإنسان بإغفال الحق . .

— الظاهر أنك زهدت فى الدنيا . .

— لقد ذقت الرحمة مرة كما قلت لك فى المهد .

ثم أومأ بيده إلى المزبلة التى يسكنها واستدرك .

— وقلبى يحدثنى بأن لى حظا أن أذوقها مرة أخرى فى مأواى هذا .

وأومأ برأسه إلى الداخل كأنه يقول لها : « هلمى » فتميزت المرأة غيظا ، وأحنقتها جرأته ، فصاحت فى وجهه :

— حذار يا ابن الشيطان .

فقال بصوت متهدج :

— كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه ؟

— وإذا هشمت عظمك ؟

— من يعلم . . ربما أستلذ ذلك أيضا . .

ونهض الرجل بغتة ، وتراجع قليلا مقهقراً ؛ كان يظن أنه بلغ مناه ، وأن المعلمة أصبحت طوع يمينه ، وقد تلبسته حال جنونية جملته ينتفض انتفاضا . وثبتت عيناه على عينى المرأة فى ذهول وبهيمية . ثم مد يديه بغتة إلى طرف جلبابه وخلعه بسرعة فائقة ، وتجرد عاريا . وبهتت المعلمة لحظات ، ثم امتدت يدها إلى كوز غير بعيد ، وقذفته به بسرعة وقوة ، فأصاب بطنه ، وندت عنه آهة كالخوار ، وسقط يتلوى ...

١٧

كان السيد سليم علوان جالسا كعادته إلى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لابتياع بعض اللوازم . وكان الرجل يستقبلها إذا جاءته بلطف ، ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك ، فدعاها إلى الجلوس على كرسى قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة . ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له . والحق أن هذا العطف لم يكن

ارتجالا ، ولكن السيد كان قد نوى أمراً لا رجوع فيه لأنه من العسير أن يعيش الإنسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقر له قرار . وقد ساءه كثيراً أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التى تستوجب الحلول ثم لا يجد الإرادة التى تحلها . فهؤلاء الأبناء لا يخفى عليه قلقهم ، وهذه الأموال المكدسة لا يدرى متى يتاح له استغلالها خصوصاً وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب ، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن ، وعلاقته بزوجه وهمه الناشىء من ذبول شبابها ونضوب حيويتها ، وأخيراً — وليس آخراً — هذه العاطفة التى يعانيها ويلقى من اضطرامها ما يلقى من أشواق وآلام . لبث بين هذه الهموم متحيراً ، ثم رأى أن يفض إحداها بعزم ورغبة ولكنه انساق فى الاختيار مع هواه وهو لا يدرى ، فارتأى أن يسكن هذه العاطفة المشئوم ، وتركز اهتمامه فى ذلك ، حتى لكأنه بالانتهاء منها إنما ينتهى من همومه جميعاً . ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب ، ولم يكن ليغيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها المزعوم مشكلات جديدة لا تقل خطراً عن سابقاتها . ولكنه الهوى . لقد غلبه الهوى على أمره ، وتسرب إلى أعماق نفسه فتشبعت به جذور تفكيره وإرادته ، وهانت عليه الصعاب التى كانت تعترض أحـــلامه ، وقال لنفسه متبرماً : « لقد انتهت زوجى كامرأة ، ولست من الرجال الذين ينزلقون إلى الفسق فى مثل هذه السن ، ولا داعى مطلقاً للرضا بالعذاب والغم . لقد يسر الله لنا فلماذا نعسر على أنفسنا ؟ ! » . وهكذا انتهى إلى رأى لا عدول عنه ، وأجمع على تحقيق رغبته . ولذلك دعا أم حميدة إلى الجلوس على كثب منه معتزماً مفاتحتها بالأمر الخطير . ولبث السيد متخوفاً من الكلام قليلا لا لأن تردداً ساوره ، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته المالية دفعة واحدة ويخلط نفسه بامرأة كأم حميدة . وتصادف فى تلك اللحظة أن دخل عامل حاملا صينية الفريك المشهورة ، فرأتها أم حميدة

وجرت على شفتيها شبه ابتسامة لم يفته ملاحظتها ، وابتهل هذه الفرصة ورأى أن يجملها فاتحة حديثه ، وتناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تنم عن السخط :

— لكم تكدرنى هذه الصينية !

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة :

— لماذا كفى الله الشر ؟

فقال السيد باللهجة نفسها :

— لكم تحدث لى من متاعب ..

فتساءلت المرأة وهى لا تدرى ما يعنيه :

- لماذا يا سيدنا البيك ؟

فقال السيد سليم بهدوء متشجعا بأنه يحادث خاطبة :

— لا يرضى عنها الطرف الآخر ..

فدهشت أم حميدة ، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الزقاق يوما على قطامة من هذه الصينية ، وما هى ذى امرأة زاهدة لا ترضى عنها ! وقالت المرأة لنفسها : « يعطى الحلقة لمن لا له أذنان . ثم غمغمت مبتسمة ، وبلا حياء :

— هذا شيء عجيب !!

فهز السيد رأسه متأسفاً . وكانت زوجه لا ترحب بالصينية من بادىء الأمر وهى بعد شابة فى ريعان الشباب . كانت ذات فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن الطبيعة ، ولكنها تحملت ما كانت تعده إرهاقاً إكراماً لزوجها النهم ، وإشفاقاً من تكدير صفوه . ومع ذلك لم تتردد عن نصحه بالعدول عن أمر فى المداومة عليه خطر وأى خطر على صحته . ولما أن تقدم بها العمر قل صبرها ، وتضاعف إحساسها بالأمر ، وبدا تذمرها صريحاً ؛ حتى كانت تهجر بيت الزوجية إلى بيوت أبنائها ، زيارة فى الظاهر وهربا فى الحقيقة . وضاق بها السيد ذرعا ، ورماها بالبرود والنضوب ، وتكدر صفوهما ، وتنغص عيشهما ، دون أن يعدل عن هواه ، أو يعطف على ضعفها الملموس .

وقد اتخذ نشوزها — هكذا دعاه — حجة له فى هواه وفيما يرتاد من حياة زوجية جديدة ! .

هز السيد رأسه متأسفاً وقال بلغة لا يخفى مرماها عن مثل أم حميدة :

— لقد أنذرتها بالزواج من أخرى . وإنى لفاعل بإذن الله . .

وثار اهتمام المرأة ، وتحركت غريزة العمل فى باطنها ، وحدجته بنظرة التاجر إلى زبون نادر الوجود ، ولكنها قالت بشىء من الارتياب :

لهذا الحد ياسى السيد ؟!

فقال الرجل باهتمام جدى :

— لقد انتظرتك طويلا ، وكنت على وشك أن أرسل فى طلبك فما رأيك ؟

فتنهدت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف . وقد قالت فيما بعد إنها ذهبت تبتاع حناء فعثرت على كنز . ثم نظرت إليه مبتسمة وقالت :

— ياسى السيد أنت رجل قد الدنيا ، ومثلك فى الرجال قليل ، وياحظ من تكون نصيبك ، وأنا رهن إشارتك ، فعندى البكر والثيب ، والشابة والنصف ، الغنية والفقيرة . اختر ما تشاء . .

وفتل السيد شاربيه الغليظين ، واعتراه شىء من الارتباك قليلا ، ثم مال نحوها ، وقال بصوت منخفض ، وعلى فمه ابتسامة :

— لا داعى للبحث والتعب . إن من أريد فى بيتك أنت !

واتسعت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعى :

— فى بيتى أنا !!

فقال السيد وقد سرته دهشة المرأة :

— أجل فى بيتك أنت دون سواك . ومن لحمك ودمك . أعنى كريمتك حميدة . . !

ولم تصدق المرأة أذنيها ، وتولاها الذهول . أجل كانت تعلم — عن طريق حميدة نفسها — أن السيد يتبعها أينما ذهبت عينين براقتين ، ولكن

الإعجاب شيء والزواج شيء آخر . فمن عسى أن يصدق أن السيد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة ؟ ! . وقالت المرأة بصوت مضطرب :

— لسنا قد المقام ياسى السيد ! .

فقال الرجل برقة :

— إنك سيدة طيبة ، وقد أعجبتني كريمتك وكفى . ألا يكون الناس أهلا للخير إلا إذا كانوا أغنياء ؟ وما حاجتي المال وعندى منه ما فوق الكفاية ! .

وأصغت إليه والدهشة لا تفارقها . ثم ذكرت فجأة أمراً غاب عنها حتى هذه اللحظة . ذكرت أن حميدة مخطوبة ، وقد ندت عنها « آهة » كالمنزعجة ، حملت السيد على أن يسألها قائلا :

— ما لك ؟ .

فقالت المرأة باضطراب :

— رباه ، نسيت ياسى السيد أن أقول لك إن حميدة مخطوبة ! . خطبها عباس الحلو قبل سفره إلى التل الكبير . . . !

فانكفأ وجه الرجل ، واصفر وجهه غضباً ، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قذرة :

— عباس الحلو . . !

فقالت المرأة بعجلة ولهوجة :

— رباه لقد قرأنا الفاتحة .

فقطب السيد سليم قائلا في غضب وازدراء :

— ذاك الحلاق الشحاذ . .

فقالت أم حميدة كالمعتذرة :

— قال إنه سيشتغل في الجيش ، ليجمع ثروة ، وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة ...

وازداد غضب السيد لانزلاقه بغتة — مع الحلو — إلى مضمار واحد ، وقال بحدة :

— أيحسب هذا الأحمق أن الجيش نعيم يدوم ! ولكنى أعجب لما جعلك تذكرين هذه « الحكاية » !

فقالت المرأة معتذرة :

— لقد ذكرتها فجأة ، هذا كل ما فى الأمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، ولذلك لم يكن لدى حيلة فى رفض يده ! لا تؤاخذنى ياسى السيد . إن مثلك إذا طلب أمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، فلا تؤاخذنى . سأذهب الآن وأعود إليك فى الحال : لا تغضب على ، لماذا غضبت هكذا ؟

وبسط السيد وجهه . وذكر أنه غضب حقاً أكثر مما ينبغى ، كأنما الحلو هو المعتدى لا المعتدى عليه . ولكنه قال :

— ألا يحق لى أن أغضب ؟ .

ثم توقف بغتة كأنه تذكر أمراً اربد له وجهه وسألها منزعجاً :

— وهل وافقت الفتاة ؟ أعنى هل تريده ؟

فقالت المرأة بسرعة :

— لا شأن لابنتى بهذا الأمر ! وما حدث لا يعدو أن جاءنى الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة .

فقال السيد:

— غريب والله أمر هؤلاء الشبان ! لا يكاد يجد الواحد منهم لقمته ، ولكنه لا يجد بأساً من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة أولاداً يلتقطون رزقهم من الزبالة . لننس هذه الحكاية .

— نعم الرأى ياسى السيد . . سأذهب الآن ، وسأعود دون إبطاء ، وربنا المستعان .

ونهضت المرأة واقفة ، وانحنت على يده مسلمة ، ثم تناولت لفافة الحناء ، وكان العامل قد وضعها على المكتب ، ومضت إلى حال سبيلها . .

ولبث السيد متغيراً ، متجهم الوجه ، تنطق نظرة عينيه الحادة بالنرفزة والغضب . أولى الخطى عثار ! . حلاق قذر لا يساوى مليما ، ومع ذلك فهو يزحمه فى حلبة واحدة . وبصق على الأرض بازدراء كأنما البصقة هى الحلو نفسه . وخال أنه يسمع طنين المرجفين إذ يخوضون فى هذا الأمر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية . ستقول زوجه إنه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمدق ! . أجل ستقول زوجه وتميد ، وسيقول الناس ويتفننون فى القول ، وسيتناهى ذلك كله إلى أبنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه . تفكر فى ذلك جميعه ، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال ، فقد انتهت المعركة قبل اليوم ، ومد يده بالفعل ، وتوكل على الله . ومضى يفتل شاربه بأناة ، ويهز رأسه استهانة ، وقد ملكت الرغبة الجامحة عليه نفسه ، وهونت عليه القيل والقال . وهل كف الناس عنه ألسنتهم من قبل ؟ . ألم يجعلوا من صينية الفريك أسطورة يتناقلونها ؟ . فليقولوا ما بدا لهم ، وليفعل ما بدا له ، وسيظل بلا ريب سيد الجميع الذى يشق سبيله بين هامات متطامنة . أما أسرته فثروته كفيلة بإرضاء أفرادها جميعاً ، ولن يسلبهم زواجه الجديد أكثر مما كانت تسلبهم إياه رتبة البكوية فيما لو سعى إليها : وانفثأ غضبه ، وانبسطت أساريره ، وارتاح إلى تفكيره ارتياحاً عظيما . ينبغى أن يذكر دائما أنه إنسان من لحم ودم ، وإلا أغفل حق نفسه ، وقدمها لقمة سائغة للهموم تزدردها . ماجدوى ثروته الطائلة إذا ذهبت نفسه حسرات على رغبة تحقيقها بيده؟ ! أو ترك قلبه يحترق بالشوق إلى جسد بشرى رهن إشارة منه ؟ !

١٨

ومضت أم حميدة مهرولة إلى شقتها ، وفى هذا الشوط القصير — ما بين الوكالة والشقة — تملى خيالها بأحلام عراض . ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمشط شعرها ، فتفحصتها بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة ، أو كأنها تعاين الأنثى التى خبلت رجلا له وقار السيد سليم علوان وسنه وثروته . ووجدت المرأة عاطفة تشبه الحسد . كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها نصفه ، وأن كل نعيم ستذوقه ستحظى هى بنصيبها الموفور منه ، ومع ذلك لم تخل من هذا الإحساس الغريب الذى خالط سرورها وأطماعها ! وقالت لنفسها « أكان القدر حقا يدخر هذه السعادة لهذه الفتاة التى لا تعرف لنفسها أبا ولا أما ! » وتساءلت فى عجب « ألم يسمع السيد صوتها الخيف وهى تزعق فى وجوه الجيران ؟ ألم يشهد معركة من معاركها ؟ ياويل الرجال من لحم النساء ! » ثم قالت لها دون أن تحول عنها عينيها :

— مولودة فى ليلة القدر والحسين !

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع ، وسألتها ضاحكة :

— لم ؟ . ماذا وراءك ؟ . هل من جديد ؟ !

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبة ، ثم قالت بهدوء وهى تتفرس وجهها لتمتحن أثر كلامها فيه :

— عروس جديد !

فلاح فى العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطها دهشة ، وتساءلت الفتاة :

— أتقولين حقا ؟

— عروس كبير المقام ، يتمنع عن الأحلام يا بنت الكلب . .

فخفق قلب حميده بقوة ، وتألقت عيناها حتى بدا حورهما ساطعا وتساءلت :

— من عساه يكون ؟

— خمنى ؟ !

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون:

— من ؟

فقالت أم حميدة وهى تهز رأسها وترعش حاجبيها :

— السيد سليم علوان على « سن ورمح » !

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنفذ أسنانه فى راحتها ، وهتفت :

— سليم علوان صاحب الوكالة ؟ !

— صاحب الوكالة ، وصاحب الأموال التى لا يفنيها المحيط !

فأضاء وجه الفتاة نوراً ، وغمغمت وهى لا تدرى من الدهشة والسرور :

— ياخبر اسود !

— يا خبر أبيض ، ياخبر مثل اللبن والقشدة . لم أكن لأصدق لولا أنه حادثنى بنفسه .

وغرزت الفتاة المشط فى شعرها ، وهرعت إلى أمها وارتمت إلى جانبها ، وسألتها وهى تشد على كتفها :

— ماذا قال لك ؟ خبرينى بكل ما قال كلمة . كلمة .

وأنصتت إلى المرأة بانتباه عميق وهى تروى قصتها . وخفق قلبها خفقانا متواصلا ، وتورد وجهها ، وتألقت عيناها بشراً وسروراً . هذه هى الثروة التى تحلم بها ، هذا هو الجاه الذى تهيم به . وإنها من حب الجاه لفى مرض ، وإن الشغف بالقوة لغريزة جائمة فى باطنها ، فهل يتاح لها شفاء أو ارتواء إلا بالثروة ؟ ! لم تكن تدرى دواء لهذا التشوف الأليم يضطرم فى أعماقها إلا الثراء الكبير ، فهو الجاه العريض ، وهو القوة الشاملة ، وهو بالتالى السعادة الكاملة . كانت فى سرورها المباغت كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة فى أشد المواقف حرجا . كانت كطائر مقصوص الجناحين يسف فى يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة ثم ينبت له ريش بمعجزة

تدق على الأفهام فيبدله من محاولاته الفاشلة تحليقا يسمو به إلى قنن الجبال .
وكانت أمها تنظر إليها بلحظ خفى فسألتها :

— ماذا ترين ؟

لم تدر أم حميدة ماذا تقول ، ولكنها كانت مشمرة للمعارضة أيا كان رأى الفتاة .
فإذا قالت السيد قالت والحلو ؟ ، وإذا قالت الحلو قالت أو نفرط فى السيد ! .
أما حميدة فقالت بإنكار شديد :

— ماذا أرى ؟ !

— أجل ماذا ترين ، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه ، أنسيت أنك مخطوبة ؟ ! .. وأنى قرأت الفاتحة مع الحلو ؟

فلاحت فى عينى الفتاة نظرة حادة غشت جمالها ، وقالت فى انزعاج وازدراء :

— الحلو ! !

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة فى البت فى مثل هذا الأمر الخطير ، وكأن الحلو لم يكن قط ، وعاودها شعورها القديم بأن ابنتها فتاة شاذة مخيفة ، والحق أن المرأة لم يداخلها شك جدى فى النهاية المحتومة ، ولكنها كانت تريد أن تبلغها بعد لأى .
كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطوع هى إلى اقناعها بالقبول ، لا أن تلفظ اسم الحلو بمثل هذا الازدراء الغريب . واستدركت تقول بلهجة تنم عن الانتقاد :

— أجل الحلو ، أنسيت أنه خطيبك ؟ !

كلا لم تنس ، ولكن سيان التذكر والنسيان ، ترى هل تعترض أمها حقا ؟ .
وحدجتها بنظرة نافذة ، فأيقنت أنها كاذبة فى انتقادها ، وهزت منكبيها استهانة ، وقالت باستخفاف واحتقار :

— ذبحة . . .

— ماذا يقول الناس عنا ؟

— دعهم يقولون ما بدا لهم . .

— سأستشير السيد رضوان الحسينى .

فجفلت الفتاة من هذا الاسم واعترضت قائلة :

— ما شأنه فى أمر يخصنى وحدى ؟

— نحن أسرة لا رجل لها ، فهو رجلنا . . .

ولم تطق المرأة انتظاراً فنهضت واقفة ، وتلفعت بملاءتها ، وغادرت الحجرة وهى تقول « سأشاوره وأعود تواً » . وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ . ثم تنبهت إلى أنها لم تتم تمشيط شعرها ، فمضت تمشطه بحركات آلية وعيناها شاخصتان إلى دنيا الأحلام الزاهرة . ثم نهضت دالفة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها إلى الوكالة الكبرى ساعة ، وعادت إلى جلستها .

لم يكن تحولها عن عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنت أمها ، أجل لقد حسبت حيناً أنها وصلت — راضية — أسبابها بأسبابه إلى الأبد ، فمنحته شفتيها يقبلهما بما أوتى من شغف وحب ، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلهما معاً ، ووعدته أن تزور الحسين لتدعو له ، وزارته بالفعل ودعت له — ولم تكن تزوره إلا لتستدعيه على عدوة عقب شجار — وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة ، وفضلا عن ذلك فقد رفعها الحلو من مجرد بنت إلى فتاة مخطوبة ، فلم يعد فى وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامتة « أحلق هذا لو خطبك إنسان » . بيد أنها كانت تنام على فوهة بركان . ولم تذق من بادىء الأمر الطمأنينة الكاملة ، ووجدت فى النفس شيئاً يضطرب يرتاد متنفساً . حقاً لوح عباس الحلو لطموحها المنيف ببعض الزاد ، ولكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذى تريد ، ولقد حيرها أمره مذ أول لقاء . ولم تكن تدرى كيف يكون رجلها على وجه التحقيق ، ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أية حال . ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة ، فجعلت تقول لعل المعاشرة تهيىء لها حياة لم تكن تحلم بها قط . ثم لم تكف عن التفكير ، والتفكير فضيلة ذات حدين ، فتساءلت ترى ما هذه السعادة التى يمنيها بها ؟ ألا تكون مثالية فى أحلامها ؟ يقول الفتى إنه سيعود بثروة ، وأنه سيفتح صالوناً

فى الموسكى ، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة ؟ وهل هذا حقاً ما تطمح إليه نفسها المجنونة ؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها ، وقوى شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق ، وباتت تدرك أن نفورها منه أشد من أن تلطفه المباشرة . ولكن ما عسى أن تفعل ؟ ألم ترتبط به إلى الأبد . . رباه ، لماذا لم تتعلم حرفة كأولئك الفتيات من صويحباتها ؟ أما لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء ، أو لما تزوجت على الإطلاق ! وأخذ حماستها تفتر ، وشعورها يخمد ، وعادت إلى ما كانت عليه قبل أن تهزها المقابلات وتغرها الآمال . هكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها ، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد ، ولكن بعد أن كانت نبذته فى قلبها منذ أمد طويل . . .

ولم يطل المطال بغياب الأم ، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تلوح فيه إمارات الجد ، وقالت وهى تخلع ملاءتها :

— لم يوافق السيد أبداً . .

ثم قصت عليها ما دار بينها وبين السيد رضوان ، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين إن الحلو شاب والسيد سليم شيخ ، وإن الحلو من طبقتها والسيد من طبقة أخرى ، وإن زواج رجل كالسيد من فتاة مثل ابنتها لابد يحدث متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض رشاشها . وكيف ختم حديثه بقوله « الحلو شاب طيب وقد هاجر فى سبيل الرزق طامحاً لهذا الزواج ، فهو رجلها المفضل ، وما عليك إلا أن تنتظرى فإذا عاد خائباً لا قدر الله كان من حقك بلا جدال أن تزوجيها ممن تختارين » .

وأصغت الفتاة إليها والشرر يتطاير من عينيها ، ثم صاحت بصوت جاف فضح الغضب قبحه :

— السيد رضوان ولى من أولياء الله ، أو هـذا ما يحب أن يتظاهر به أمام الناس ، فإذا قال رأيا لم يبال مصلحة الناس فى سبيل اكتساب الأولياء أمثاله ، فسعادتى أنا لا تهمه فى كثير أو قليل ، ولعله تأثر بقراءة

الفاتحة كما ينبغى لرجل يرسل لحيته مترين ، فلا تسألى السيد عن زواجى وسليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة . . ! أما والله لو كان طيباً كما تزعمون لما رزأه الله فى أبنائه جميعا . . !

وارتاعت المرأة ، وقالت لها بإنكار وألم :

— أهذا كلام يقال عن أكرم الناس وأفضلهم ؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد أنذرت حالها بشر مستطير :

— هو فاضل إن أردت . وولى من أولياء الله إن شئت ، ونبى أيضاً إن أحببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة فى سبيل سعادتى . .

وتألمت المرأة للإهانة التى لحقت السيد ، لا دفاعا من رأيه الذى كانت لا توافق عليه فى باطنها ، ومع ذلك قالت مدفوعة برغبة فى إغاظة الفتاة والانتقام من سوء خلقها :

— ولكنك مخطوبة . .

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

— إن الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه إلا كلام وصينية بسبوسة . . !

— والفاتحة ؟

— المسامح كريم . . .

— الفاتحة ذنبها كبير .

فصاحت باستهانة :

— بليها واشربى ماءها !

فضربت المرأة صدرها وقالت :

— آه يا بنت الثعبان !

ولاحظت حميدة بوادر الإذعان تلوح فى عينى أمها ، فقالت ضاحكة :

— تزوجيه أنت . . .

فضربت المرأة كفاً بكف وهى تغالب الضحك ، ثم قالت بسخرية :

— من حقك أن تبيعى صينية البسبوسة بصينية الفريك . . .

فنظرت إليها بتحد وقالت بغيظ :

— بل رفضت شاباً واخترت شيخاً . . .

فضحكت أم حميـدة ضحكة مجلجلة وتمتمت « الدهن فى العتاق » ، وتربعت على الـكنبة فى سرور وقد تناست معارضتها الـكاذبة ، واستخرجت سيجارة من علبة سجائرها وأشعلتها ، وراحت تدخن بلذة لم تشعر بمثلها من زمن بعيد ، فنظرت حميدة إليها بغيظ وقالت :

— تالله لقد فرحت بالعروس الجديد أضعاف سرورى ، ولـكنها المـكابرة والمعاندة والرغبة فى إغاظتى سامحك الله . . .

فحدجتها أمها بنظرة عميقة ، وقالت بلهجة ذات معنى :

— إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة ، فهو فى الواقع إنما يتزوج من أهلها جميعا ، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد ، أفهمت ؟ . . أم تحسبين أن تزفى إلى قصرك الجديد وأبقى أنا ها هنا تحت رحمة الست سنية عفيفى وأمثالها من المحسنين ؟! . .

فقهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها ، وقالت بكبرياء مصطنع :

— تحت رحمة الست سنية عفيفى ، والست حميدة هانم . . .

— طبعا . . طبعا يالقيطة الطوار ، يا ابنة المجهول . . .

فاسترسلت الفتاة فى ضحكها وقالت :

— مجهول مجهول . . كم من أب معروف لا يساوى شيئا . . !

***

وعند ضحى الغد ذهبت أم حميدة إلى الوكالة سعيدة رخية البال ، لتقرأ الفاتحة مرة أخرى ، ولـكنها لم تجد السيد سليم بمجلسه المعهود ، واستعلمت عنه ، فقيل لها إنه تخلف عن الحضور اليوم ، فرجعت إلى البيت غير مرتاحة وقد تولاها الجزع . ولما أن انتصف النهار ذاع نبأ فى الزقاق بأن السيد سليم علوان أصـيب ليلة أمس بذبحة صـدرية ، وأنه راقد فى فراشه بين الحيـاة

والموت ! وقد عم الأسف الزقاق كله ، أما بيت أم حميدة فقد سقط عليه النبأ كأنه الصاعقة . . .

١٩

واستيقظ الزقاق ذات صباح على صخب وضوضاء . ورأى أهله رجالا يقيمون سرادقاً على أرض خراب بالصنادقية فيما يواجه زقاق المدق . وانزعج عم كامل وظنه سرادق ميت فهتف بصوته الرفيع « إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فتاح يا عليم يا رب » ونادى غلاما من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفى ، ولـكن الغلام قال له ضاحكا :

— ليس السرادق لميت ، ولـكنها حفلة انتخابية !

فهز عم كامل رأسه وغمغم « سعد وعدلى مرة أخرى ! » وكان الرجل لا يدرى شيئاً على الإطلاق عن عالم السياسة ، إن هو إلا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى . أجل إنه يعلق فى صدر محله صورة كبرى لمصطفى النحاس ، ولـكن كان ذلك لأن عباس الحلو ابتاع يوما صورتين للزعيم ثبت إحداهما فى الصالون وأهدى الأخرى لصاحبه ، ولم ير الرجل فى تثبيتها بدكانه من بأس ، خصوصاً وأنه يعلم أن هـذه الصورة وأمثالها من تقاليد الدكاكين ؟ ففى دكان الطعمية بالصنادقية صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وفى قهوة كرشة صورة للخديوى عباس . وراح الرجل يرمق العمال العاكفين على عملهم بإنكار وقد توقع يوما صاخبا مرهقا . ومضى السرادق يتكون جزءاً جزءاً ، فنصبت الأعمدة ، ووصلت بالطنب ومدت عليها الستائر ، وفرشت الأرض بالرمل ، وصفت المقاعد على جانبى ممر ضيق يفضى إلى مسرح أقيم فى الداخل عاليا ، وركبت مكبرات الصوت على مفارق الطرق ما بين الحسين والغورية ، وأجمل من هـذا كله أن ترك مدخل السرادق بلا حاجز من ستار أو ظلة مما بشر أهل المدق بأنهم

سيشاركون فى الحفلة من منازلهم ، وفى أعلى المسرح علقت صورة كبرى لرئيس الحكومة ، وألصقت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذى تعرفه أكثرية أهل الحى لأنه كان تاجراً بالنحاسين. ودار فتيان بإعلانات وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سطر عليها بألوان زاهية :

انتخبوا نائبكم الحر ابراهيم فرحات

على مبادىء سعد الأصلية

زهق عهد الظلم والعرى

وجاء عهد العدل والكساء

وأرادوا أن يلصقوا إعلاناً بدكان عم كامل ، ولكن الرجل الذى ترك غياب عباس الحلو فى نفسه أسوأ الأثر تصدى لهم ساخطاً وهو يقول :

— ليس هنا يا أولاد الحلال ، هذا شؤم يقطع الرزق . .

فقال له أحدهم ضاحكا :

— بل تجلب الرزق . وإذا رآها حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة ، وأعطاك الثمن مضاعفاً وعليه قبلة .

وانتهى العمل عند منتصف النهار، وعاود المكان هدوءه المعهود ، واستمر هذا حتى العصر حين جاء السيد إبراهيم فرحات فى هالة من حاشيته ليعاين الأمور بنفسه ، وكان الرجل لا يقبض يده عن الإنفاق، إلا أنه كان كذلك تاجراً لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتى لا يجوز عليه مالا ينبغى أن يجوز . وقد تقدم القوم بجسمه البدين القصير ، يرفل فى جبته وقفطانه ، ويقلب فيما حوله وجهاً أسمر كروياً ذا عينين ساذجتين . كانت مشيته تنم عن الزهو والثقة ، وعيناه تنطقان بالطيبة والسذاجة، ومظهره عامة يشى بأن بطنه أهم كثيراً من رأسه . وقد أحدث ظهوره اهتماماً كبيراً فى الزقاق وما يحيط به ، لأنهم اعتبروه عروس الليلة ،و أملوا من وراء « زفته » خيراً كثيراً ، خصوصاً وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التى دهمتهم فى الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتزكية ! . ثم جاءت

على أثره جماعات من الغلمـان تسير وراء أفندى مرددة هتافات عالية ، كان يصيح بصوت كالرعد « من نائبنا ؟ » . . فيجيبونه بصوت واحد « إبراهيم فرحات » فيهتف ثانية «من ابن الدائرة؟ ». فيهتفون « إبراهيم فرحات » وهكذا ، وهكذا ، حتى امتلأ بهم الطريق ، وتسرب منهم كثيرون إلى السرادق . وجعل المرشح يرد الهتافات برفع يديه إلى رأسـه ، ثم اتجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلها من رافعى الأثقال بنادى الدراسة الرياضى . واقترب من الحلاق المحجوز الذى حل محل الحلو ومد له يده وهو يقول « السلام عليك يا أخا العرب » . فانحنى الرجل على يده فى استحياء وترحيب ، وتحول عنه إلى عم كامل قائلا : « لا تتجشم مشقة النهوض ، حلفتك بالحسين إلا ما لزمت مكانك . كيف حالك . . الله أكبر . . الله أكبر ، هذه بسبوسة فريدة ، وسيعرف الناس جميعاً قدرها هذه الليلة » . . وتقدم مسلماً على كل من لاقاه ، حتى انتهى إلى قهوة كرشة ، فحيا المعلم ، وجلس ودعا رفاقه للجلوس ، واستبق إلى القهوة كثيرون حتى جعدة الفران وزيطة صانع العاهات . وردد المرشح نظره بين الحاضرين فى سرور ، ثم قال مخاطبـاً المعلم كرشة :

— قدم الشاى للجميع . .

وابتسم تحية لـكلمات الشكر التى تناثرت عليه من كل حدب وصوب ثم التفت صوب المعلم قائلا :

— أرجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاجه السرادق من الطلبات . .

فقال المعلم كرشه بشىء من الفتور :

— نحن فى الخدمة ياسى السيد . .

ولم يغب عن المرشح فتوره ، فقال برقة :

— نحن جميعاً أبناء حى واحد ، وكلنا إخوان . . !

والحق أن السيد فرحات جاء القهوة خصيصاً لاسـترضـاء المعلم كرشة ، ذلك أنه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليستميله إلى جانبـه فيضمن صوته

وأصوات من يلوذ به من المعلمين وعمالهم ، وقدم له خمسة عشر جنيها مقدم أتعاب ولكن المعلم كرشة أبى أن يمسها محتجا بأنه ليس دون الفوال — صاحب قهوة الدراسة والذى ذاع أنه أخذ عشرين جنيها — منزلة ، وما زال به حتى حمله على قبول المبلغ واعداً إياه بالمزيد ، ثم افترقا والسيد مشفق من انقلاب المعلم عليه :

والواقع أن المعلم كرشة لم يخل من غضب على « محدث السياسة » هذا على حد قوله ، وأضمر له شر النوايا إذا هو لم يبادر إلى إصلاح خطئه . وكان المعلم كرشة يتيقظ — على غلبة الذهول عليه — فى المواسم السياسية . وقد اكتسب فى شبابه شهرة فى عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك فى الأمور الأخرى ! فاشترك فى ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذى التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من أبطال المعارك المنيفة التى دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرمن واليهود من ناحية أخرى . ولما أن خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديداً على ضيقه لنشاطه وحماسته ، فبذل فى انتخابات سنة ١٩٢٤ جهداً مشكوراً ، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ — ولو أنه قيل وقتذاك إنه قبل رشوة مرشح الحكومة ولكنه أعطى صوته لمرشح الوفد — وأراد أن يلعب الدور نفسه فى انتخابات صدقى — فيأخذ النقود ويقاطع الانتخابات — ولكن عيون الحكومة راقبته يوم المعركة ، وحملته مع غيره فى لورى إلى مركز الانتخاب فخرج على إرادة الوفد مرغما لأول مرة . وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة ، فطلقها بعد ذلك وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، وانقلب نصيراً لمن « يدفع أكثر » . وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلا إنه إذا كان المال غاية المتنابذين فى ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناخبين المساكين ! وفضلا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه ، وغلبه الذهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق فى روحه

من الثورة القديمة إلا ذكرى غامضة ربما كر إليها الخيال فأشاد بها متباهياً في بعض ساعات الصفاء حول المجمرة ، ولكنه نبذ في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة ، ولم يعد يعبأ شيئاً من بعد ذلك إلا « الكيف » و « الهوى » ، وما عدا ذلك « إردم » على حد قوله . لم يعد يكره أحداً ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم . ولم يعد يحب أحداً كذلك ، ولذلك كان من العجيب حقاً أن تدب فيه حماسة مفاجئة في هذه الحرب فيتعصب للألمان ، وأن يتساءل — في هذه الأيام خاصة — عن موقف هتلر ، أحقيقة قد أصبح مهدداً ، وألا يحمل بالروس أن يسارعوا شاكرين لقبول مايعرض عليهم من صلح منفرد ؟! . ولكن إعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يذيع عن بأسه وبطشه ليس إلا ، فكان يعده شيخ فتوات الدنيا ، ويتمنى له النصر كما تمناه طويلا لعنترة وأبي زيد . بيد أنه ظل محافظاً على خطره في ميدان الانتخابات ، لأنه كان زعيم المساطيل الذين يتحلقون مجمرته كل ليلة ومن يتبعهم من فعلة وصبيان وبطالات ، ولذلك حرص السيد إبراهيم فرحات على استرضائه ، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها في قهوته متودداً مستعطفا .

وكان يسترق إليه النظر ، فمال على أذنه وسأله بصوت خافت :

— أراض أنت يا معلم ؟

فتدلت شفته عن ابتسامة ، وقال في شيء من التحفظ :

— الحمد لله ، أنت الخير والبركة ياسي السيد . .

فهمس في أذنه :

— سأعوضك عما فاتك خيراً كثيراً . .

وانبسطت أساريره وهو يقلب عينيه في وجوه الحاضرين ، ثم قال برقة ورجاء :

— إن شاء الله لن تخيبوا لنا أملا . .

فتعالت الأصوات في وقت واحد تقول :

— معاذ الله يا سيد فرحات . أنت ابن خطنا . .

فابتسم الرجل مطمئنا وأنشأ يقول :

— إنى كما تعلمون مستقل ، ولكنى أستظل بمبادىء سعد الحقيقية . وماذا أفدنا من الأحزاب ؟ ألا تسمعون مهاتراتهم ؟ إنهم مثل (كاد يقول أبناء الحوارى ، ثم ذكر أنه يخاطب بعضاً من هؤلاء الأبناء فتدارك نفسه قائلا) : دعونا من ضرب الأمثال . لقد اخترت الاستقلال عن الأحزاب حتى لا يمنعنى مانع من قول الحق ، ولن أكون عبداً لوزير أو زعيم ، وسأذكر فى البرلمان إذا وفقنا الله للنجاح أننى إنما أتكلم باسم أبناء المدق والغورية والصنادقية ولقد ولى عهد الثرثرة والنفاق ، وها كم عهداً لا يشغله شيء عن أموركم العاجلة ، كزيادة الأقمشة الشعبية والسكر ، والكيروسين ، والزيت ، وعـــدم خلط الرغيف ، وتخفيض أسعار اللحوم . .

وسأله سائل باهتمام شديد :

— هل حقاً تتوفر هذه الضروريات غداً ؟

فقال الرجل بثقة ويقين :

— بغير جدال . وهذا سر الانقلاب الحاضر . كنت أمس أزور رئيس الحكومة (ثم ذكر أنه قال إنه مستقل فاستدرج قائلا) وهو يستقبل المرشحين على اختلاف ألوانهم ، فأكد لنا أن عهده هو عهد الكساء والغذاء .

وازدرد ريقه ، ثم استطرد :

— سترون العجب العجاب . ولا تنسوا الحلوان إذا فزت فى الانتخابات .

فسأله الدكتور بوشى :

— الحلوان بعد ظهور النتيجة ؟

فالتفت السيد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق :

— وقبل ظهور النتيجة أيضاً .

فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال :

— كالصداق له مقدم ومؤخر · إلا أنت يا ست الستات فلا صداق لك ، لأن حبك روحى من السماء .

فتحول السيد إلى الشيخ منزعجاً ، ولكنه سرعان ما أدرك حين وقع بصره على زيه — الجلباب ورباط الرقبة والنظارة الذهبية — أنه من أولياء الله الصالحين . فارتسمت ابتسامة على وجهه الكروى وقال برقة :

— أهلا وسهلا بسيدنا الشيخ . ·

ولكن الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق فى ذهوله · ثم انبرى أحد تابعى المرشح قائلا :

— لكم ما تريدون ، ولنا القسم بكتاب الله ، وبالطلاق . .

فقال أكثر من صوت :

— وجب . . .

وأخذ السيد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية ، ولما أن سأل عم كامل أجابه :

— ليس لى تذكرة ، ولم أشترك فى أى انتخاب على الإطلاق . .

فسأله المرشح :

— أين مسقط رأسك :

فقال بغير مبالاة :

— لا أدرى . . .

وضج الجلوس بالضحك ، وشاركهم السيد فرحات ، ولكنه غمغم دون يأس :

— سأسوى هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة .

وجاء فتى بجلباب ، حاملا مجموعة من الإعلانات الصغيرة ، فانتهز فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرق فيهم إعلاناته ، وظن كثيرون أنها

إعلانات انتخابية ، فأقبلوا عليها باحتفال مجاملة للسيد المرشح ، وتناول السيد فرحات إعلانا وقرأه فاذا فيه :

« حياتك الزوجية ينقصها شيء .

عليك باستعمال عنبر السنطورى .

عنبر السنطورى

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة ومحلل بمعرفة وزارة الصحة رقم ١٢٨ وهو منعنش ومفرفش ويعيدك من الشيخوخة إلى الصبا فى فى خمسين دقيقة .

طريقة الاستعمال :

خذ منه قدر القمحة على كباية شاى حلو كثير ، فتجد عندك النشاط . ومقدار ربع الحق دفعة واحدة أقوى من جميع المكيفات ، يسرى فى العروق كالتيار الكهربائى ، اطلب علبة عينة من موزع الإعلان ، الثمن ٣٠ مليما يا بلاش .

سعادتك بـ ٣٠ مليما ، والمحل مستعد للاستماع لملاحظات الجمهور » .

وضج المكان بالضحك مرة أخرى ، وارتبك المرشح قليلا ؛ وتطوع أحد بطانته بالتسرية عنه فصاح :

— هذا فأل حسن .

ثم مال على أذنه وهمس قائلا :

— هلم بنا ، أمامنا أحياء وأحياء .

فنهض الرجل وهو يقول :

— نستودعكم الله ، إلى لقاء قريب إن شاء الله ، اللهم حقق الآمال .

وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهم بمغادرة القهوة :

— يا سيدنا الشيخ ادع لى .

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلا وقد بسط ذراعيه :

— الله يخرب بيتك . . !

وما آذنت الشمس بالمغيب حتى كان السرادق قد ضاق عن القاصدين . وتناقل الحاضرون أن سياسياً كبيراً سيلقى خطاباً هاماً . وذاع أن شعراء وزجالين سيتبارون على المسرح . ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارىء وتلا ماتيسر من الذكر الحكيم . وأعقبته فرقة موسيقية من شيوخ مهدمين مهلهلي الثياب فعزفوا النشيد الوطنى ، وكان لإذاعة المكبرات لموسيقاهم أثر واضح فى دعوة الغلمان والصبية من الأزقة والحوارى حتى سووا الصنادقية سدا . وتعالى الهتاف والضوضاء . وانتهى النشيد دون أن يبرح رجال الفرقة أماكنهم ، حتى ظن أن الخطباء سيلقون خطبهم على أنغام الموسيقى . ثم كانت المفاجأة السارة إذ دق بعضهم أرض المسرح حتى شمل الصمت الجمع المحتشد ، ثم بدأ مونولوجست معروف فى لباسه البلدى ، فما كادت تراه الأعين المحدقة حتى جن جنونهم فرحا وسرورا ، وراحوا يهللون ويصفقون ، وقال المونولوجست وتفنن . ورقصت امرأة شبه عارية وهى تهتف المرة تلو المرة . « السيد إبراهيم فرحات . . ألف مرة » . ألف مرة » . وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح فى المذياع (السيد إبراهيم فرحات أحسن نائب . . ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون) . واتصل الغناء بالرقص والهتاف ، وانقلب الحى جميعاً إلى مولد .

ولما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة فى إبان ازدهارها وسرورها . وكانت تظن كأهل الزقاق كافة أنها ستكون حفله هتاف وخطب (بالنحو) على حد تعبيرهم . وما إن رأت المنظر البهيج حتى شملها السرور وتلفتت عنة ويسرة باحثة عن مكان تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التى نادراً ماترى مثلها فى حياتها . ومضت تشق طريقها بصعوبة بين الغلمان والبنات حتى بلغت مدخل المدق ، واقتربت من جدار الصالون ، وارتقت حجرا منغرسا لصق الحائط ، وتطلعت باهتمام وسرور إلى السرادق .

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كل جانب ، ووقفت نسوة كثيرات يقبضن على أيدى أطفالهن أو يحملنهن على أكتافهن . واختلط الغناء

بالهتاف بالحديث بالصياح بالضحك بالعويل . واستولى المنظر الخلاب على لبها فانجذبت روحها إليه ، والتمع السرور فى عينيها الفاتنتين ، وفمها المفتر عن ابتسامة لؤلؤية . وكانت متلفعة بملاءتها فلا يبدو منها إلا وجهها البرنزى ، وأسفل ساقيها ، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدم شعرها الفاحم . ورقص قلبها سروراً ، وتنبهت حواسها جميعاً ، وجرى دمها حاراً دافقاً . سرها المونولوجست سروراً لم تشعر بمثله من قبل ، حتى شعورها المر القارص نحو الراقصة لم يستطع أن يفسده عليها . وظلت مستغرقة فيما ترى غير ملقية بالا إلى هبوط الظلام حتى أحست شيئاً ما يجذب عينيها نحو اليسار . كأنه نداء يدعو حواسها إليه ، أو ذاك الشعور الذى يقلقنا إذا أحدقت فينا عينان . ولبثت على رغمها فتحولت عن المونولوجست عاطفة رأسها إلى يسارها فالتقت عيناها بعينين تتفرسان فيها بقوة وقحة ! ولبثتا مقدار ثانية ثم عادتا إلى هدفهما ، ولكنها لم تستطع أن تنعم باستغراقها الأول ، وظل شعورها منتبها إلى العينين العارمتين ، وجعلت حدقتاها تميلان ناحية اليسار ، وساورها شك وقلق ، فالتفتت مرة أخرى فالتقت بالعينين تتفرسان فيها بالقحة نفسها ، وقد نمتا — إلى ذلك — عن ابتسامة غريبة . ولم تمالك نفسها فأعادت رأسها إلى موضعه الأول فى شىء من الحدة وقد ملأها الحنق . أحنقتها هذه الابتسامة الغريبة لأنها أفصحت عن ثقة وتحد لا حد لها ، فهيجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجرة ، وشعرت برغبة جامحة أن تنشب أظافرها فى شىء ما ، فى رقبته لو أمكن مثلا ! . وصممت على أن تهمله على نفورها من هذه الطريقة السلبية فى العراك ، وإن ظل شعورها قوياً بعينيه الوقحتين ! ونغص عليها سرورها ؛ وركبتها روح الشر التى تلبسها بسرعة جنونية . وكأن صاحب العينين لم يقنع بما فعل ، أو كأنه لا يبالى هذه النار التى شبها ، فراح يشق طريقه إلى موضع فى طريق بصرها الشاخص إلى السرادق متعمداً بلا شك أن يعترض سبيلها ، ووقف هنالك مولياً إياها ظهره . كان طويل

القامة ، نحيفاً ، عريض المنكبين ، حاسر الرأس ، غزير الشعر ، مرتدياً بدلة ذات لون ضارب للاخضرار ، متأنقاً فى ملبسه ومظهره ، فلاح غريباً فى هذا الوسط الذى يكتنفه ، وسرعان ما أنستها الدهشة ما تولاها من حنق وتوحش . هذا أفندى وجيه ، وأين من زقاقها الأفندية ؟ ! ترى هل يعاود النظر وسط هذا الزحام . . . ولكن لم يكن شىء ليزدعه ، فما عتم أن التفت وراءه مرسلا نحوها نظراً عارما . وكان وجهه نحيلا مستطيلا ، لوزى العينين ، كثيف الحاجبين ، تنطق نظرة عينيه بالحذق والقحة . ولم يكتف بهذا التفرس على الملأ فصوب فيها نظره وصعد ، من شبشبها المنجرد إلى شعرها ، حتى انساقت وهى لا تدرى إلى النظر إلى عينيه كأنما لتسبر ما تركه تفحصه من أثر ، فالتقت عيناها ، ولاحت فى عينيه هذه النظرة المثيرة الوقحة الواشية بما يتيه به من ثقة وتحد وظفر ؛ فتناست دهشتها ، وعاودها الحنق والغيظ والرغبة فى العراك ، فغلا دمها غليانا ، وهمت أن تشتمه علانية . همت أكثر من مرة ، ولكنها لم تفعل ، وتولاها قلق وانفعال .. وضاقت بوقفتها ، فنزلت عن الحجر ، ومرقت إلى الزقاق مندفعة على عجل ، فقطعته فى ثوان . وعند ما اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة إلى الالتفات إلى الوراء ، ولكنه تمثل لعينيها فى وقفته مرسلا عينيه فى وقاحة وثقة وقد ازدادت ابتسامته افتضاحا ، فرغبت عن رغبتها ، وارتقت السلم متعجلة حانقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفريطها فى تأديبه . واتجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملاءتها ؛ ثم دلفت من النافذة المغلقة ، ونظرت إلى الطريق من خلال خصاصها ، وبحثت عيناها عن ضالتها حتى استقرتا عليه عند مدخل الزقاق ، وكان يرمق النوافذ المطلة على الزقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدى ، وحل محلها احتفال وتطلع . وسرها مظهره الجديد فانفثأ حنقها ، ولبثت بموقفها تستلذ حيرته وتنتقم لغيظها وحنقها . أفندى وجيه ما فى ذلك من شك ، وغير السابقين بلا جدال ، وقد أعجبته وإلا ففيم هذا الاهتمام الشديد . وأما نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة

تستوجب أعنف عراك ! . . فيم هذه الثقة التي لا حد لها ؟ أيحسب نفسه بطل الأبطال أو أمير الأمراء ؟ وخالط ارتياحها حنق ، ووجدت رغبة غامضة إلى العنف والتحدى . ولكنه بدأ ييأس من النوافذ ، وأعياه البحث عنها ، وخافت أن ينصرف عن تطلعه ويغيب فى الزحام . وترددت لحظة ، ثم أدارت الأكرة ، وفرجت ما بين مصراعى النافذة عن زيق ووقفت وراءه كأنما لتشاهد الحفلة . كان موليا الزقاق ظهره ، ولكنها كانت مطمئنة إلى أنه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء . وقد فعل ، فتلفت رأسه مرة أخرى وتردد بين النوافذ ، حتى علق بالزيق فأضاءت صفحة وجهه ، ولبث لحظات كالمرتاب ، ثم . . . ثم ارتسمت على شفتيه هذه الابتسامة الوقحة ، ورد إليه مظهر التيه والخيلاء بأفظع مما كان . وأدركت أنها انزلقت إلى خطأ لا يغتفر بظهورها ، وثارت ثائرتها واستولى عليها الحنق والغيظ ، ووجدت فى ابتسامته تحديا يدعوها للنزال ! وجدت فى هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل ، وقرأتهما بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك : وبدا الرجل وكأن شيئا لا يمكن أن يقفه عند حد فتحرك مصمما فى الزقاق بقدمين ثابتتين حتى خيل إليها أنه قادم إلى البيت . ثم مال إلى قهوة كرشة ، واختار مجلسا ما بين المعلم كرشه وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الحلو فى الأيام الخوالى مستطلعا إلى شبحها وراء الخصاص . خطا بجلوسه هذا خطوة جريئة . ولكنها لم تتراجع ، لبثت بموقفها مرسلة عينيها إلى المسرح وإن كانت لا تكاد تدرى بما يدور عليه ، شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لأخرى فى ومضات متقطعة كالكشاف الكهربائى . . .

ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة .

وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليالى وعهود . .

٢٠

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق ، فكان يجىء عنـد العصر ويتخذ مجلسه المختار ، ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاى . وقد أحدث ظهوره الطارىء — بوجاهته وأناقته — دهشة فى القهوة ، ولـكن سرعان ماسحبت العادة عليهـا ذيول الاهمال ، فليس من الخوارق أن يقصد أفندى مثله قهوة مفتوحة لـكل طارق . بيد أنه أتعب المعلم كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقل فى كثير من الأحيان عن الجنيـه ، كما أنه أسر سنقر بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له به من قبل وراقبت حميدة مجيئه يوماً بعد يوم بعين متفتحة ونفس متوثبة . ولـكنها أحجمت بادىء الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرقة ثيابها وتفاهتها ، حتى ضاقت بالبيت ضيقاً شديدا . ثم أغضبها إحجامها وعدته نوعا من الجبن لا يسيغه طبعها الجرىء ، وعز عليها أن يقضى مخلوق عليها بالتزام شىء تستـكرهه ، فنشبت معركة جديدة فى صدرها الذى لا يستريح من المعارك . وقد رأت الأوراق النقدية التى كان يتعمد تقديمها لسنقر تحت بصرها ، وفطنت بطبيعة الحال إلى دلالتها . وربمـا كانت هذه لغة ساقطة فى غير هذا المـكان ، أما فى زقاق المدق فهى لغة بليغة لا يخيب لها أثر ، ومع أن الرجل كان شديد الحرص على ألا يبدر منه ما ينبه أحدا إلى الباعث الحقيقى لغشيانه القهوة ، إلا أنه كان لا يعـدم فرصة فيسترق النظر إلى خصاص النافذة ، أو يضع مبسم النارجيلة على فيه زاماً شفتيه كأنه يقبله ثم يرسل الدخان إلى عل كأنما يرسل القبلة فى الهواء إلى شبحها الجاثم وراء النافذة . وكانت ترى ذلك باهتمام ، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق . وقد حدثتها نفسها بأن تنطلق إلى نزهتها ملقية بمخاوفها تحت نعليها ، وأن تلقاه إذا سولت له نفسه

التعرض لها — الأمر الذى لا يداخلها فيه أدنى شك — بما تمهده فى نفسها من فحة حقيقة بأن تهزم قحته شر هزيمة ، وأن تسلقه بلسانها سلقاً لا ينساه مدى الحياة . وإنه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب ، وابتسامته الظافرة ، وتحديه الوقح . تباً له ، ما الذى يدعوه لهذا التظاهر بالغلبة والقهر ؟ ! لا ارتاح لها بال حتى تمرغ أنفه فى الرغام . ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة أو شبشباً جديداً ؟ ! . . .

وقد اعترض سبيل حياتها وهى تعانى اليأس المرير ، إذ سقط السيد سليم علوان بين حى وميت بعد أن مناها يوما وبعض يوم بالحياة المريضة التى تهيم بها ، وبعد أن نبذت من أحلامها عباس الحلو ولفظته . وعلمت بعد ذلك أنه لم يعد ثمة أمل فى ذاك الزواج المأمول ، فردت على رغمها خطيبة للحلو وقد ازدادت له مقتاً ونفوراً . وأبت أن تسلم بسوء حظها ، وراحت تنهر أمها ، وتتهمها بأنها حسدتها وطمعت فى مال الرجل فخيب الله آمالها . على هذه الحال لاح الرجل الجديد فى أفق حياتها . وقد بعث ظهوره فى نفسها ثورة عارمة جارفة استثارت كوامن غرائزها جميعاً . أغضبها زهوه ، وأحنقها تحديه ، وأغرتها وجاهته ، وأيقظتها فحولته وجماله . جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المطمورة ، ووجدت فيه مالم يجتمع لسواه ممن عرفت من الرجال : القوة والمال والمراك ! . ولم تكن تدرك مشاعرها بوضوح وجلاء ، أو تدرى حاجات نفسها الملتوية ، فتحيرت بين انجذابها إليه ، وبين رغبتها المضطرمة فى الأخذ بتلابيبه . ثم وجدت فى الانطلاق مهربا من سجنها وحيرتها معا ، وفى فسحة الطريق مجالا تسير فيه نفسها وغرائزها . فى الطريق يجوز أن يتعرض لها ، فتتاح لها فرصة أن تتحداه كما تحداها ، وأن تنفس عن غضبها وحنقها ، وأن تلبى هذا النداء الخفى الذى يهيب بها إلى النزال والعراك . . . والانجذاب !

* * *

وفى عصر يوم من تلك الأيام ، أخذت زينتها ، والتحفت ملاءتها وغادرت

الشقة لا تعبأ شيئاً فى الوجود . وانتهت إلى الطريق فى أقل من دقيقة ، ثم قطعت الزقاق لا تلوى على شىء . وخطر لها خاطر وهى تميل إلى الصنادقية ، ألا يحق له أن يظن بخرجتها هذه الظنون ؟ ألا تزعم له نفسه المغرورة أنها غادرت بيتها عمداً لتلقاه فى الطريق !. خصوصاً وأنه لا يدرى شيئاً عن نزهتها اليومية المعتادة ، وقد جاء أياما متتابعة فلم يرها يوما تغادر البيت . فسيتبعها على الأثر ، ويتعرض لها فى الطريق . وقد أبت أن تقيم وزنا لظنونه . ورحبت بما عسى أن يدفعه إليه الغرور ، وتوثبت للقائه بنفس تتحرق على التحدى والعراك متوعدة إياه بأن تمحو عن شفتيه هذه الابتسامة الظافرة السخيفة . وبلغت فى سيرها الوئيد السكة الجديدة ، فتخيلته وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجلا حتى لا يضلها . ولعله ينحدر الآن بخطواته الواسعة إلى الغورية ، ولعله يفتش عنها بعينيه المتفرستين الجسورتين . إنها تكاد تراه بظهرها وهو يهرول بجسمه الطويل ، بينما لا تكاد ترى عيناها ما يضطرب به الطريق من أناس وسيارات وعربات . ترى هل أدرك بصره ما خرج فى ابتغائه ؟ . . وهل عاودته الابتسامة المتحدية الظافرة ؟ . . قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره ! . فلتواصل السير دون أن تلتفت إلى الوراء ، حذار من الالتفات ، فالتفاتة واحدة شر من الهزيمة . إنه وقح جرىء ، ولعله لا يفصلهما الآن سوى خطوات . ترى ماذا هو فاعل ! أيقنع بتأثرها كالكلب ؟ أم يسبقها قليلا ليريها نفسه ؟ أم يحاذيها ويأخذ فى مخاطبتها؟. وواصلت السير متنبهة قلقة مترقبة متوثبة تتوقع فى كل خطوة جديداً وتتفحص عيناها جميع الذين يلحقون بها ويتقدمونها من المارة ، وتنصت بيقظة للأقدام التى تتحرك وراءها . أرهقها الانتظار والتربص والتوثب ، وكادت تراود إرادتها فى التلفت . بيد أنها استعادت عنادها وفظاظتها وسارت لا تلوى على شىء ، فما تدرى إلا وصويحباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات ! ، فخرجت من غيبوبتها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ، ثم سلمت ، ودارت على عقبيها تسير وسطهن ، وهن يسألنها عن سر غيابها أياما على غير عادة واعتلت بالمرض وهى

تماين الطريق لترى موقعه منه . ومضت تنازعهن الحديث والمزاح وعيناها تترددان من طوار لطوار . ترى فى أى مكان ينزوى ؟ لعله يراها من حيث لا تراه . ومهما يكن من أمر فقد أفلتت من يديها فرصة تأديبه اليوم . كانت ترجو أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه ، ولكنه نجا من مخالبها . ولكن أين يكون ؟ أيمكن أن يكون متأخراً عنهن إلى الوراء ؟ ولم تستطع أن تقاوم رغبتها فى التلفت هذه المرة . فالتفتت ، وفحصت الطريق ببصر حاد ، ولكنه لم يكن هناك ، لا إلى الوراء ولا إلا الأمام ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار ! لعله تأخر قليلا فى الإفلات من القهوة فأضلها ، ولعله يتخبط الآن فى الطريق لا يدرى مكانها ! وسرعان ما فترت حماستها وخمد نشاطها . وعندما انتهت إلى الدراسة خطر لها أنه ربما بدا لها هنا فجأة كما بدا يوما عباس الحلو وتجدد الأمل ، ونشطت الحماسة فودعت آخر صويحباتها ، وعادت متمهلة تقلب عينيها فى جنبات الطريق ، ولكنه كان خاليا أو كان خاليا ممن تبتغى . وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير ! . . . تنوء بهزيمة نكراء . وصعدت مع أرض الزقاق ، واتجهت عيناها إلى القهوة ، وأخذ المعلم كرشة يبدو لها شيئاً فشيئاً ابتداء من طرف عباءته فكتفه الأيسر حتى رأسه المتطامن ، ثم . . رباه ما هذا ؟ ! . . إنه لم يبرح مكانه ، قابضاً على خرطوم نارجيلته ! . . وخفق قلبها بعنف ، وتصاعد الدم إلى وجهها ورأسها ، وهرولت إلى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها ، وارتقت السلم ذاهلة من الخجل — ولو أن الخجل ليس من سجاياها — وما كادت الحجرة تحتويها حتى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنونى ، فطرحت الملاءة على الأرض وارتمت على الكنبة . لمن إذاً يجىء القهوة كل مساء ؟ وكيف يسترق إليها النظر بعينيه الفاجرتين ؟ . . ولمن يرسم تلك القبلة الخفية فى الهواء ؟ ! . . وتناوبت قلبها مشاعر الخيبة والحيرة والخجل والغضب . ثم انثالت عليها الفكر والخواطر : أيمكن ألا يوجد ارتباط بين مجيئه كل مساء وبين أفكارها ، وأن ليست هذه الأفكار إلا أوهاما وأحلاماً

كاذبة ؟ . . . أم أنه تعمد أن يهملها اليوم تأديباً لها وتعذيباً فهو يعبث بها عبث القوى بالضعيف ؟ ! . . . أتنهض إلى القلة وتقذفه بها فتحطم رأسه وتروى غلة الحنق والانتقام ؟ ! . واستولى عليها شعور ممض بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل ، حتى لقد تساءلت فى حيرة عما أصابها . بيد أنها لم تكن تجهل ما كانت تريد . كانت تريد بلا شك أن يتبعها وأن يتعرض لها فى الطريق .

ثم ماذا ؟ . ثم تقذفه بحمم الغضب والحنق والوعيد . لماذا ؟ تحديا لثقته بنفسه وزهوه وابتسامته الواشية بالظفر . كانت ابتسامة الظفر أصل البلاء كله ، فأدركت مغزاها بعقلها وغريزتها وروحها وجسمها . هى ابتسامة الصراع والعراك ! وإنها على مساجلتها لقادرة ، لا بل إنها لم تخلق إلا لتتلقى هذه الابتسامة ومثيلاتها فتجيب عليها . كانت تأسى على فوات معركة طالما ترقبتها بلهفة وشغف . وكانت فى أعماقها تتحرق إلى أن تقيس قوتها بقوة هذا الرجل ذى الفحولة والجاه والخيلاء . هكذا تيقظت فى عنف وشدة ، وانبثت فى نفسها روح اللهفة والتمرد والعراك والشوق ...

لبثت على الكنبة فريسة لهياجها الوحشى ، ثم تلفتت إلى النافذة ترمقها شزراً . وجعلت تتزحزح حتى صارت وراءها ، ثم أرسلت بناظريها من خلال الخصاص ، ترى ولا ترى ، ملتفعة بالعتمة التى غشيت الحجرة . رأته فى جلسته الهادئة ، يدخن النارجيلة فى طمأنينة وسلام ، تلوح فى عينيه الثقة بالنفس والحذق ، وكأنه يعيش فى عالم وحده منقطع عما حوله ، وقد خلا وجهه من آثار هذه الابتسامة المثيرة . ها هو هادىء مطمئن بينا هى تشتعل ناراً . وتفرست فيه بقوة وحنق وما تزداد إلا انفعالا وحيرة . وظلت ملازمة مكانها حتى نادتها أمها لتناول العشاء فغادرت الحجرة .

وقطعت ليلة مملة مضنية ، ونهاراً كئيباً ، وانتظرت عصر اليوم الثانى فى قلق متواصل . لم يكن يداخلها شك فى مجيئه فى الأيام الماضية . أما اليوم فباتت تترقب قلقة شاردة النفس . وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحسر عن

أرض الزقاق ويرق وئيداً جدار القهوة . ومن عجب أن خامرها الخوف من عدم مجيئه ، ولعلها ابتدعت ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكيده . وجاء موعده دون أن يبدو له أثر . وتصرمت دقائق ودقائق ، فمن المؤكد أنه لا يحضر اليوم . بيد أن هذا التخلف قد حقق ظنها ، فأدركت أنه تغيب متعمداً : وارتسمت ابتسامة على شفتيها وتنهدت من الأعماق ارتياحا . لم يكن من شيء واضح يدعو للارتياح حقاً ، ولكن غريزتها أسرت إليها بأنه إذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمداً فلا شك أنه بالأمس تعمد كذلك ألا يطاردها ، فليس ثمة إهمال أو عدم مبالاة ، لا بل على العكس من ذلك فإنه يخوض غمار المعركة بمهارة وحذق ، وإنه لصامد فى الميدان حتى فى هذه الساعة التى لا يرى له أثر فيها . وارتاحت إلى سرار غريزتها ، واطمأنت إليه ، وتوثبت للنضال بعزم جديد . ونبا بها المكوث فى البيت فتلفعت بملاءتها وغادرت البيت دون أن تعنى بزينتها كما اعتنت بها أمس . ولفح الهواء البارد فى الطريق وجهها فأنعشها ؛ وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق وفكر ، فغمغمت ساخطة « يالى من مجنونة ! . . كيف جشمت نفسى هذا العذاب ؟ ! . ألا فليزدرده الموت ! » واستحثت خطاها حتى التقت بصويحباتها . ثم عادت معهن . وقد أنذرتها بأنهن سيفقدن قريبا إحداهن التى ستتزوج من زنفل صبى دكان طعمية سيدهم .

وقالت إحدى الفتيات :

— لقد خطبت قبلها ولكنها ستتزوج قبلك . .

وأثارها قولها فقالت بحدة وخيلاء :

— إن خطيبى مشغول بإعداد مستقبل باهر . .

تباهت بالحلو على رغمها ، ثم ذكرت متحسرة السيد سليم علوان — قتله الله كل شيء غير ذى نفع — فتنزى قلبها ألما ، وتولاها الوجوم بقية الطريق . شعرت بأن الحياة تعاندها وتكيد لها ، والحياة هى العدو الوحيد الذى لا تدرى كيف تأخذ بتلابيبه . وسارت فى رفقة الفتيات حتى

آخر الدراسة . ثم ودعت أخراهن ، ودارت على عقبيها لتعود من حيث أتت . وعلى بعد أذرع رأته — رجلها دون غيره — واقفاً على الطوار كالمنتظر ! وثبتت بصرها عليه لحظات تحت تأثير المفاجأة التى دهمتها ، واعتراها شيء من الارتباك عضت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة ، ثم واصلت السير فى شبه ذهول . لم تكن مستعدة لهذا اللقاء ، ولم يعد يداخلها شك فى أنه كان يتأثرها طوال هذا الوقت . وهكذا يحكم هو التدبير فى هدوء ، ويدهمها هى فى كل مرة الارتباك والذهول . وأخذت تنادى قواها المبعثرة وتستمدى وحشيتها ، وقد آلمها أشد الألم أنها لم تجد زينتها كما ينبغى ، وأحدث لها ذلك غير قليل من القلق . كان الجو متخشماً تحت سمرة المغيب ، والمكان كالقفر ، وكان الرجل ينتظر دنوها فى هدوء ، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدى ولا لابتسامة الظفر ، فلما حاذته خاطبها بصوت منخفض قائلا :

— من يتحمل مرارة الصبر يبلغ . . .

ولم تسمع تتمة عبارته لأنه غمغمها ، فحدجته بنظرة حادة ، ولم تنبس بكلمة ، وسارت لحال سبيلها ، فسايرها وهو يقول بصوته الهادىء العميق :

— أهلا وسهلا . كدت أجن بالأمس لأنى لم أستطع الجرى وراءك حذر العيون . وكنت انتظر مثل تلك الخرجة صابراً يوما بعد يوم ، فلما أن جاءت الفرصة دون أن أستطيع انتهازها كدت أجن . .

إنه يطالعها بوجه وديع ، غير الوجه الذى أهاجها ، فلا تحدى ولا ظفر ، وكلامه أشبه بالشكوى والتوجع والاعتذار ، وهى إنما توثبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن ؟ . أتهمل شأنه وتحث خطاها فينتهى كل شيء ؟ تستطيع أن تفعل هذا لو أرادت ، ولكنها لم تجد مشجعا من قلبها ؛ وكأنها كانت تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الأول ، فسارت بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها .

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة ، ويحيك أكذوبة ماكرة ،

فلم يكن خوفه الذى أقمده أمس عن تعقبها ، ولكنه استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحتا إليه بأن القعود فى حالته خير من العجلة ، كما أوحتا إليه اليوم بأن يتلثم بهذا القناع الزائف من الأدب والوداعة . وعاد يقول لها برقة :

— عهلى قليلا . . . عندى . .

فالتفتت إليه وقاطعته بحدة :

— كيف سولت لك نفسك أن تخاطبنى ! . . أتعرفنى يا هذا ؟!

فقال بأدبه الزائف :

— كيف لا ؟ . . نحن أصدقاء قدماء . . وقد رأيتك فى الأيام الماضية أكثر مما رآك الجيران فى أعوام طوال . وفكرت فيك أكثر مما فكر ألصق الناس بك مدى عمره ، فكيف لا أعرفك بعد هذا كله ؟!

تكلم برقة ولكن بلا تلعثم ولا تهدج . . وازدادت هى تعلقاً بكلامه ورغبة فى مساجلته . وتولاها شعور بالاستهانة ، هو السلاح الوحيد الذى تستطيع أن تشهره فى وجه عناد الحياة . بيد أنها لم ترد الخروج على « سنة التصنع والتمثيل » ، فقالت بحدة وهى تحرص على ألا يعلو صوتها فيفضح جرسه الخشن :

— لماذا تتبعنى ؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة :

— لماذا أتبعك ؟ . . لماذا أهمل أعمالى وألزم القهوة تحت نافذتك ؟ . لماذا أهجر الدنيا جميعا مقيما بزقاق المدق ؟ . . ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل ؟ !

فقطبت وقالت بازدراء :

— لست أسألك حتى تجيبنى بهذه السخافات ، ولكنى أنكر عليك أن تتبعنى وتخاطبنى .

فقال بلهجة جديدة تنم عن الثقة واللباقة :

— الأصل أن نتبع الحسناء أينما سارت . هـذه هى القاعدة ، فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو الشذوذ الموجب للانـكار حقاً ، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة . .

ومرت عند ذاك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويحباتها فتمنت أن يرينها وهذا الأفندى ينازلها ! . ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة :

— ابتعد ... هذا حى يعرفنى !

وكان يتفحصها بنظر ثاقب ، فأيقن أنها تجاذبه الحديث وهى لا تدرى ، أو وهى تدرى ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة لو رأتها لأعادت إلى رأسها ذكريات وحشية ، وقال لها :

— لا هذا الحى حيك ، ولا هؤلاء الناس أهلك ! . أنت شىء آخر ، إنك ها هنا غريبة . . !

فأمن قلبها على قوله ، وسرت به سروراً لم تشعر بمثله لقول قبله . واستدرك الرجل قائلا كالساخط :

— كيف تسيرين بعلاءتك بين هؤلاء الفتيات ! . . أين هن منك ؟ أميرة فى ملاءة ورعية ترفل فى الثياب الجديدة . . !

فقالت بحدة :

— مالك أنت ولهذا ! . ابتعد . .

فقال محتجاً :

— لن أبتعد أبدا ..

فسألته بحدة :

— ماذا تريد ؟

فقال بجرأة عجيبة .

— أريدك أنت ، ولا شىء غيرك ..

— ذبحة . .

— سامحك الله . لماذا تغضبين ؟ . . ألست فى الدنيا لتؤخـــذى ؟ . وإنى لآخذك . .

ومرا فى طريقهما ببعض الدكاكين ، فنهرته قائلة :

— لا تخط خطوة واحدة ، وإلا . .

فقال مبتسما :

— الضرب . .

وخفق قلبها ، وتألقت عيناها ، فقالت :

— صدقت . .

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

— سنرى . سأتركك الآن على رغمى ، ولكنى سأنتظرك كل يوم ، لن أعـود إلى القهوة حتى لا أثير الشبهات فى الزقاق ، ولكنى سأنتظرك كل يوم . . كل يوم ، مع سلامة الله يا أجمل من حملت الأرض . . .

واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر والسرور والغرور . «أنت شيء آخر» .. أجل ، وماذا قال أيضاً ؟ . «إنك هاهنا غريبة» ... «ألست فى الدنيا لتؤخذى ؟ .. وإنى لآخذك» ... وماذا قال أيضاً ؟ .. «الضرب ..» .. داخلتها لذة جنونية ، وسرور وحشى ، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئاً . ولما أوت إلى غرفتها واستردت أنفاسها ، ذكرت فى عجب وزهو أنها استطاعت أن تساير رجلا غريباً وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك ! ... وأنها تستطيع أن تفعل ماتشاء بلا تردد ، وغمرتها موجة عارمة من الاستهانة والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية . ثم ذكرت ما كانت عقـدت العزم عليه من الأخذ بتلابيبه ! . . . فاستولى عليها الوجوم لحظة قصـيرة ، ثم جعلت تعتذر لنفسها بأنه لم يلقها بذاك الوجـه الصفيق المتحدى ، لا بل راح يحدثها حديثا رقيقا مؤدباً ، لا عن وداعـة طبيعية ، فقلبها يحدثها بأنه غر يتحين فرصـة للوثوب ، فلتنتظر ... لتنتظر حتى يتـكشف عن حقيقته ، وهنالك ؟! .

وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشى . .

٣١

كان الدكتور بوشى يهم بمغادرة شقته حين جاءته خادم الست سنية عفيفى تدعوه لمقابلة سيدتها . وعبس وجه الدكتور وتساءل فى إنكار « ماذا تريد المرأة ؟! .. زيادة إيجار ؟! » ولكنه سرعان مانفى هذا الظن عن خاطره ، لأن الست سنية لا تستطيع أن تتحدى القوانين العسكرية التى تحدد أجور المساكن فى أثناء الحرب . وغادر شقته وارتقى السلم متجهم الوجه . كان الدكتور بوشى — كعادة السكان — يستثقل الست سنية عفيفى ، ولا يفتأ يشهر ببخلها فى كل زمان ومكان . وقد شنع عليها يوما فقال إنها تفكر فى بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجر شقتها . وضاعف حقده عليها أنه لم يقدر — ولو مرة واحدة — على الإفلات من أداء أجرة شقته إليها . إذ كانت المرأة تستعين بالسيد رضوان الحسينى إذا حرج الأمر . فلم يسر الرجل بهذه الدعوة ؛ ودق الباب وهو يتعوذ قائلا « لطفك يا دافع البلاء » . وفتحت له الست بنفسها ، وكانت متلفعة بخمار ، ودعته إلى حجرة الاستقبال ودخل الرجل وجلس . ولحقت به الخادم بالقهوة فشرب ، ثم قالت له الست :

— دعوتك يادكتور لتكشف على أسنانى ..

ولاح الاهتمام فى عينى الرجل ، واستولى عليه السرور لهذه المفاجأة التى لم يتوقعها قط ، وشعر نحو الست بمودة لأول مرة فى حياته وسألها :

— هل وجدت ألما لاسمح الله . .

فقالت الست سنية :

— كلا والحمد لله ، ولكنى فقدت بعض الضروس والأسنان ونغض البعض الآخر ...

وتضاعف سرور الدكتور ، وذكر ما تهامس به أهل الزقاق من أن الست ستغدو عما قريب عروسا ، فلعب الطمع بقلبه وقال :

— الأوفق أن تركبي طقما جديداً . .

فقالت الست . .

— هذا ما فكرت فيه ، ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك ؟

فنهض الرجل واقفاً واقترب منها وهو يقول :

— افتحي فمك . .

ففغرت المرأة فاها ، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين ، ولم يجد به إلا أسنانا معدودات ، فدهش ، وأحس ببعض الخيبة ، ولكنه حذر أن يهون من خطورة عمله ، فقال في تؤدة :

— يلزمنا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان ، ولكن ربما اضطررنا إلى الانتظار ستة أشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ راحتها .

ورفعت المرأة حاجبيها المزججين في انزعاج ، وكانت تتوقع أن تزف إلى بعلها في بحر شهرين أو ثلاثة على الأكثر ، وقالت بجزع :

— لا . . لا ، أريد عملا سريعا ، لا يتأخر عن شهر بحال . .

فقال الرجل بمكر وخبث :

— شهر ياست سنيه ؟ . . مستحيل . . ؟

فقالت المرأة باستياء :

— إذن مع السلامة . . !

فتريث الرجل قليلا ثم قال :

— هنا لك سبيل واحد إن شئت . .

فأدركت أن الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث ، وامتلأت حنقا عليه ولكنها دارت حنقها لحاجتها إليه ، وسألته :

— ما هو ؟

— أن أركب لك طقما ذهبياً ، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع مباشرة . .

وانقبض قلبها خوفا ، وراحت تفكر فى تكاليف الطقم الذهبى . وكادت تنبذ اقتراح الرجل لولا أن تذكرت العروس المرتقب ، إذ كيف يمكن أن تلقى عروسها بهذا الفم الخرب ؟ كيف تواتيها شجاعتها على الابتسام إليه ؟ وكان من المعروف لدى أهل الزقاق جميعا أن أسعار الدكتور بوشى هينة ، وأنه يستبضع طقومه من هنا وهناك بمهارة ويبيعها بأبخس الأثمان ، فلا يسأل من أين يأتى بها ، ويحسبهم رخصها . ولكن الطقم الذهبى — على رغم هذه الحقائق جميعاً — شىء له خطره ، فلذلك تخوفت المرأة التى ألفت الحرص ، وسألته بغير احتفال شأن المستهين باقتراحه :

— وكم يكلفنى الطقم ؟

فقال الدكتور الذى لم يخدع باستخفافها الظاهرى :

— عشرة جنيهات ؟

وانزعجت المرأة التى تجهل الأثمان الحقيقية للطقوم الذهبية ورددت قوله فى الانكار :

— عشرة جنيهات !

وتميز الرجل غيظا وقال :

— إن ثمنه لا يقل عن خمسين جنيها عند أولئك الأطباء الذين يتاجرون بفنهم ، ولكننا وا أسفاه قوم سيئو الحظ .

وتجاذبا الثمن الذى اقترحه ، هو يحاول أن يستمسك به ، وهى تروم خفضه حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهات ، وغادر الدكتور الشقة وهو يلعن فى سره العجوز المتصابية .

وكانت الست سنية عفيفى ، تلك الأيام ، تلقى الحياة بوجه جديد ، كما كانت الحياة تطالعها بوجه جديد كذلك . بات الأمل السعيد قاب قوسين أو أدنى ، وأصبحت الوحدة ضيفا ضعيف الظل يأخذ أهبته للرحيل ، وأوشكت البرودة الجاثمة فى روحها أن تذوب وتجرى ماء دافئا . بيد أن السعادة لا تنهل بغير ثمن ، وبغير ثمن فادح أيضاً . ولقد عرفت هذا

الثمن الفادح فى ترددها على محال الأثاث بشارع الأزهر ، ومعارض الثياب بالموسكى . ومضت تنفق مما اكتنزت ذاك الدهر الطويل ، بل وتنفق بغير حساب . وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها فى حلها وترحالها ، وأثبتت لها بمهارتها الفائقة ، وبما تقدم لها من معونة فى كل خطوة تخطوها ، أنها كنز نفيس لا يقدر بثمن ، وإن كان باهظ التكاليف فى الوقت نفسه . ولم تقبض منها يدها مملة نفسها بوشك انتهاء هذه المحنة . على أن الأثاث والثياب لم تكن كل شىء ؛ ولم يكن بيت العروس الشىء الوحيد الذى يستوجب التجديد ، وإنما كانت العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم؛ وقد قالت يوماً لأم حميدة وهى تضحك فى غير قليل من الارتباك :

ياست أم حميدة . ألا ترين أن الهموم قد أشعلت الشيب فى سوالفى ؟ ! .

فقالت أم حميدة التى كانت تعلم أن الهموم بريئة مما ترميها به :

— نداوى الهموم بالصبغة ؛ وهل توجد ثمة امرأة لا تصبغ شعرها فى زماننا هذا ؟

فضحكت المرأة بسرور وقالت :

— بورك فيك ياست النساء كلهن . ترى ماذا كنت أفعل بحياتى لولاك أنت ؟

وتريثت قليلا، ثم مسحت على صدرها وقالت :

— رباه هل يرضى هذا الجسد الجاف عروسك الشاب ؟ . . . لا أثداء ولا أرداف ولا شىء مما يجذب الرجال ! .

فقالت حميدة :

— لا تستقلى نفسك ؛ ألم تعلمى بأن النحافة موضة وأية موضة ! ومع ذلك فإن شئت صنعت لك أقراصا عجيبة تسمنك فى وقت قصير . .

وهزت أم حميدة وجهها المجدور بفخار واستدركت قائلة :

— لا تخافى شيئا مادامت أم حميدة معك . أم حميدة مفتاح سحرى

تفتح له جميع الأبواب المغلقة ، وغداً تلمسين قدرى فى الحمام إذا حوانا معا !

وهكذا كرت أيام الاستعداد فى نشاط وتعب وسرور وأمل ، وصبغ شعر وتحضير عقاقير ، وخلع أسنان مثرمة وتركيب أسنان ذهبية ، وبين يدى ذلك كله نقود تنفق . تغلبت على عـادة الحرص ، وطرحت معبودها الأصفر عند قدمى الغد المرموق ، وفى سبيل هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من مال وثريد للفقراء الذين يحدقون بجامعه ، كما نذرت للشعرانى أربعين شمعة .

وقد نال العجب من أم حميدة كل منال وهى تلحظ هذا التغير الـكبير الذى قلب الست سنيه رأساً على عقب ، فجعلت تضرب كفا بكف وتقول لنفسها :

— هل يستأهل الرجال كل هذا العناء ؟ ! . جلت حكمتك يارب فأنت الذى قضيت على النساء بأن يعبدن الرجال . . !

٢٢

استيقظ عم كامل من إغفاءته المزمنة على رنين جرس ، ففتح عينيه ، وأنصت قليلا ، ثم اشرأب بعنقه حتى برز رأسه من الدكان ؛ فرأى حنطورا معروفا يقف أمام الزقاق ، فنهض فى عناء وهو يقول بسرور ودهشـة : « رباه ، هل عاد السيد سليم علوان حقا ؟ » . وكان الحوذى قـد زايل مقعده وهرع إلى باب العربة ليعين سيده على النزول ، واعتمد السيد على ذراعه ، وغادر مجلسه فى تؤدة ، فلاح طربوشه أولا مندلق الزر ، ثم ظهر جسمه مقوسا ، ووقف أخيرا على الأرض يصلح هندامه . حجبه المرض فى أواسط الشتاء ، وأعاده الشفاء فى أوائل الربيع ؛ وقد غمرت برودة الشتاء القارصة موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا طربا . ولـكن أى شفاء هذا ؟ ! لقد عاد السيد رجلا آخر . اختفى الـكرش الذى كان يشق الجبة والقفطان

وتقعر الوجه الممتلىء الدموى فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوح الشحوب بشرته ، وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابلة تحت جبين عابس . ولم يتبين عم كامل بادىء الأمر ما طرأ على السيد من تغير لضعف بصره حتى إذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولاه الانزعاج ، وانحنى على يده كأنما ليخفى انزعاجه ، وصاح بصوته الرفيع :

— حمدا لله على السلامة يا سى السيد . ذا يوم أبيض . والله والحسين ما يساوى الزقاق من غيرك قشرة بصلة . . .

فقال له السيد سليم وهو يسترد يده :

— بورك فيك يا عم كامل . . .

وسار متمهلا متوكئاً على عصاه ، يتأثره الحوذى عن كثب ، ويتبعه عم كامل مترنحا كالفيل . والظاهر أن رنين الجرس قد أعلن حضوره ، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمال ، وأقبل من القهوة المعلم كرشة والدكتور بوشى ، وأحاط به الجميع مهللين داعين ، ولكن الحوذى علا صوته وهو يقول :

— أفسحوا للبيه من فضلكم ، دعوه يجلس أولا ثم سلموا . . .

وأفسحت له اللمة ، فواصل مسيره عابساً ، وفؤاده يغلى حنقا وغيظا ، وقد ود لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه . وما كاد يطمئن به مجلسه وراء المكتب حتى أقبل عمال الوكالة يستبقون ، فلم يجد بدا من أن يسلمهم يده يقبلونها واحدا بعد آخر ، متأذيا من لمس شفاههم ، مخاطبا نفسه : « يا لكم من كذابين مرائين ! . . أنتم والله أصل هذا البلاء ! » .

وتفرق العمال فجاء المعلم كرشة وشد على يده وهو يقول :

— مرحبا بسيد الحى جميعاً . . ألف حمد الله على السلامة . .

فشكره السيد . أما الدكتور بوشى فقد قبل يده وقال له بلهجة خطابية :

— اليوم يحق لنا الفرح ، واليوم تطمئن جنوبنا ، واليوم يتحقق لنا الدعاء . .

فشكره أيضاً مدارياً تأففه ، لأنه كان يستكره وجهه الصفير المستدير .

ولما أن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت لا يكاد يسمع : « كلاب . . كلهم كلاب . . عضونى بعيونهم الحاسدة ! » وراح يطارد أشباحهم فى مخيلته لينقى صدره مما استثاره من حنق وغيظ وتأثر ، ولم يترك لخلوته طويلا ، فجاءه كامل أفندى إبراهيم وكيله ومثل بين يديه ، وسرعان مانسى بمجيئه كل شىء إلا الحساب والمراجعة ، وقال له باقتضاب :

— الدفاتر . .

وهم الرجل بالتحرك ولكنه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرا هاما ، وقال له بلهجة آمرة :

— نبه الجميع إلى أنى من الآن فصاعدا ، لا أحب أن أشم رائحة تدخين (كان التدخين قد حرم عليه بأمر الطبيب) ، وخبر إسماعيل بأننى إذا طلبت إليه ماء أن يهيء لى قدحا نصفه ماء عادى والنصف الآخر ماء دافىء . التدخين فى الوكالة ممنوع منعا باتا ، والدفاتر بسرعة . .

وذهب الوكيل لإبلاغ الأوامر الجديدة ، متذمرا فى باطنه لأنه كان من مدمنى التدخين . ثم عاد بعد قليل حاملا الدفاتر ، ولم يغب عنه ماترك المرض فى طبع السيد من تغير وتبدل ، فركبه الهم ، وأيقن أنه مقبل على حساب عسير . وجلس كامل أفندى قبالة السيد ، وفتح الدفتر الأول ، وبسطه بين يديه ، فبدأت المراجعة . كان السيد فى عمله محيطا ماهرا لا تفوته فائتة وإن دقت ، فأكب على مراجعة الدفاتر دفترا دفترا بهمة لا تكل ولا تمل ؛ غير راحم نفسه المتهالكة ، وقد اتصل فى أثناء ذلك ببعض عملائه متحققا من مواعيد حضورهم ، مطابقا بين أقوالهم وبين المدون فى الدفاتر ، وكامل أفندى صابر متجهم لا يخطر له الاحتجاج على بال . ولم تكن المراجعة بالشىء الوحيد الذى يتابعه بأفكاره ، فكان ينوء صامتا بأمر تحريم التدخين الذى استصبح به على غرة ، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين فى الوكالة فحسب ، ولكنه أضاع عليه فى الوقت نفسه ما كان يتفضل السيد بتقديمه له من سجائر كوتاريللى الفاخرة . وقد رمق الرجل المكب على الدفاتر بنظرات

غريبة ، وقال لنفسه متكدرا ساخطاً « رباه . لشد ما تغير الرجل ، هذا شخص غريب لا نعرفه ! » وعجب لشاربه الذى احتفظ رغم هذا التغير بضخامته وفخامته فى وجه طمست سماته ومعالمه وعفى عليها المرض الخطير فكأنه نخلة سامقة فى صحراء جرداء . . وأخرجه الحنق والاستياء عن طوره فقال مخاطبا نفسه « من يدرى ؟ . لعله يستأهل ما نزل به ، إن الله لا يظلم أحداً » . وانتهى السيد من المراجعة فى زهاء ثلاث ساعات ، فرد الدفاتر إلى الوكيل ، وهو يحدجه بنظرة غريبة ، نظرة مراجع لم يعثر على ما يريبه ، ومع ذلك فلا تخلو نفسه من الريب . وجعل يخاطب نفسه قائلا « سأعاود المراجعة مرة أخرى لا بل مرات ، حتى أكشف عما تبطن هذه الدفاتر . كلهم كلاب .. بيد أنهم أخذوا عن الكلاب نجاستها ، وزهدوا فى أمانتها ! » ثم خاطب الوكيل قائلا :

— لا تنس ما نبهتك إليه يا كامل أفندى : رائحة التدخين والماء الدافىء .

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الخواجات فهنأوه بالسلامة ، ثم خاضوا فيما لديهم من الأعمال ؛ وقد أراد بعضهم أن يؤجل عمله تخفيفا عنه ، ولكن قال باستياء :

— لو كنت عاجزا عن العمل ما جئت الوكالة ..

وما كاد يخلو إلى نفسه حتى استبدت به أفكاره الناقمة الموتورة ؛ فراح يصب غضبه — كديدنه فى هذه الأيام الأخيرة — على الناس أجمعين . ولطالما قال عنهم إنهم حسدوه ، وإنهم نفسوا عليه الصحة والوكالة والخنطور وصينية الفريك ، فلعنهم من أعماق الفؤاد . وكثيراً ما كان يردد هذه الظنون فى أثناء مرضه ، ولم تنج زوجه نفسها من شر ظنونه ، فحدجها يوما بنظرة شزراء ، وهى تجلس إلى جانب فراشه وقال لها بصوت يتهدج ضعفا وسخطا :

— وأنت ياست لك نصيبك من هذا ، فطالما دوختنى بقولك إن

أيام الصينية انتهت ، وكأنك تنفسين على صحتى ، فالآن كل شىء انتهى فقرى عينا . .

وقد تأثرت المرأة لقوله واستعبرت طويلا ، ولكنه لم يرق لها ، ولم يلن من حدته واستدرك يقول مغيظا محنقا :

— حسدونى . . حسدونى ، حتى زوجتى وأم أبنائى قد حسدتنى . . !

ولكن إذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه ، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينيه غير بعيد . وإن ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة المزلزلة ساعة الأزمة . كان يتهيأ للهجوع حين أحس بغصة تصدع لها صدره ؛ وشعره بحاجة ماسة إلى تنفس عميق ولكن عجز عن الشهيق والزفير ، وكان كلما عاود المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع ، حتى استسلم فى قنوط وعذاب مرير . وجاء الطبيب وتجرع العقاقير ، ولكنه لبث أياما يراوح بين يقظة الحياة وغيبوبة الموت . وكان إذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى ببصر زائغ زوجته وبناته وأبناءه محدقين به ، محمرة أعينهم من البكاء . وهوى إلى تلك الحالة الغريبة التى يفقد الإنسان فيها كل إرادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة .

وفى اللحظات القليلة التى استرد فيها شيئا من وعيه كان يتساءل فى رجفة باردة « هل أموت ؟ ! . » أيموت وحوله الأهل جميعاً ؟ ! . ولكن الإنسان لا يفارق الدنيا عادة إلا منتزعا من أيدى أحبائه ، فماذا أفاد الأموات تعلق الأحياء بهم ؟ ! . ورغب ساعتئذ أن يدعو الله وأن يستشهد ، فخانه ضعفه ، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف . ولم ينسه إيمانه — على رسوخه — أهوال تلك الساعة ، فاستسلم جسمه على رغمه . أما روحه ، فتعلقت بأهداب الحياة فى فزع وجزع ، حتى سحت عيناه دمعاً مدراراً ونطقت نظرتهما بالاستصراخ والاستغاثة . ولكن كان فى الأجل بقية ، فجاز طور الخطر ، وبلغ بر النقاهة . وترجع إلى

أحضان الحياة رويداً رويداً ، ومني نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته . ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتصرت أمنيته ، وقضت على أمله ، ولم تبق له من الحياة إلا على شيء يسير . أجل . أجل ، نجا من الموت ، ولكنه انقلب شخصاً جديداً ذا جسم رقيق وروح مريض . وبكرور الأيام استفحل مرض روحه فصار ضجراً وتمرداً وكراهية وعبوساً . وقد عجب لهذه العثرة التي اعترضت سبيل حظه ، وتساءل بأى ذنب آخذه الله سبحانه ؟ وكان ذا ضمير من هذه الضمائر الراضية التي تقيم الأعذار لأصحابها وتحسن مسالكهم ، وتغضى عن أخطائهم ؛ وكان يحب الحياة حباً جماً ، فتمتع بماله ومتع به آله ، والتزم — فيما يظن — حدود الله ، فاطمأن بذلك إلى الحياة اطمئناناً عميقاً ، حتى انتبه منه على هذه الهزة العنيفة التي ذهبت بصحته ، وأوشكت أن تذهب بعقله . ماذنبه ؟ . . . لا ذنب له ، ولكنهم الناس غرماؤه ، وهم الذين أوردوه بحسدهم هذا العطب الأبدى ! . وهكذا أمر من نفسه ما كان حلواً ، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم . والحق إن ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه .

وقد تساءل وهو جالس إلى مكتبه فى الوكالة : أحقاً لم يبق له من الحياة إلا أن يقبع فى هذا المكان ويراجع الدفاتر ؟ ! وتراءى له وجه الحياة أشد تجهما من وجهه . وجمد كالتمثال ، ومضى وقت لا يدريه وهو غارق فى أفكاره ، حتى سمع حساً عند مدخل الوكالة ، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجدور . ولاحت فى عينيه نظرة غريبة ، فسلم ، وأنصت بربع انتباه إلى دعاء المرأة وترحيبها ، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها .

أليس من العجيب أن ينسى حميدة كأنها شيء لم يكن ! ؟ لقد طافت به ذكراها فى نقهه مرات ، ومرت به دون أن تترك أثراً . لم يأسف عليها بمثل ما طمح إليها ، ثم أنسيها بعد ذلك كأنها شيء لم يكن ، أو كأنها كانت نقطة فى دم الصحة الذى كان يجرى فى عروقه ، فلما أن غاب ونضب تطايرت

فى الهواء . وغابت من عينيه النظرة الغريبة التى رسمتها الذكريات ، وعاد بصره إلى جوده ، فشكر للمرأة حضورها لتهنئته ودعاها للجلوس . ووجد مضايقة فى حضورها كادت تنقلب كراهية . وتساءل عما دعاها للمجىء حقاً ، أهو التهنئة الخالصة لوجه الله أم الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة ؟ ! . ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه ، لأنها كانت آيست منه منذ أمد بعيد . ومع ذلك قال لها وكأنه يعتذر :

— أردنا . . وأراد الله . . .

فأدركت المرأة مقصده وقالت بعجلة :

— لا عليك من هذا ياسى السيد ، وما نسأل الله إلا الصحة والعافية .

وسلمت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته أسوأ حالا وأشد انقباضاً . وقد حدث عند ذاك أن انزلق شوال حناء من بين يدى عامل ، فاشتد به الغضب ، وانتهره بقسوة صائحا :

— ستغلق عما قريب الوكالة أبوابها ، فابحثوا عن مرتزق جديد . . !

ولبث برهة ينتفض من شدة الغضب والتأثر . وكأن هذا الغضب ذكره بما اقترحه عليه أبناؤه أخيراً من تصفية أعماله والخلود للراحة ، فتضاعف غضبه وهياجه . وجعل يقول لنفسه إنها ليست راحته التى يبتغون ، ولكنه المال . ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقاً وهو فى عنفوان قوته ؟ ! . . فالمال طلبتهم ، لا صحته ولا راحته . ونسى فى غضبه أنه — هو نفسه — كبر عليه أن تنحصر آماله فى العمل فى الوكالة ، وألا يجد من لذة فى الحياة إلا إرهاق النفس فى جمع مال لا يستطيع أن يتمتع به ، ولكنه العناد الذى أولع به أخيراً ، وسوء ظنه بالناس جميعاً الذى لم ينج أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره . . . وقبل أن يفيق من حمى الغضب والهياج سمع صوتاً جهيراً يقول فى عمق وحنان معاً :

— حمداً لله على السلامة . . السلام عليكم يا أخى . .

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسينى مقبلا ،

بجسمه الطويل المريض ، ووجهه المشرق المتألق ، فانبسطت أساريره لأول مرة وهم بالوقوف ، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول :

— حلفتك بالحسين إلا ما جلست . .

وتصافحا بحرارة . وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرات فى أثناء مرضه . ولما لم يمكنه مقابلته بعث له بتحياته ودعواته . وجلس السيد على مقعد قريب وراحا يتحدثان فى رقة ومودة . قال السيد سليم علوان بتأثر شديد :

— نجوت بأعجوبة . . !

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادىء :

— الحمد لله رب العالمين . نجوت بأعجوبة ، وتعيش بأعجوبة . كلنا — لو تعلم — نعيش بأعجوبة . إن استمرار حياة المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الإلهية ، فعمر أى إنسان فان سلسلة من المعجزات الإلهية ، وما بالك بأعمار الناس جميعا ، وحيوات الكائنات جميعا ؟ ! . فلنشكر الله بكرة وأصيلا ، آناء الليل وأطراف النهار ، وما أتفه شكرنا حيال هذه النعم الربانية .

وأصغى اليه فى جمود . ثم تمتم قائلا بضجر :

— المرض شر قبيح .

فابتسم السيد رضوان وقال :

— ربما كان كذلك فى ذاته ، ولكنه من ناحية أخرى امتحان إلهى ، وهو من هذه الناحية خير .

ولم يرتح الرجل لهذه الفلسفة ، وحنق بغتة على قائلها ، فضاع الأثر الطيب الذى أحدثه مجيئه ، ولكنه لم يستسلم لانفعاله على غير عادته أخيراً وقال بلهجة وشت بتذمره :

— ماذا فعلت حتى ينزل بى هذا العقاب ؟ . . ألا ترى أنى فقدت صحتى إلى الأبد . .

فعبث السيد بلحيته الجميلة ، وقال بشيء من المعاتبة :

— أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة ؟ . حقاً إنك رجل طيب ، بار ، كريم ، قوام على الفرائض ، ولكن الله امتحن عبده أيوب وهو نبى ، فلا تأس ولا تحزن ، وأبشر بالإيمان خيراً . .

ولكن الرجل زاد انفعاله ، وقال بحدة :

— أرأيت إلى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال ؟

— إنك بمرضك خير منه بصحته وعافيته . .

وغلبه الغضب ، فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال :

— إنك تحدث فى سكينة وطمأنينة ، وتعظ فى ورع وتقوى ، ولكنك لم تذق بعض ما ذقت ، ولم تخسر شيئاً مما خسرت .

وتطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه ، ثم رفع رأسه وعلى شفتيه ابتسامته الحلوة ، وحدجه بنظرة عميقة من عينيه الصافيتين ، وسرعان ما استكن غضبه وفتر انفعاله ، وكأنه يذكر لأول مرة ، أنه يخاطب أكبر مصاب من عباد الله . وطرفت عيناه ، وتورد وجهه الشاحب قليلا ، ثم قال بصوت ضعيف :

— اعذرنى يا أخى ، إنى تعب مرهق . .

فقال السيد ولم تفارق الابتسامة شفتيه:

— لا عليك من هذا . قواك الله وسلمك . اذكر الله كثيراً فبذكر الله تطمئن القلوب ، ولا تدع الأسى يغلب عليك إيمانك أبداً . فالسعادة الحقة ترتد عنا على قدر ما نرتد عن إيماننا .

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحنق :

— حسدونى . نفسوا على المال والجاه . حسدونى ياسيد رضوان !

— الحسد شر من المرض . وإنه لمن الحزن حقا ، أن الذين ينفسون

على إخوانهم حظهم من المتاع الفانى كثيرون . لا تأس ، ولا تحزن ، وسلم إلى الله ربك الرحيم الغفور . .

وتحادثا طويلا ، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف ، ولبث الرجل هنيهة كالهادىء ، ثم أخذ يعود رويداً رويداً إلى عبوسه وتجهمه ، ونبا به القعود طويلا ، فنهض قائماً ، ومشى متمهلا إلى باب الوكالة ، ووقف عند مدخلها شابكا يديه وراء ظهره . كانت الشمس تعلو كبد السماء ، والجو دافئاً مشرقا . وقد بدا الزقاق كالمقفر فى تلك الساعة من الظهيرة ؛ اللهم إلا الشيخ درويش الذى جلس أمام القهوة يتشمس . فلبث السيد ملياً ، ثم تلفت — بحكم عادة قديمة — نحو النافذة ، فوجدها مفتوحة خالية ، وكأنه ضاق بموقفه فرجع إلى مجلسه متجهماً عابساً . . .

٢٣

« . . لن أعود إلى القهوة . حتى لا أثير الشبهات . . » ، هذا ما قاله لها عند افتراقهما . وقد ذكرته حميدة فى صباح اليوم التالى لمقابلة الدراسة ، ذكرته بخيال حى يقظ سعيد . وتساءلت أتذهب للقائه اليوم ؟ فأجاب قلبها « نعم » دون خفاء . ولكنها قالت بعناد : « كلا . . يجب أن يعود إلى القهوة أولا » ، وامتنعت عن الخروج فى موعدها المألوف ، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون . وانصرمت ساعة المغيب ، وأطبق الليل ناشراً جناحيه ، وعند ذاك أقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوباً عينيه نحو الزيق الذى انفرج عنه خصاص النافذة تلوح فى وجهه ابتسامة تنم عن التسليم ، وجلس على كرسيه المختار . وشعرت وهى تراقبه ببهجة الانتصار ، ولذة الانتقام لعذابها يوم أعياها العثور عليه فى الموسكى . والتقت عيناها طويلا — دون أن تغضى أو ترتد عن موقفها — فازداد ظل ابتسامته امتداداً ، ووشى وجهها بابتسامة وهى لا تدرى . ماذا يبغى

يا ترى ؟ وبدا لها هذا السؤال غريباً ، إذ أنها لا تدرى لمثل إلحاحه فى طلابها إلا معنى واحداً ، سعى إليه من قبل عباس الحلو ، وطمح إليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر ، فلماذا لا يكون غاية هذا الأفندى الوجيه ؟ ! . أو لم يقل لها : « ألست فى الدنيا لتؤخذى ؟ . . وإنى لآخذك . . » ؟ ! فما عسى أن يعنى هذا إن لم يعن الزواج ؟ ! ولم يعق أحلامها عائق ، لشدة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل وغرورها الجامح . وجعلت تنظر إليه من وراء خصاصها المنفرج ، وتتلقى نظراته المسترقة باطمئنان وثبات وبلا تردد . وحادثتها عيناه حديثاً عميقاً يعيي اللسان والحواس جميعاً ، فتردد صداه فى أعماق نفسها محركاً غرائزها . ولعلها وجدت هذا الشعور العميق الصادق — وهى لا تدرى — يوم التقت عيناهما أول مرة ، يوم حدجها بنظرته العارمة المتحدية ، وابتسم إليها تلك الابتسامة الظافرة ، فانجذبت إليه كما تنجذب إلى المعترك المستعر . والحق أنها عرفت قدراً من نفسها على ضوء عينيه ، فلم تعد الضالة فى متاهة الحياة ، ولم تعد الحائرة إلى نظرة عباس الحلو الوديعة وثروة السيد علوان الطائلة ، ولكنها شعرت بأن هذا الرجل طلبتها ، وأن ما يستثيره فى صدرها من الانفعال والإعجاب والاستفزاز هو لذتها التى تجذب إليها بفطرتها ، كما تجذب إبرة البوصلة إلى القطب ، وأنه رجل من غير الحثالة التى يستعبدها الفقر والحاجة كما يشهد بذلك مظهره وأوراقه المالية . وراحت ترنو إليه بعينين متألقتين تذكيان ضياء من وجد وتوثب ، ولم تبرح مكانها حتى غادر القهوة وهو يودعها بابتسامة خفيفة ، فأتبعته ناظريها وهى تقول وكأنها تتوعده « غداً » .

وفى عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدى والهيام بالحياة . وما كادت تخرج من الصنادقية حتى رأته عن بعد واقفاً عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة ، فلاحت فى عينيها لمعة خاطفة ، وانبعث فى صدرها شعور غامض غريب ، وهو مزيج من السرور والرغبة الوحشية فى القتال !

وقدرت أنه سيتبعها في الذهاب والإياب حتى يخلو لها الجو في الدراسة ، فسارت على مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء ، واقتربت منه كأنها لا تراه ، ولكن حدث — وهي تمر به — ما لم يقع لها في حسبان ، فقد سار معها ومد يده بجرأة لاتوصف فقبض على راحتها ، وقال لها بهدوء متجاهلا المارة والواقفين :

— مساء الخير ياعزيزتي . .

أخذت على غرة ، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفلح ، وخافت إن أعادت الكرة أن تستلفت الأنظار ، فاستولى عليها الارتباك والغيظ ، ووجدت نفسها بين اثنتين فإما غضب وفضيحة وجرسة ثم قطيعة ، وإما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها فرضاً وقهراً ، فامتلأت حنقاً ، وهمست بصوت منخفض متهدج من الغضب :

— كيف تجرؤ على هذا ؟ . . دع يدي بسرعة . .

فأجابها بهدوء وهو يمشي إلى جانبها كأنهما صديقان ينطلقان معاً :

— حلمك . . حلمك ، لا كلفة بين الأصدقاء . .

فقالت وهي تتميز غيظا :

— الناس ... الطريق ...

فاستعطفها بابتسامة قائلا :

— لانبالي أناس هذا الطريق ، فهم مجانين المال ، ولايرون إلا مافي رءوسهم من حسابات . هلا ملت إلى دكان صائغ فأنتقي لك منه حلية تليق بحسنك . . ؟

فاشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد :

— أتتظاهر بأنك لاتعبأ شيئاً ؟

فقال بهدوء والابتسامة لاتفارق شفتيه :

— لست أقصد إثارتك ، ولكني انتظرتك لنمشي معاً ، ففيم غضبك ؟

فقالت محذرة :

— إني أمقت هذا التهجم فاحذر أن تخرجني عن وعيي . .

وطالع نذر الشر فى وجهها فسألها فى رجاء :

— أتمدينى بأن نسير معاً ؟

فهتفت به :

— لا أعد شيئاً .. دع يدى ..

فأطلق يدها دون أن يبتعد عنها ، وقال لها متملقا :

— يالك من جبارة عنيدة ، هاك يدك ، ولكننا لن نفترق ، أليس كذلك ؟

وتنهدت فى غيظ ، ونظرت إليه شزراً وهى تقول :

— يالك من سمج مغرور !

فتقبل الشتيمة بابتسام وصمت ، وسارا جنبا لجنب دون أن تبتعد عنه ، وذكرت كيف تربصت له بالأمس القريب لتمثل به فى هذا الطريق ، ولكنها الآن لاتفكر فى هذا وحسبها أنها أجبرته على إطلاق يدها ، بل لعله لو حاول استردادها مرة أخرى لما مانعت ، وهل كانت غادرت بيتها وفى عقلها شىء غير لقائه ؟ ! . وفضلا عن هذا كله فقد ساءها أن يبدو أشد طمأنينة وجسارة منها فسارت إلى جانبه غير عابئة بالسابلة ، متخيلة ماسيحدثه منظره فى نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالحسد ، وسرعان ماعاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجامحة فى الحياة والمغامرة . . وراح الرجل يقول :

— إنى أعتذر عما بدر منى من خشونة ، ولكن ما حيلتى فى عنادك ؟ ! تعمدت تعذيبى ، وما أستحق إلا عطفك جزاء ما أكن لك من عاطفة صادقة وما أبذل فى سبيلك من عناء متصل ..

ماعسى أن تقول له ؟ إنها ترغب أن تخاطبه ، وأن تبادله الحديث ، ولكنها لاتدرى كيف ، خصوصاً وأن آخر ما نطقت به كان نهراً وشتيمة ، وقطع عليها تفكيرها أن رأت صويحباتها مقبلات غير بعيدات ، فقالت بارتياع كاذب :

— صاحباتى ... !

ونظر الرجل فيما أمامه فرأى الفتيات وقد ركزن عليه نظرات متفحصة .
وعادت تقول بلهجة تنم عن التأنيب ، وهى تدارى سرورها :

— فضحتنى . . !

فقال بازدراء ، وإن سره أن تلازم جانبه ، وأن تخاطبه خطاب الرفيق للرفيق ...

— لا عليك منهن ... فلا تباليهن ...

واقترب الفتيات ، فبادلتهن نظرات ذات معان ، وهى تذكر بعض ماقصصن عليها من مغامرات ، ثم مررن بهما متضاحكات متهامسات . وعاد الرجل يقول فى خبث ودهاء :

— أهؤلاء صاحباتك ؟ ... كلا ، لا أنت منهن ولا هن منك ، ولكنى أعجب كيف يتمتعن بحريتهن بينما تقبعين أنت فى البيت . وكيف يرفلن فى الثياب الزاهية بينما تلتحفين أنت فى هذه الملاءة السوداء ! كيف حدث هذا يامليحة ؟ ... أهو الحظ ؟ ولكن يالك من صابرة متجلدة . . ؟ !

وتورد وجهها ، وخيل إليها أنها تصغى إلى قلبها يتحدث ، وقبست عيناها جذوة من قلبها المستعر حماسا وعاطفة . واستدرك بثقة ويقين :

— هذا حسن خليق بالنجوم ...

وابتهلت هذه الفرصة لتبادله الحديث ، فعطفت نحوه رأسها مبتسمة بجرأتها الفطرية ، وتساءلت وهى لاتدرى مايعنيه :

— النجوم ؟ !

فابتسم إليها ابتسامة حلوة وقال :

— نعم . ألاتذهبين إلى السينما ؟ ... يدعون الحسناوات من الممثلات بالنجوم .

وكانت تذهب إلى سينما أوليمبيا مع أمها فى فترات متباعدة لمشاهدة بعض الأفلام المصرية ، فأدركت ما يعنيه ، وغمر شعورها سرور راقص لاحت آثاره الوردية فى خديها وساد الصمت خطوات ثم سألها برقة :

— ترى ما اسمك ؟

فقالت بلا تردد :

— حميدة . .

فقال مبتسما :

— أما الذى سحرت لبه ففرج إبراهيم ـ فى مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف ، وهو يعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنهما واحد ، أليس كذلك ياست الملاح ؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السبب والعراك مثلا ! . إنه يحسن الحديث ولكنها عاجزة عن مجاراته ، وقد ضايقها ذلك ، ولم تقنع بالدور السلبي الذى يلذ بنات جنسها ، وتشوقت بفطرتها إلى شىء آخر ، غير الانتظار والسكوت والحياء . ولما كان الإفصاح عن هذا الشعور الغامض غير ميسور ، فقد ساورها قلق وانفعال ، وحدجته بنظرة ثاقبة . وزاد من أسباب انفعالها أن انتهى الطريق ، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت ، ولم تر بدا من أن تقول وهى تدفن حسرتها فى أعماقها :

— الآن نعود .

فقال بإنكار

— نعود !

— هذه نهاية الطريق . .

فقال محتجا :

— ولكن الدنيا لا تنتهى بانتهاء الموسكى . لماذا لا نجول فى الميدان ؟

فقالت على رغمها :

— لا أريد أن أتأخر عن موعد عودتى أن تقلق أمى

فقال بإغراء :

— إذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة فى دقائق معدودات

تاكس ! . رنت الكلمة فى أذنيها رنينا عجيبا . ولم تكن ركبت فى حياتها

إلا العربة السكارو . ومضت ثوانى قبل أن تفيق من سحر الكلمة العجيبة ، بيد أن الأمر لا يخلو من اعتبار آخر هو ركوب التاكس مع رجل غريب ، إلا أنها وجدت فى هذا الاعتبار داعياً للهجوم لا للنكوص ، ولولاها نزوع طاغ إلى المغامرة ، كأنما لقيت فيه ترويحاً عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذى أعياها الإفصاح عنه قبل ذاك بقليل ، ولم تكن تدرى أن بها مثل هذه الطاقة على الاستهتار والمغامرة حتى ليتعذر القول أيهما كان أشد استحواذاً على مشاعرها فى تلك اللحظة : الرجل الذى حرك أعماقها أم المغامرة ذاتها ، ولعلهما كانا الاثنين معاً . ولاحت منها نظرة إليه فرأته ينظر إليها بإغراء وعلى شفتيه ظل من الابتسامة التى طالما أهاجتها فتغير شعورها وقالت :

— لا أريد أن أتأخر . .

فشعر بخيبة وقال متأسفاً :

— أتخافين . . . ؟

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد :

— لست أخاف شيئاً . .

فأضاء وجهه ، وكأنه عرف أشياء وأشياء ، وقال بسرور :

— سأدعو تاكس . .

وكفت عن المعارضة ، وثبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من موقفهما حتى وقف قبالتهما ، وفتح الباب لها ، فانحنت قليلا خافقة الفؤاد وهى تقبض على مساك ملاءتها ، وصعدت إليه . وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح « وفرنا تعب يومين أو ثلاثة أيام » . ثم سمعته يقول للسائق « شارع شريف باشا . . . » . شريف باشا ، لا المدق ولا الصنادقية ولا الغورية ولا حتى الموسكى ، شريف باشا ! . . ولكن لماذا عين هذا الشارع بالذات ؟ ! . . وسألته :

— أين تقصد ؟

فقال ، وكان كتفه يمس كتفها :

— نجول قليلا ثم نعود . . .

وتحرك التاكس فتناست كل شيء إلى حين ، حتى ذلك الرجل الذى يكاد يلتصق بها . وقلقت عيناها بين الأنوار التى تتخطفها ، فلاحت لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة . وانتقلت حركة التاكس إلى جسمها وروحها ، فانبعثت فى نفسها نشوة مطربة ، وتهيأ لها أنها تطير طيرانا ، وتحلق فى سماء الدنيا ، وكأن وجدانها من البهجة يسجع شاديا متجاوبا مع انسياب الحركة وتجدد المناظر والأنوار ، حتى تألقت عيناها بوميض مشرق ، وافتر ثغرها عن إشراق وذهول . وجرى التاكس فى خفة ، يخوض خضما من العربات والسيارات والترام والناس ، وجرى معه خيالها ، فاستحر حماسها ، وسكرت مشاعرها ، ورقص قلبها ودمها وخواطرها . ثم أفاقت إفاقة مباغتة على صوته يهمس فى أذنها قائلا « انظرى إلى الحسان كيف يرفلن فى ثيابهن النورانية ! » . أجل . . . إنهن يتمايلن مبعثرات كالكواكب المنيرة . . . ما أجملهن ، ما أبدعهن ! . وذكرت عند ذاك فحسب ملاءتها وشبشبها فانقبض قلبها ، واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب . وعضت على شفتها فى امتعاض ، ثم علكتها مرة أخرى روح التمرد والثورة والعراك ! . وتنبهت إلى إنه التصق بها وهى لا تدرى ، فأخذت تستشعر مسه الذى انتشر فى حواسها ، وحمى به قلبها ، فهفت إليه بقوة فوق إرادتها . ورنا إليها بلحظ كأنما يستطلع ميولها ، ثم تناول راحتها بلطف وجعلها بين راحتيه ، وتشجع باستسلامها فهوى بفمه إليها . وكأنها أرادت أن تتقيه فألقت برأسها إلى الوراء قليلا ، ولكنه لم يجد فى ذلك رادعا كافيا فطبع شفتيه على شفتيها وسرت فى أعماقها رعدة ، وشعرت برغبة جنونية تدعوها إلى أن تعض شفتيه حتى تدميها ! . . . رغبة جنونية حقا ، ركبتها كما يركبها عفريت العراك ، ولكنه ارتد عنها قبل أن تنفذها ! ولبثت شعلة الجنون متأججة

فى صدرها تهيب بها إلى أن ترتمى على صدره وتنشب أظافرها فى رقبته ، حتى أنقذه منها صوته وهو يقول برقة :

— هذا شارع شريف باشا . . . وهذا بيتى على بعد خطوات ، ألا تحبين أن تريه ؟ !

والتفتت متوترة الأعصاب إلى حيث تومىء سبابته فرأت عمارات تناطح السحاب لم تدر أيتها يعنى . وأمر الرجل السائق بالوقوف أمام واحدة منها ، وقال لها :

— فى هذه العمارة . . .

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق المدق ، ثم ارتد عنها طرفها فى حيرة ، ثم سألت بصوت منخفض :

— فى أى طابق . . ؟

فقال مبتسما :

— الأول . لن تتجشمى مشقة إذا تفضلت بزيارتها . . .

فرمقته بنظرة حادة منتقدة فاستدرك قائلا :

— ما أسرع غضبك ! . . ومع ذلك دعينى أسألك ما وجه العيب فى ذلك ؟ ألم أزرك دواماً منذ وقعت عليك عيناى فلماذا لا تردين الزيارة ولو مرة واحدة ؟

ماذا يريد الرجل ؟ . . أتحدثه نفسه بأنه وقع على صيد سهل ؟ ، . . أأطمعته القبلة التى استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر ؟ . . هل أعماه غروره وشعوره بالظفر ؟ ! . . وهل هذا مآل الحب الذى أفقدها وعيها ؟ ! . واشتعل الغضب بقلبها ، وتوثبت جميع قواها للنضال والتحدى ، وتمنت لو تطاوعها نفسها على السير معه إلى حيث يريد ، لتريه من نفسها ما يجهل ، ولترد إليه صوابه . أجل ، دعاها شعورها المتمرد الجامح إلى خوض غمار هذه المعركة . وهل كان فى وسعها أن تدعى إلى النزال ثم تعرض عن الداعى ؟ ! لم يكن الذى يستفزها غضب للفضيلة أو الخلق أو الحياء فهذه جميعها اعتبارات لم

تألف الغضب لها أو الغيرة عليها ، ولكنه غضب لكبريائها وشمورها الطاغي بقوتها ورغبتها الجنونية في الملاحاة والعراك ، ولم تخل أيضاً من جنون المغامرة الذي قذف بها إلى التاكس ! وجعل الرجل ينعم إليها النظر وهو يقول لنفسه في تفكير وسخرية معاً : « محبوبتي من النوع الخطر الذي يفرقع باللمس فيستوجب الدهاء الشديد والترويض الساحر » ، ثم قال لها برجاء ورقة :

— أرجو أن أقدم لك قدحاً من الليمون . .

ورمته بنظرة قاسية متحدية ، ثم غمغمت :

— لك ما تشاء . .

وفتح الباب مسروراً ، وانزلق إلى الطريق ؛ وتبعته على الأثر باستهانة وجرأة ، ووقفت تتفحص المكان والرجل يدفع الأجرة للسائق . وجرت خواطرها إلى الزقاق الذي خرجت منه اليوم ، وعجبت للمغامرات التي اقتحمتها غير هيابة حتى انتهت إلى هذه العمارة الهائلة ! . من يصدق هذا ؟ ! . وما عسى أن يقول السيد رضوان الحسيني مثلا لو رآها تمرق إلى هذه العمارة ؟ . وارتسمت ابتسامة على شفتيها ، وداخلها شعور غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق .

وهرع الرجل إليها ، وأخذ يدها ، فدخلا إلى العمارة معاً . وارتقيا سلماً عريضاً إلى أول طابق ، ثم سارا في ردهة طويلة إلى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحا عالج به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح : « اكتسبت يوما أو يومين آخرين ! » ، ثم دفع الباب وأوسع لها ، فدخلت ودخل وراءها ، ثم أغلقه . وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحدق به الحجرات من الجانبين ، ويضيئه مصباح كهربائي قوى الإشعاع . ولم تكن الشقة خالية ، فضلا عن المصباح الذي كان مضاءاً قبل مجيئهما ترامت إلى أذنيها أصوات من وراء الأبواب المغلقة ، كلام وزعق وغناء ! . واتجه فرج إبراهيم إلى الباب قبالة المدخل ودفعه ، ودعاها للدخول ،

فانتقلت إلى حجرة متوسطة ، مؤثثة بمقاعد جلدية ما بين كراسى وكنبات ، تتوسطها سجادة مربعة مزركشة ، وفى الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف ، وتنهض على منضدة مستطيلة مذهبة الأرجل . وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة فى عينيها بسرور وقال لها بلطف :

— اخلعى ملاءتك وتفضلى بالجلوس . .

فاقتعدت كرسيا دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها إلى مسنده ومقعده الطريين ، وتمتمت بلهجة تنم عن التحذير :

— ينبغى ألا أتأخر . .

فمضى إلى مائدة أنيقة وسط الحجرة قام عليها « ترموث » وفض سدادته وأفرغ منه فى قدحين (شراب الليمون المثلوج) ، وقدم لها قدحاً وهو يقول :

— سيعود بك التاكس فى دقائق . .

وشربا معاً حتى رويا ، ثم أعاد القدحين إلى المائدة ، وفى أثناء ذلك استرقت إليه نظرات فاحصة ، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق ، وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعها جمالها وجاذبيتها ؛ كانت جميلة التكوين ، رشيقته ، سبطة الأنامل ، توحى بالقوة والجمال معاً ، فنالها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرته من قبل. وجعل يطيل النظر إليها مبتسما ابتسامة رقيقة كأنما يطمئنها ويشجعها ، ولكنها لم يداخلها ظل من الخوف وإن توترت أعصابها قليلا من الحذر والتوجس والتوثب ، وذكرت الأصوات التى سمعتها حال دخولها الشقة ، فعجبت كيف أنسيتها ، وسألته :

— ما هذه الضوضاء فى الشقة ؟

فأجابها قائلا وكان لا يزال واقفاً قبالتها :

— بعض الأهل وسوف تعرفينهم فى الوقت المناسب . . . لماذا لم تخلعى ملاءتك ؟ . .

وكانت ظنته يقيم بمفرده حين دعاها إلى بيته ، فعجبت كيف يقودها

إلى بيت مأهول . وتجاهلت سؤاله الأخير ، ولبثت ترنو إليه بسكينة وتحد . ولم يعاود سؤاله ، ولكنه اقترب منها حتى مس حذاؤه شبشبها ، ومال نحوها قليلا ثم مد يده إلى يدها فشد عليها ، وجذبها برقة وهو يقول :

— هلمى نجلس على الكنبة .

ولم تمانع فنهضت قائمة إلى حيث جلسا جنبا لجنب على كنبة كبيرة . وكانت تتقاسمها فى تلك اللحظة مشاعر الميل إلى الرجل الذى تحبه وأحاسيس التحدى للرجل الذى قد تمنيه نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها . واقترب الرجل منها رويداً حتى لاصقها ، ثم أحاط خاصرتها بذراعه ، وهى مستسلمة ساكنة لا تدرى متى يحق لها المقاومة ، ومد يسراه إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بفمه متمهلا كأنه ظمآن يكرع من جدول ، حتى التقت الشفاه . وطال التقاؤها كأنما أخذتهما سنة من الغرام . وأما هو فكان يستجمع حرارته وقوته فى شفتيه لينفذ بهما إلى ما يريد ، أما هى فكانت تسكر وتثمل ، إلا أن توثبها أفسد عليها رقية السحر التى تحرق شفتيها فظلت متنبهة متربصة . وأحست يده تسترخى عن خاصرتها ، وترتفع إلى منكبيها ، ثم تهفو الملاءة عنه ، فخفق فؤادها بعنف ، وتصلب عنقها مبتعداً عنه ، وأعادت الملاءة بحركة عصبية إلى موضعها وهى تقول بجفاء :

— كلا . . .

ونظر إليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق بالإباء والعناد والتحدى ، فابتسم متبالها وهو يقول لنفسه « هى كما ظننت متعبة ، بل متعبة جداً » . . ثم خاطبها قائلا بصوت منخفض :

— لا تؤاخذينى يا عزيزتى فقد نسيت نفسى . . .

وأدارت وجهها عنه لتخفى ابتسامة ارتسمت على شفتيها سروراً بالظفر ، ولكن ذلك لم يطل أمده فقد وقع بصرها اتفاقا على يدها فأدركت لأول وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة ويدها الخشنة ، وتولاها الحياء ثم قالت له باستياء :

— لماذا جئت بي إلى هنا ؟ . . . هذا شيء سخيف !

فقال معترضا بحماس :

— هذا أجمل شيء فعلته في حياتي ! . . . لماذا تستوحشين من بيتي ! . أليس هو بالتالي بيتك أيضا ؟ ! .

ولاحت منه نظرة إلى شعرها وقد انحسرت عنه الملاءة ، فأدنى رأسه ولثمه قائلا :

— لله ما أجمل شعرك ! . . . إنه أجمل شعر رأيته في حياتي .

قال ذلك صادقا على رغم رائحة الغاز التي ذابت في أنفه ، فلذها اطراؤه بيد أنها سألته :

— إلام نبقى هنا ؟

— حتى يتم التعارف بيننا ، فلدينا بلا ريب أشياء وأشياء ينبغي أن نقولها . أخائفة أنت ؟.. محال ! . . أراك لا تخافين شيئا !

فغلبها السرور حتى اشتهت أن تقبله ، ورنق الصفاء في صدرها . وكان يتفرس في وجهها فقال لنفسه « الآن فهمتك يا ابنة اللبؤة ! » ثم قال لها بصوت تنتفض نبراته حرارة :

— لقد اختارك قلبي ، وقلبي لا يكذبني . ومن يجمعهما الحب لا يفرقهما شيء ، فأنت لي وأنا لك . . .

وأدنى وجهه منها كالمستأذن ، فمالت بعنقها نحوه فالتقيا في قبلة عنيفة ، واستشعر ضغط شفتيها الساحر على شفتيه يكاد يعصرهما ، فهمس في أذنها :

— محبوبتي . . . محبوبتي . . .

وزفرت من الأعماق ، ثم اعتدلت في جلستها لتسترد أنفاسها . وراح يقول برقة بالغة في صوت كالهمس :

— هنا مكانك ، وهذا بيتك ، بل هذا (وأومأ إلى صدره) مأواك . . .

فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

— أراك تذكرني بأنه ينبغي أن أعود الآن إلى البيت . . .

وكان فى الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل ، فقال بإنكار :

— أى بيت تعنين ؟ . . بيت الزقاق ! . . . آه ، ليتك تمسكين عن ذكر ذاك الحى جميعاً . ماذا يعجبك فى هذا الزقاق ؟ . . لماذا تعودين إليه ؟ !

فضحكت الفتاة قائلة :

— كيف تسألنى عن هذا ؟ ! . أليس هو بيتى وأهلى ؟ !

فقال بازدراء :

— لا البيت بيتك ، ولا الأهل أهلك . إنك من طينة أخرى يامحبوبتى ، ومن الكفر أن يعيش جسم حى نضير فى مقبرة مليئة بالعظام النخرة . ألم ترى إلى الحسان يرفلن فى الثياب الفاخرة ؟ وإنك لتفوقينهن جمالا وفتنة ، فكيف لا تخطرين مثلهن فى المطارف والحلى ؟ . . إن الله أرسلنى إليك لأرد إلى جوهرك النفيس حقه المسلوب . وعلى ذلك أقول إن هذا بيتك وكنى . . .

لعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان ؛ فخدر شعورها ، وتقارب جفناها ، ولاحت فى عينيها نظرة حالمة . ولكنها تساءلت ماذا يعنى ياترى ؟ . . . هذا حقا ما يهفو إليه فؤادها ، فما السبيل إلى تحقيق الأحلام وتقريب المنى ؟ . . لماذا لا يفصح عما يريد ويصرح بما ينوى ؟ . . إنه يعبر أروع تعبير عن آمالها وأحلامها ورغباتها ، إنه ينطق بلسانها الخفى ويشى بأعماقها جميعاً ، إنه يجلو الغامض الخفى ويجسم المعروف حتى لكأنها تراه رؤية العين ، إلا شيئا واحداً لم يمسسه صراحة ، ولم يقتحم السبيل إليه ، فما حكمة التردد ياترى ؟ ! . ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الجسورتين وسألته :

— ماذا تعنى . . ؟

فشعر الرجل بأنه ينتقل إلى مرحلة خطيرة من مراحل خطته المرسومة ، ورماها بنظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت .

— أعنى أن تبقى فى البيت اللائق بك ؛ وأن تتمتعى بأسعد ما تجود به الحياة . .

وضحكت ضحكة قصيرة فى ارتباك وحيرة وتمتمت :

— لاأفهم شيئاً ...

فمسح على مفرق شعرها بحنان ، متموذاً بالصمت ريثما يرتب أفكاره ثم قال :

— لعلك تتساءلين كيف يريدنى على أن أبقى فى بيته ؟ ! . . فأذنى لى أن أسألك بدورى لماذا تعودين إلى المدق ؟ . . ألتنتظرين هنالك شأن الفتيات البائسات حتى يتعطف رجل من مخلوقات الزقاق فيتزوجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغض ثم يتركك لقى فى الزبالة ؟ ! . لست أحادث فتاة بلهاء تذهب بها كلمة فارغة وتجىء بها أخرى ، ولكنى أعلم علم اليقين أنك شابة قليلة الأشباه ، جمالك فتان ، ومع ذلك فهو مزية واحدة بين مزايا عديدة تكاد تغطى عليه . أنت الجسارة نفسها ، ومثلك إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ...

وانكفأ لونها ، وجمدت قسماتها ، فقالت بحدة :

— هذه دعابة لا تجوز على ! . . بدأت مازحا ؛ وانتهيت وكأنك جاد .. !

— دعابة؟ ! . . لا والله ، لا وحق قدرك عندى . أنا لا أداعب حين أجد خاصة شخصا مثلك ملأنى تقديراً واحتراما وحباً . وإذا صدق حدسى فأنت قلب كبير يستهين بكل شىء فى سبيل سعادته ، ولا يمكن أن تقف فى سبيله عقبة . إنى أريد شريكا فى حياتى ، وإنك لشريكى دون الناس جميعاً ...

فهتفت به فى انفعال شديد :

— أى شريك ؟ ! . . إذا كنت تجد حقاً فماذا تريد ؟ .. الطريق بين . فإذا أردت . . .

وكادت تقول « أن تتزوجنى » ولكنها أمسكت ، وسددت نحوه نظرات حادة مريبة ، فلم يفته مرادها ، واستشعر سخرية باطنة ، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من التراجع ، فقال بحماس تمثيلى :

— أريد شريكا محبوباً نقتحم الحياة معا . حياة النور والثروة والجاه

والسعادة ، لا حياة البيت التعسة والحبل والولادة والقذارة ، حياة النجوم اللاتى حدثتك عنهن . .

وفتحت فاها منزعجة ، ثم انبعث من عينيها نور مخيف ، واصفرت غضباً وحنقاً ، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام ظهرها :

— تدعونى للفساد ! . . يالك من مفسد أثيم ...

هكذا هدرت فى غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التى دهمتها والخيبة التى أدركتها أكثر منه للفساد الذى لم تعتد أن تثور له ! .

وتبسم الرجل كالهازىء وقال :

— إنى رجل ...

ولكنها قاطعته صارخة مدفوعة بطبعها الحامى :

— لست رجلا ، بل أنت قواد ..

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك :

— أليس القواد رجلا أيضاً ؟ ! .. بلى ... وهو رجل — وحق جمالك الفتان — ولا كل الرجال . وهل تجدين عند الرجل العادى غير وجع الدماغ ! ؟ أما القواد فهو سمسار السعادة فى هذه الدنيا ! . ولكن لاتنسى أنى محبك كذلك . لا تدعى الغضب يحطم حبنا . إنى أدعوك للسعادة والحب والجاه . ولو كنت فتاة بلهاء لخادعتك ، ولكنى قدرتك فآثرت معك الصراحة والحق . إن كلينا من معدن واحد ، خلقنا الله للحب والتعاون ، فإذا اجتمعنا اجتمع لنا الحب والمال والجاه ، وإذا افترقنا افترقنا للشقاء والفقر والذل ، أوافترق أحدنا — على الأقل — لذلك ...

ولم تتحول عنه عيناها ، وراحت تتساءل فى ذهول كيف تمخض عن هذا ؟ ! ولبث صدرها يجيش بالهياج والانفعال ، ومن عجب أنها ثارت به ووجدت عليه وتغيظت منه ، ولكنها لم تحتقره ، ولم تنفك عن حبه لحظة واحدة ! . لا بل لم تنس — حتى فى عنفوان هياجها — أنها تصارع الرجل الذى لقنها الحب وثبته فى أعماقها . وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة فى حركة عنيفة وقالت فى سخط وغيظ :

— لست كما تظن ...

فتنهد بصوت مسموع متكلفاً الحزن ، وإن لم تخنه ثقته شأن رجال الأعمال ، وقال بصوت أسيف :

— لا أكاد أصدق أنى انخدعت بك . رباه ! أتصبحين يوماً من عرائس الدق ؟! حبل وولادة ، وحبل وولادة ، إرضاع أطفال على الأرصفة ، ذباب وبصارة وفول ، ذبول وترهل ؟! ... كلا ، كلا .. لا أريد أن أصدق هذا ...

فصاحت به غير متمالكة نفسها :

— كفى ...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعا ، ولحق بها وهو يقول برقة « رويدك » ، ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب ، وخرجا معاً . جاءت سعيدة غير هيابة ، وذهبت مهيضة ذاهلة . ووقفا أمام الباب الخارجى حتى جاءهما غلام بتاكس ودخلاه كل من باب ، ومضى بهما مسرعا . ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا ، وجعل يسترق إليها النظر صامتاً دون أن يجد حكمة فى خرق الصمت المخيم . وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكس منتصف الموسكى ، فأمر السائق بالوقوف . وتنبهت على صوته فألقت ببصرها إلى الخارج ثم تزحزحت قليلا استعداداً للنزول ، فوضع يده على أكرة الباب ليفتحه لها ، ولكنه تريث قليلا ، ثم مال نحوها فلثم منكبها وهو يقول :

— سأنتظرك غداً ...

فابتعدت عن الباب وهى تقول باقتضاب وحدة :

— كلا ...

فقال ويده تدير الأكرة :

— سأنتظرك يامحبوبتى ... وستعودين إلى ...

ثم قال لها وهى تغادر التاكس :

— لا تنسى الغد ، سنبدأ حياة جديدة رائعة . . . أحبك . . . أحبك أكثر من الحياة نفسها ...

وراح يرقبها وهى تبتعد متعجلة ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه « مليحة بلا أدنى شك ، وهيهات أن يكذبنى ظنى ، فهى موهوبة بالفطرة ... هى عاهرة بالسليقة ... وسوف تكون درة نادرة المثال . . . »

٢٤

سألتها أمها :

— لماذا تأخرت ... ؟

فأجابتها بلا مبالاة :

— دعتنى زينب إلى بيتها فذهبت معها .

فبشرتها المرأة بأنهما سيشهدان عرس الست سنية عفيفى عما قريب ، وأخبرتها أن الست ستهدى إليها فستاناً لحضور الزفاف ، فتظاهرت حميدة بالسرور ، وجلست تصغى إلى ثرثرة أمها ساعة طويلة ، ثم تناولتا عشاءهما وأوتا إلى حجرة النوم ، وكانت حميدة تنام على كنبة قديمة ، أما أمها فتفرش حشية على أرض الغرفة وتستلق عليها ولم تكد تمضى دقائق حتى راحت الأم فى نوم عميق ، وملأت الحجرة شخيراً . ولبثت حميدة محملقة فى النافذة المغلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد . استحضرت ذاكرتها حوادث يومها العجيب فلم يفتها منه حركة أو سكنة أو كلمة ، وعاش فى خيالها مرة أخرى . وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل ، فشعرت على رغم قلقها الراهن بسرور غير خاف ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن فى غرائزها . ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهى راجعة إلى زقاقها « ياليتنى لم أره ! » . ولكنه كان قول

لسان لم يجد له صدى فى قلبها . والحق إنها عرفت من نفسها ذلك اليوم مالم تستطع معرفته مدى عمرها . وكأن هذا الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفى من ذاتها ويبسطه لناظريها كمرآة مصقولة . بيد أنها قالت له « كلا » وهى تفارقه ، وربما لم يكن لها عن هذا القول مذهب ؛ ولكن ما معناه على وجه التحقيق ؟ ! أليس معناه أن تقبع فى بيتها مترقبة عودة عباس الحلو ؟ ! .

زباه ، لم يعد للحلو مكان فى نفسها ، امحى أثره ، وتبدد رجع صداه . وليس الحلو فى الواقع إلا هذا الزواج التعس ، وما يعقبه من حبل وولادة وإرضاع على الأرصفة وذباب ، إلى آخر هذه الصورة البشعة المقوتة . أجل . لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر فى نفسها شأن الفتيات من أترابها ، ولم تكن نسوة الزقاق بمتجنيات عليها فيما رمينها من قسوة وشذوذ ، فماذا تبتغى إذاً ؟ ! . . . وخفق قلبها خفقانا متتابعاً فعضت على شفتيها حتى كادت تدميهما . إنها لتعلم ما تبتغى ، وبما تهفو إليه نفسها . كان يجرى قبل اليوم فى شعورها متقلقلا بين النور والظلمة ؛ ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جلياً لا لبس فيه ولا إبهام ومن عجب أنها لم تعان — فى سهادها — ترددا خطيراً فيما ينبغى أن تختار من سبيل ، ولم تشعر كثيراً بوطأة التجاذب بين ماضيها وحاضرها ، أو بين ما فى حياتها من خير وما يتصدى لها من شر ، بل الحق إنها اختارت سبيلها بالفعل وهى لا تدرى ، ووقع اختيارها عليه وهى بين يدى ذلك الرجل ، فى بيته ! كان لسانها يهدر غضبا وأعماقها ترقص طرباً ؛ كان وجهها يربد ويعبس وأحلامها تتنفس وتمرح ! . . وفوق هذا كله فإنها لم تمقته لحظة واحدة ، لا بل لم تحتقره قط وكان — كما لم يزل — حياتها ومجدها وقوتها وسعادتها ! . لم يثر حنقها إلا إدلاله بثقته وهو يقول لها « ستعودين إلى » ! .

أجل . ستعود ، ولكنه ينبغى أن يؤدى ثمن هذه الثقة الوقحة غالياً . فليس حبها عبادة وخضوعاً ، ولكنه معركة يحتدم أوارها ويتطاير شررها . طالما اختنقت فى هذا البيت ، وهذا الزقاق ، وهيهات أن يعتاقها عائق بعد

اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه والسلطان ، وهل من سبيل إلى الإفلات من ربقة الماضى إلا عن يد هذا الرجل الذى أوقد فى خيالها ناراً ؟ ولكنها لن تهرع إليه فى خشوع وإذعان هاتفة « إنى عبد يديك فافعل بى ما تشاء » لأنها لا تعرف هذا الحب . كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة « إنى سيدتك فتخشع بين يدى » . فما أزهدها فى الحب الناعم أو الحبيب الخرع . ولكنها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالآمال والرغبات ، ولسان حالها يقول : « إنى قادمة بقوتى فلاقنى بقوتك ، ولنتناطح إلى الأبد فى سعادة تجل عن الوصف ، ثم متعنى بما منيتنى به من جاه وسعادة . لقد وضح السبيل بفضله هو ، وهيهات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها .

ومع ذلك فلم تخل ليلتها من أفكار نغصت عليها عزمتها بعض التنغيص . تساءلت « ترى ماذا يقولون عنى غداً ؟ » وجاءها الجواب فى كلمة واحدة : عاهرة ! . وتقبض قلبها حتى جف ريقها وذكرت كيف تلاحت مرة مع واحدة من صويحباتها بنات المشغل فسبتها صارخة « ياربيبة الشوارع . . ياعاهرة ! » . معيرة إياها بالعمل كالرجال والتسكع فى الشوارع . فما عسى أن يقال عنها هى ؟ ! . . وداخلها الحزن والأسى ، فتململت فى رقادها جزعا وضيقاً . ولكن شيئا فى الوجود لم يكن ليثنيها عما اعتزمت ، أو يلوى بها عما اختارت ، فقد اعتزمت بقوة أعماقها ، واختارت بمجامع قلبها ، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع إلا ما يعوق المنحدر إلى الهاوية من دقاق الحصا .

ثم انتقل تيار أفكارها فجأة إلى أمها ، فالتفتت نحوها وقد ملأ أذنيها شخيرها الذى كان غاب عنها ساعة طويلة ، فتصورتها فى غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشفت على اليأس . وذكرت كيف أحبتها المرأة حباً صادقاً لم يترك فى قلبها إحساسا — وإن قل — بالحرمان من الأمومة ، وكيف أحبتها هى أيضاً على كثرة ما شجر بينهما من نزاع وشقاق ، وكأنما خافت أحاسيس

العطف التى أخذت تدب فى نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها «لا أب لى ولا أم ، وليس لى فى الدنيا سواه » ، وولت الماضى كشحها ، ولم تعد تفكر إلا فى الغد وما عسى أن يتكشف عنه . ثم أمضها السهاد ، وشعرت بحرارته تصهر جفونها ودماغها ، فتمنت أن ينقذهـا النوم من عذابه وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما إلا على نور الصباح . وأهابت بإرادتها أن تنش عن رأسها ما ينثال عليه من خواطر ، فنجحت فى طردها إلى حين ، ولكنها تنبهت إلى الأصوات المتصاعدة من قهوة كرشة ، ووقعت من نفسها موقعا مثيرا ، فراحت تلعنها وتتهمها بتطيير النوم من عينيها . وجعلت تنصت إليها على رغمها ، وتسب محدثيها فى حنق وغضب . « ياسنقر غير ماء النرجيلة » . . هذا صوت الفاجر الحشاش كرشة . « يا سيدى ربك يمدلها » وهذا عم كامل الحيوان الأعجم . « ولو . . كل شىء له أصل » . . هذا الأعمش القذر الدكتور بوشى . وتمثل لها حبيبها — على غرة — بمجلسه المختار ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش ، وتخيلته وهو يشير إليها بقبلاته تخفق فؤادها ، ثم استحضرت ذاكرتها صورة المارة الماثلة ؟ والحجرة الرائعة ، وسرعان ما طن صوته فى أذنيها وهو يهمس قائلا : « ستعودين إلى . . » . رباه ! متى يرحمها النوم ؟ « السلام عليكم يا إخوان » . . هـذا صوت السيد رضوان الحسينى الذى أشار على أمها برفض يد السيد علوان قبل أن يهتصره المرض ، ترى ماذا يقول عنها غدا إذا تناهى إليه الخبر ؟ . ليقل ما يشاء ، ولعنة الله على الحى جميعا ! . وانقلب الأرق صداعا وسقما ، ومضت تتقلب على جنبيها وبطنها وظهرها ، ومضى الليل بطيئا ثقيلا مرهقا مضنيا يزيده هولا خطورة الغد المرتقب . وقبيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه عند الضحى . وبادرها الصحو بأفكارهـا جملة كأنما سبقتها إلى اليقظة بوقت طويل ، ولكن لم يساورها التردد وتساءلت فى جزع : متى يأتى المغيب ! . وقالت لنفسها إنها الآن زائرة عابرة فى المدق ، لا هى منه ولا هو منها كما قال الحبيب . ونهضت كعادتهـا ففتحت النافذة ،

وطوت حشية أمها وكومتها فى ركن الحجرة ، ثم كنست الشقة ، ومسحت الردهة الخارجية ، وتناولت فطورها على انفراد لأن أمها كانت قد غادرت البيت إلى شئونها التى لا تنتهى ، ثم مضت إلى المطبخ فوجدت عدساً فى طبق تركته أمها لتطبخه غداء ليومهما ، فعكفت على تنقيته وغسله ، وأوقدت الكانون وخاطبت نفسها بصوت مرتفع قائلة « هذه آخر طبخة فى هذا البيت ، وربما كانت آخر طبخة فى حياتى . . . ترى متى آكل العدس مرة أخرى ؟ ! » . ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم أنه غذاء الفقراء وشعار موائدهم ، كذلك لم تكن تعلم شيئاً عن طعام الأغنياء إلا أنه لحم ولحم ولحم . وأنشأ خيالها ينعم بتصور غذاء المستقبل وكسائه وزينته حتى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة حالمة . وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمام تستحم ، ثم مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته ضفيرة غليظة طويلة أرسلتها وراء ظهرها حتى مست أهدابها أسفل فخذيها . وارتدت خير ما لديها من ثياب ، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية البالى ، فتورد وجهها البرنزى وعجبت كيف تزف إليه فى مثل هذه الثياب ، واربد وجهها وهاج صدرها ، فصممت على ألا تسلم إليه حتى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة أخرى جديدة زاهية . وطاب لها هذا الرأى ؛ وصادف من نفسها — التى تأبى الهوى إلا فى حومة العراك والعناد — هوى ولذة . ثم وقفت فى النافذة تلقى على حيها نظرات الوداع . وجعل بصرها يتردد بين معالمه بغير توقف : الفرن ، قهوة كرشة ، دكان عم كامل ، دكان الحلاق ، الوكالة ، بيت السيد الحسينى ؛ والذكريات تيممها النظرات كأنها الشمعلات يممها حك أعواد الثقاب .

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى صدرها بعطف أو مودة لا للزقاق ولا لأهله . وكانت أسباب الجوار والصداقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحى كأم حسين — أمها بالرضاعة — والفرانة ، حتى امرأة السيد رضوان الحسينى لم تسلم من لسانها ، فقد

بلغها يوما أنها وصفتها ببذاءة اللسان ، فتربصت بها حتى رأتها يوما على سطح بيتها تنشر الغسيل فصعدت إلى السطح وثبا — وكان السطحان متلاصقين — واقتربت من السور وجعلت تعرض بالمرأة قائلة بتهكم وازدراء « أسفي عليك يا حميدة من فتاة بذيئة اللسان ، غير جديرة بمعاشرة الهوانم من ستات المدق بنات الباشوات ! » ولكن المرأة آثرت السلامة ، وتعوذت بالصمت . وقد ثبتت عيناها غير قليل على الوكالة فذكرت كيف طلب السيد سليم علوان يدها ، وكيف نملت بأحلام الثراء يوما وبعض يوم ! . لكم احترقت حسرة على ضياع هذا الرجل من يديها ! . ولكن شتان بين رجل ورجل ! . فإذا كان سليم علوان قد حرك — بثروته — جانبا من قلبها ، فهذا الذى حرك قلبها كله حتى كاد يقتلعه . وعادت عيناها إلى دكان الحلاق فذكرت عباس الحلو ، وتساءلت ترى ماذا يفعل إذا رجع يوما من مهجره فلم يعثر لها على أثر ؟ ! وذكرت وداعه الأخير على السلم بقلب متحجر وعجبت كيف منحته شفتيها يقبلهما ؟ ! ثم ولت النافذة ظهرها ومضت إلى الكنبة أشد ما تكون عزما وتصميما . ورجعت أمها إلى البيت ظهرا ، فتناولتا غداءهما معا . وقالت لها المرأة فى أثناء الطعام : « لدى زيجة مهمة ، إذا وفقت فيها ، فتح الله علينا » فاستفسرت عن هذه الزيجة المرجوة بفتور ، ولم تكد تلقى لما قالت بالا ، وكثيرا ما كانت تقول مثل ذلك ثم يتمخض الرجاء عن بضع جنيهات وأكلة لحم ! ، أو أكلة لحم فحسب بالنسبة لها . ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلا ، تربعت هى على الكنبة وراحت تطيل إليها النظر . هذا يوم الوداع ؛ وربما لن تقع عليها عيناها بعد الآن . ولأول مرة عراها الضعف فدرت حناياها عطفا للمرأة التى آوتها وتبنتها وأحبتها ولم تعرف سواها أما ، وتمنت لو تستطيع أن تقبلها قبلة الوداع .

وجاءت ساعة الأصيل فتلفعت بملاءتها وانتعلت شبشبها . وكانت يداها ترتعشان انفعالا واضطرابا ، وقلبها يخفق بشدة . ولم يكن بد من أن تفارق أمها بغير وداع ، فامتعضت ، ثم رأتها آمنة لا تدرى شيئا عما يخبئه

لها الغد فازداد امتعاضها . وحم الرحيل فألقت عليها نظرة طويلة ثم قالت وهى تهم بالمسير :

— فتك بعافية . . .

فقالت لها المرأة وهى تشعل سيجارة :

— مع السلامة . . لا تتأخرى ...

وغادرت البيت تلوح فى وجهها أمارات الجد والاهتمام ، وقطعت المدق لآخر مرة لا تلوى على شيء ، وسارت من الصنادقية إلى الغورية ، ثم انعطفت صوب السكة الجديدة وتقدمت فى خطوات متمهلة . وأرسلت بصرها بعد تردد وإشفاق ... فرأته بموقف الأمس ينتظر ! ... التهب خداها واجتاحتها موجة صاخبة من التمرد والغضب وودت من أعماقها أن تثأر من ظفره هذا ثأراً يرد عليها بعض سكينتها . وغضت بصرها ، ثم تساءلت أتراه يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة ؟! ... ورفعت عينيها بترفزة ، ولكنها وجدته هادئاً جاداً رزيناً يلوح فى عينيه اللوزيتين الرجاء والاهتمام فانفثأ هياجها قليلا . ومرت به وهى تتوقع أن يخاطبها ، أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس ، ولكنه تجاهلها ؛ وتريث قليلا حتى غيبها المنعطف ، ثم تبعها متمهلا ، فأدركت أنه بات أشد حذرا ، وأعظم شعورا بخطورة الأمر . وسارت حتى أوشكت السكة الجديدة أن تنتهى ، ثم توقفت بغتة كأنما ذكرت شيئا جديدا ، وانفتلت راجعة ، فتبعها قلقا وهمس لها متسائلا :

— ماذا أرجعك ؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد سامها النطق عناء :

— بنات المشغل . .

فقال بارتياح :

— إلى الأزهر ، فلا يرانا أحد . .

وشقا طريقهما متباعدين ، وسارا فى شارع الأزهر فى صمت ثقيل ، وقد أدركت أنها أعلنت — بالكلمة التى نطقت بها — تسليمها النهائى .

وبلغا ميدان الملكة فريدة دون أن يخرجا من صمتهما الثقيل . ولم تعد تدرى أين تتجه فوقفت ، وسمعته فى اللحظة التالية ينادى التاكس ، وجاءت السيارة ففتح لها الباب ، ورفعت قدمها لتصعد إليها ، ففصلت هذه الحركة بين حياتين !.

وما كادت السيارة تنطلق بها حتى قال بصوت متهدج وبعبارة قاتمة :

— الله وحده يعلم كم تعذبت ياحميدة ! . . . لم أنم من ليلتى ساعة واحدة . أنت لا تدرين ياعزيزتى ما الحب . ولكنى اليوم سعيد ، بل أكاد أجن من الفرح . رباه كيف أصدق عينى ؟ ! . شكراً يا محبوبتى شكراً . والله لأجعلن من السعادة أنهراً تجرى تحت قدميك . . . ما أجمل الماس حول هذا الجيد (ومس جيدها برقة) . . ما أروع الذهب فى هذا الساعد (وقبل ساعدها) . . ما أفتن الروج فى هاتين الشفتين (وهوى برأسه ليقبل ثغرها ولكنها تحامته فلثم خدها) . . يالك من فاتنة نافرة . . !

واستراح قليلا ثم استدرك قائلا وعلى شفتيه ابتسامة :

— ودعى الآن عهد التعب ، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد اليوم ! . . . حتى ثدياك سيحملهما عنك رافع من الحرير . . !

ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تذمر أو احتداد ، وإن توردت وجنتاها ، واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التى تهرب بها من الماضى كله .

وانتهى التاكس إلى العمارة التى صارت مأواها ، فغادراه ، ومضيا مسرعين إلى الشقة ، وكانت كما وجدتها بالأمس ضاجة بالأصوات المنبعثة من الأبواب ، ثم دخلا الحجرة الرائعة . وقال ضاحكا :

— اخلعى الملاءة لنحرقها معا .

فغمغمت تقول وقد تورد وجهها :

— لم أحضر ملابسى . . .

فصاح بسرور :

— حسناً فعلت . . . لا نريد شيئاً من الماضى .

وأجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، ثم اتجه نحو باب أنيق إلى يمين المرآة المالية ، ودفعه عن مخدع وثير وهو يقول :

— حجرتنا . . .

ولكنها قالت بسرعة وحدة :

— كلا . . . كلا . . . سأنام هنا . . .

لحدجها بنظرة ثاقبة ، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم :

— بل تنامين فى الداخل وأنام أنا هنا . . .

وكانت تصمم فى نفسها على ألا تؤخذ كالماشية ، وألا تسلم حتى تشبع رغبتها فى العناد والإباء ، والظاهر أن رغبتها هذه لم تخف عن مكره ، لأنه دارى ابتسامة ساخرة ، وتظاهر بالإذعان والتسليم ، ثم قال لها بسرور وفخار :

— بالأمس ياعزيزتى دعوتنى بالقواد ، فاسمحى لى بأن أقدم لك نفسى على حقيقتها : محبك ناظر مدرسة ، وستعلمين كل شىء فى حينه . . .

٢٥

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق : « هذا وقت اجتماعهم فى القهوة ، وسيروننى جميعاً بلا أدنى شك ، وسيخبرون أبى بعقدى إذا عمى هو عنه » . كان الليل قد أرخى سدوله ، فأغلقت دكاكين المدق وخيم عليها السكون ، وضجت قهوة كرشة وحدها بالسمار . كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة ، منقبض الصدر ، متجهم الوجه ، يتبعه على الأثر فتى فى مثل سنه وفتاة فى مقتبل العمر . وكان حسين يرتدى قميصا وبنطلونا ، ويحمل فى يمناه حقيبة كبيرة ، وكذلك كان الفتى الذى يتبعه ، أما الفتاة فرفلت فى فستان أنيق — بلا معطف ولا ملاءة — وقد بدت فى مشيتها ذات وسامة ورشاقة وإن لم تخل من ابتذال يشى بطبقتها . واتجه حسين صوب بيت السيد رضوان الحسينى دون أن يلتفت ناحية القهوة ، ودخل

البيت يتبعه رفيقاه . ثم رقوا السلاليم حتى الطابق الثالث ، ودق الفتى باب الشقة وقد ازداد وجهه تجهما ، فسمع وقع أقدام تقترب ، ثم فتح الباب وبدت أمه وراءه تقول بصوتها الخشن « من ؟ » ، ولم تعرف الشبح الماثل أمامها لشدة الظلمة . فقال حسين بصوت منخفض :

— حسين !

وهتفت المرأة وهى لا تكاد تصدق أذنيها :

— حسين ! ... ابنى !!

وهرعت إليه ، وأمسكت بذراعيه ، وقبلته ، وهى تقول بحرارة :

— عدت يا بنى ! ... الحمد لله ... الحمد لله الذى أثابك إلى رشدك وحماك من وسوسة الشيطان ، ادخل بيتك (وضحكت فى انفعال) . ادخل يا غادر ... لكم أقضضت مضطجعى ، وقطعت قلبى ...

ودخل الشاب مستسلما ليديها ، دون أن يخف تجهمه ، وكأن استقبالها الحار لم يكن يجدى شيئا فى تفريج كربه ، ولما أن همت برد الباب حال بينها وبينه قائلا وهو يوسع للفتاة والفتى :

— معى أناس . ادخلى ياسيدة ، ادخل يا عبده . هذه زوجى يا أمى ، وهذا شقيقها ...

وبهتت المرأة ، ولاحت فى عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج ؛ وراحت تنظر إلى القادمين بذهول ، ثم تنبهت إلى اليد المبسوطة للسلام فتمالكت عواطفها وسلمت وهى تخاطب ابنها بلا وعى تقريبا :

— تزوجت يا حسين ! .. أهلا بك ياعروس .. تزوجت ياحسين دون أن تخبرنا ؟ .. كيف رضيت أن تزف فى غياب والديك وهما على قيد الحياة ؟ ! .

فقال حسين بامتعاض :

— الشيطان شاطر ! .. كنت غاضبا ثائرا ساخطا .. وكل شىء قسمة ونصيب ! .

وانتزعت المرأة المصباح من الحائط ، وتقدمتهم إلى حجرة الاستقبال ، ووضعته على حافة النافذة المغلقة ، ووقفت تتفرس فى وجه زوج ابنها ، وقد قالت الفتاة بصوت أسيف :

— أحزننا والله غيابكم ، ولكن ماباليد حيلة . . .

وأبدى شقيقها كذلك أسفه ، فابتسمت المرأة ، ولم تكن أفاقت بعد من دهشتها ، وغمغمت :

— أهلا بكم جميعاً .

ثم التفتت صوب ابنها وقد هالها تجهمه وجوده ، وذكرت لأول مرة أن فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره ، فقالت له بعتاب :

— هكذا تذكرتنا أخيراً . . .

فهز حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب :

— استغنوا عنى . . .

فقالت المرأة بإنكار وقد داخلتها خيبة جديدة :

— استغنوا عنك ؟ ! أتعنى أنك عاطل الآن ؟ !

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دق عنيف على الباب ، فتبادلت المرأة وابنها نظرة ذات معنى ، ثم غادرت الحجرة فلحق بها الشاب بعد أن أغلق الباب وراءه ، وقال لها فى الردهة الخارجية :

— هذا أبى بلا ريب . . .

فقالت له بقلق :

— أظن هذا ، هل رآك . . . أعنى رآكم وأنتم قادمون ؟ .

ولكن الفتى لم يجبها ، وتقدم من الباب وفتحه ، فدخل المعلم كرشة مندفعاً ، وما إن رأى ابنه حتى قال وعيناه محمران ، وضباب الغضب يغشى وجهه :

— أهذا أنت ؟ ! . . . قالوا لى ذلك فلم أصدق . . . لماذا عدت ؟ ! .

فقال حسين بصوت منخفض :

— يوجد فى البيت غرباء ، هلم إلى حجرتك نتكلم ...

ومضى الشاب مسرعاً إلى حجرة أبيه ، فتبعه المعلم مزمجراً ، ولحقت بهما المرأة ، ثم أشعلت المصباح وهى تقول لزوجها فى رجاء وتحذير :

— فى الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها . . .

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان فى ذهول وهتف :

— ماذا تقولين يامرة ؟! . . أتزوجت حقا ؟

واستاء حسين من أمه لأنها ألقت عليه الخبر دون تمهيد ، ولم ير بداً من أن يقول :

— نعم ياأبتى تزوجت ..

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض أسنانه بحنق وغيظ ، ولكنه لم يفكر لحظة فى معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه ، لأن المعاتبة فى نظره حال من المودة ، وصمم فى اللحظة التالية على إهمال هذا الخبر كأنه لم يسمعه ، وقال بغيظ وحقد :

— هذا شىء لايعنينى البتة . ولكن دعنى أسألك لماذا عدت إلى بيتى ؟ .. لماذا أريتنى وجهك بعد أن أراحنى الله منه ؟

فلاذ حسين بالصمت ، ونكس ذقنه عابساً ، وانبرت الأم تقول باستعطاف :

— استغفنوا عنه يا معلم .

ونقم الشاب على أمه تسرعها للمرة الثانية . أما المعلم فقد ازداد حنقاً وصاح بصوته الغليظ — مما جعل المرأة تغلق الباب — قائلا :

— استغفنوا عنك ؟! . . ما شاء الله ! .. وهل بيتى تكية ؟! .. ألم تنبذنا ياهمام ؟ .. ألم تمضى بنابك يا ابن الكلب ؟ .. فلماذا تعود الآن ؟ . . أغرب عن وجهى . عد إلى الحياة النظيفة والماء والكهرباء .. هيا ..

فقالت أم حسين برقة :

— هدىء روعك يا معلم وصلى على النبى ..

فلوح لها الرجل بقبضته منذراً وصاح بها :

— تدافعين عنه يابنت الأبالسة ؟ ! .. كلكم جنس شياطين يستأهل جلد السياط وعذاب النار . ماذا تريدين يا أم الشر كله ؟ .. أتريدينني على أن آويه وأهله ؟ . . هل قالوا لك إنى قواد يأتيني رزق من يمين وشمال بغير تعب ولا جهد؟!.. . . ألا فاعلموا بأن الشرطة تحوم حولنا ، وبالأمس قبضوا على أربعة من رفاق ، وغدكم أسود بإذن الله ..

فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها .

— صل على النبي يا معلم ووحد الله .

فصاح بفظاظة :

— سليه عما جاء به ؟

فقالت برجاء واستعطاف :

— ابننا أرعن مجنون ، غواه الشيطان فأضله ، وليس له الآن من ملجأ سواك ...

فقال المعلم كرشة بحنق وسخرية :

— صدقت يأم السوء . ليس له من ملجأ سواى . سواى أنا الذى يسب حين السراء ويلجأ إليه حين الضراء !

ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية :

— لماذا استغنوا عنك ؟

وتنهدت الأم من الأعماق لأنها أدركت بغريزتها أن هذا السؤال — على لهجته المريرة — إيذان بالتفاهم المنشود . أما حسين فقد قال بصوت منخفض وهو يعانى مرارة القهر :

— استغنوا عن كثيرين غيرى ... يقولون إن الحرب وشيكة الانتهاء ...

— انتهت الحرب فى الميدان وستبدأ فى بيتى أنا ! ... ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك ؟

فقال الشاب بغضاضة :

— ليس لها إلا شقيقها...

— ولماذا لم تلجأ إليه ؟

— استغنوا عنه أيضاً ...

فضحك هازئا وقال :

— أهلا . . أهلا . . وطبيعي أنك لم تجد ملجأ لهذه الأسرة الكريمة التي أناخ عليها الدهر إلا بيتي ذا الحجرتين ! ... مرحى . مرحى ... ألم توفر مالا ؟

فقال الشاب باقتضاب وهو يتنهد .

— كلا ...

— أحسنت . عشت عيشة الملوك ، كهرباء وماء وملاهي ، ثم عدت أخيرا كما بدأت شحاذاً ...

فقال حسين بانفعال :

— قالوا إن الحرب لن تنتهي ، وإن هتلر سيقاوم عشرات السنين ثم يهجم بعد ذلك ...

— ولكنه لم يهجم ، واختفى (حتى في تلك اللحظة لم يقل إنه مات) تاركا شيخ المغفلين صفر اليدين . والبك شقيق الست ؟

— الحال من بعضه .

— عال . . عال ... البركة في أبيك . هيئ لهم البيت يا ست أم حسين ولو أنه حقير لا يليق بالمقام ، ولكني سأتدارك ذلك بإدخال الماء والكهرباء ، وربما ابتعت حنطور السيد علوان ليكون تحت تصرفكم ...

فنفخ حسين قائلا :

— حسبك يا أبي ... حسبك ...

فنظر إليه كالمعتذر وقال بسخرية :

— لا تؤاخذني . أأثقلت عليك ؟ .. مزاج رقيق ، عز وجاه ، ارحموا عزيز قوم بال . احتشم يا معلم كرشة ولا تحدث السادة إلا بحديث السادة .

تفضل بخلع ملابسك . أما أنت ياست أم حسين فافتحى الكنز فى الرحاض وعبى للبيك حتى يتريش وينبسط ...

ولم ينبس حسين بكلمة وهو كظيم ، فمرت العاصفة بسلام ، وراحت المرأة تناجى نفسها : « ياساتر استر » . وكان المعلم — على حنقه وسخريته — أبعد ما يكون عن طرده ، بل بل لعله حتى فى تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لعودته ، وسرور بزواجه ،لذلك كف عما كان آخذاً فيه ، وغمغم قائلا :

— الأمر لله . ربنا يتوب على منكم .

ثم سأل الشاب مستدركا :

— ماذا أعددت للمستقبل ؟ .

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محنته :

— سأجد عملا إن شاء الله ، ولا يزال لدى حلى زوجى .

فانتبهت أمه إلى كلمة « حلى » باهتمام وسألته بغير وعى :

— هل كنت ابتعتها لها ؟ .

فقال حسين :

— أهديت إليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر .

والتفت نحو أبيه مستطرداً :

— سوف أجد عملا . وسيبحث عبده نسيبى عن عمل أيضاً ، وعلى أية حال فهو لن يقيم بيننا إلا أياما .

وانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذى أعقب الزوبعة فقالت لزوجها :

— تعال يا معلم سلم على أهل ابنك .

ولحظت ابنها بطرف خفى وغمزت بسينها ، فقال الشاب بغضاضة من يستكره التودد بطبعه :

— هلا أكرمتنى حيال أهلى ؟ .

وتردد الرجل لحظة ثم قال بامتعاض :

— كيف تريدنى على الاعتراف بهذا الزواج الذى لم أباركه ؟ ! .

ولما لم يسمع من مجيب ، نهض متأففاً ، ففتحت المرأة الباب وتقدمته ، وانتقلوا إلى الحجرة الأخرى جميعاً ، وسلموا ، ورحب المعلم بزوج ابنه وشقيقها . انطوت الصدور على ما بها أما الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة . وكان المعلم كرشة قد سلم بالأمر الواقع ، ولكنه لبث قلقاً لا يدرى أأخطأ بتسليمه أم أصاب ، ولم تصف نفسه من موجدة واستياء . ثم انتهت عيناه الناعستان فى أثناء الحديث إلى شقيق الفتاة فتفحصه بعناية ، وما عتم أن تولاه اهتمام مفاجىء أنساه قلقه وموجدته واستياءه ! . كان شاباً يافعاً وسيم الطلعة خفيف الظل ، فجعل يحاوره ويرنو إليه بطرف يقظ . وطابت نفسه وصفت ، وسرت فى أعماقه هزة سرور وحماس ، فتفتح قلبه للأسرة الجديدة ، ورحب بها مرة أخرى ولكن بشعور جديد ، وسأل ابنه بلطف :

— أليس لك أثاث يا حسين ؟

فقال حسين :

— غرفة نوم مكومة عند الجيران .

فقال المعلم بلهجة آمرة :

— اذهب وأحضر عفشك . . !

* * *

وخلا حسين إلى أمه ، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما ، وفى ختام الحديث صاحت به فجأة :

— ألم تعلم بما حدث ؟ ! . . . اختفت حميدة .

فلاحت الدهشة فى وجه الشاب وسألها :

— كيف ؟ .

فقالت المرأة دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشماتة :

— خرجت أول أمس كعادتها كل عصر ، ولكنها لم تعد . ودارت

أمها على بيوت الجيران والمعارف تفتش عنها دون جدوى . وذهبت إلى قسم الجمالية وقصر العينى ولا حياة لمن تنادى .

— ماذا حدث للبنت يا ترى ؟ .

فهزت أم حسين رأسها فى ارتياب وقالت بيقين :

— هربت وحياتك ! .. غواها رجل فأكل مخها وطار بها . كانت جميلة ولكنها لم تكن طيبة قط .

٣٦

فتحت عينين محمرتين من أثر النوم ، فرأتا سقفاً أبيض ، ناصع البياض ، يتدلى من وسطه مصباح كهربائى بارع الرونق فى كرة كبيرة حمراء من البلور الشفاف . امتلأ بصرها دهشة ، ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة ، ثم تدافعت إلى رأسها ذكريات الليلة الماضية ، وذكريات الحياة الجديدة . واتجه ناظرها نحو الباب فألفته مغلقاً ، ثم رأت على خوان قريب من السرير مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس . نفذت إرادتها فنامت وحدها ، وقضى ليلته وحده فى الحجرة الخارجية ، وافتر ثغرها عن ابتسامة . وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير ، فبدا فستانها مستخذياً خجلا فيما يغمره من مخمل وحرير . ما أعمق الهوة التى تفصل ما بينها وبين الماضى ! . وكانت النوافذ مغلقة تنضح بوهج الشمس ، فينير جو الحجرة بضوء شاحب خفيف ، فاستدلت على الضحى بسماته ، ولكنها لم تدهش لاستيقاظها المتأخر ، فقد أرقها السهاد حتى قبيل الفجر . وسمعت نقراً خفيفاً على الباب ، فتلفتت صوبه فى انزعاج ، وجمد بصرها عليه دون أن تأتى حركة أو تنطق بحرف ، ثم غادرت الفراش ، ودلفت إلى التواليت ، ووقفت بين مراياه متحيرة مبهوتة . وعاد النقر فى قوة ملموسة فهتفت : « من ؟ » . وجاءها صوته العميق وهو يقول : صباح الخير .. هلا فتحت

الباب ؟ » . ونظرت إلى المرآة فرأت شعرها متشعثا ، وعينيها محمرتين ، وجفنيها ثقيلين ، . . . رباه . . أليس ثمة ماء تغسل به وجهها ؟ ! ألا ينتظر حتى تتهيأ لاستقباله ؟ ! . وعاد ينقر الباب جزعا ، ولكنها لم تلق إليه بالا ، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها فى الدراسة أول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها ، وهى تكون اليوم أشد قلقا بلا ريب ! . ورأت زجاجات الروائح العطرية منضودة على التواليت ، ولكنها كانت تراها لأول مرة فى حياتها ، فلم تهتد إلى وجه الانتفاع بها فى مأزقها . ثم تناولت مشطا عاجيا وسوت شعرها فى عجلة ولهوجة ، ومسحت بطرف فستانها وجهها ، وألقت على المرآة نظرة أخرى ، وتنهدت فى قلق وغيظ ، ثم أخذت المفتاح وسارت نحو الباب ، وكأنما ضاقت بإشفاقها ، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب . التقيا وجها لوجه وقد ابتسم إليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة :

— صباح النور ياتيتى ! . . لماذا أمهلتنى كل هذا الوقت ! . أتريدين مواصلة النهار بالليل بعيداً عنى ؟ !

فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة ؛ ولكنه تأثرها والابتسامة لاتفارق شفتيه ، ثم سألها :

— لماذا لا تتكلمين ياتيتى ؟ !

تيتى !! أ اسم تدليل هذا يا ترى ؟ .. ولكن أمها كانت تدعوها « حمدمد » إذا أرادت أن تدللها ، فما تيتى هذا ؟ ! . . ورمقته بنظرة إنكار وغمغمت :

— تيتى !.

فقال وهو يتناول راحتيها بين يديه ويشبعهما تقبيلا :

— هذا اسمك الجديد ، فاحفظيه عن ظهر قلب ، وانسى حميدة فلم يعد لها وجود ! . . ليس الاسم يامحبوبتى بالشىء التافه لا يقام له وزن ، هو بالحرى كل شىء ، وما الدنيا — لو تعلمين — إلا أسماء . . .

وعلمت أنه يعد اسمها — كثيابها البالية — شيئا ينبغى انتزاعه وإيداعه

مقابر النسيان ، ولم تر فى ذلك من بأس ، فلا يجوز أن تنادى فى شريف باشا بما كانت تنادى به فى المدق ، وفضلا عن هذا فهى تشعر شعوراً عميقاً لا يخلو من وسواس وقلق — بأن أسباب الماضى قد انقطعت إلى الأبد ، فلماذا تبقى على اسمها ؟ ! .. بل ليتها تستطيع أن تستبدل بيديها يدين جديدتين جميلتين كيديه هو ، وأن تستعيض عن صوتها — الذى تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظة والقبح — صوتاً رقيقاً رخيما ، ولكن ما باله اختار هذا الاسم الغريب ؟ ! . . ولم تملك أن قالت باستنكار :

— هذا اسم غريب ، لا معنى له . .

فقال ضاحكا :

— اسم جميل . ومن جماله ألا معنى له . فالاسم الذى لا معنى له يحوى المعانى كلها . بل هو من الأسماء الأثرية التى تسحر ألباب الإنجليز والأمريكان ، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجة . . .

نجالت فى عينيها نظرة حيرى ، تشى بالارتياب وتتحفز للعناد والانقضاض ، فابتسم برقة واستدرك يقول :

— تيتى العزيزة . . . رويدك ، ستعلمين كل شىء فى حينه . ألم تعلمى بأنك ستصيرين غداً سيدة باهرة الجمال بعيدة الصيت ؟ . . هذه هى معجزة هذا البيت . أم حسبت أن السماء تمطر ذهبا وماسا ؟ . . كلا ياعزيزتى ، إن السماء فى أيامنا هذه لا تمطر إلا شظايا . والآن خذى أهبتك لاستقبال الخياطة . ولكن معذرة لقد ذكرت أمراً هاما . ذكرت أنه ينبغى أن أصحبك لزيارة مدرستى — أنا ناظر يا محبوبتى ولست قوادا كما دعوتنى بالأمس — فالتحفى بهذا الروب وانتعلى هذا الشبشب . .

وذهبت إلى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كروية يتصل بفم معدنى فيها أنبوبة من المطاط الأحمر ، وسدد فوهتها نحو وجهها وجعل يضغط على الأنبوبة فيمج فى صفحة وجهها سائلا زكى الشذا ، وقد ارتعشت بادىء الأمر شاهقة ، ثم استنامت إلى طيبها فى دهشة وارتياح . وألبسها الروب

بنفسه ، وجاءها بشبشبه فانتعلته ؛ ثم تأبط ذراعها ومضى بها إلى الحجرة الأخرى ؛ ثم إلى الردهة الخارجية . وسارا معاً متجهين صوب أول باب إلى اليمين وهو يقول لها محذراً .

— إياك وأن تبدى خجلة أو خائفة . . . إنى أعلم أنك جسورة لا تهابين شيئاً ...

وأثابها تحذيره إلى رشادها ، فخدجته بنظرة حادة ، ورفعت رأسها فى استهانة ، فابتسم قائلا :

— هذا أول فصل فى المدرسة . . فصل الرقص العربى ...

وفتح الباب ودخلا . رأت حجرة متوسطة ، جميلة البناء ، ذات أرض خشبية لامعة ، تكاد تخلو من الأثاث اللهم إلا عدداً من المقاعد نضدت فى جناحها الأيسر ، ومشجباً كبيراً فى ركنها الأقصى ، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين ، ووقف فى الوسط فتى فى جلباب أبيض حريرى مهفهف محتزما بزنار . اتجهت الرءوس نحو القادمين ، وجرت على الثغور بسمات التحية ، فقال فرج إبراهيم بلهجة قوية تنم عن السيادة حقاً :

— صباح الخير . . هذه صديقتى تيتى . . .

وحنت الفتاتان رأسيهما تحية ، ثم قال الفتى بصوت متكسر مخنث :

— أهلا يا أبلة . .

وردت تيتى التحية فى شىء من الارتباك وهى تطيل النظر إلى الفتى الغريب . كان — على غير ما يبدو — فى نهاية العقد الثالث ، وضيع الملامح أحول العينين ، يزين وجهه بزواق نسائى من كحل وحمرة ويودرة ، ويلمع شعره الجعد بالفازلين . فابتسم فرج إبراهيم وقال يعرفه لها :

— سوسو معلم الرقص ...

وكأنما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقته الخاصة ، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزاً بعينه ، فراحتا تصفقان على « الواحدة » ،

وانساب الأستاذ راقصا كالأفعوان ، فى خفة وليونة تثيران الدهشة ؛ حتى خالته جسما بلا عظام ولا مفاصل ، أو أنه قطعة من مطاط مكهرب . كان كل مافيه يرتعش بلا توقف . ردفاه . . وسطه .. صدره .. رقبته .. حاجباه . وكان يلقى بنظرة متكسرة متضعضعة . مبتسما ابتسامة فاجرة عن أسنان ذهبية . ثم اهتز هزة عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنى ، واستقام ظهره وكفت الفتاتان عن التوقيع . لم يكن فى نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يحيي القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال . والتفت نحو فرج إبراهيم متسائلا :

— تلميذة جديدة . . .

فالتفت هذا بدوره إلى تيتى وقال :

— أظن هذا . .

— ألم ترقص فيما سلف ؟

— كلا . .

فابتسم سوسو مسروراً وقال :

— هذا أفضل ياسى فرج . إذا كانت تجهل الرقص فهى عجينة طرية أصورها كيفما أشاء ، أما أولئك اللاتى يتعلمن الرقص على غير أصوله فما أشق تعليمهن .

ونظر إلى تيتى ، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت فاضح :

— أم تحسبين الرقص لعبا يا أبلتى ؟ ! . . العفو يا حبيبتى . . هذا فن الفنون ، وأستاذه له الجنة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشم من عناء أو مشقة . . انظرى . .

وأرعش خصره بغتة فى سرعة عجيبة ، ثم أمسك وهو يرمقها بعجب وتيه ، وسألها باستعطاف :

— هلا انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك .

ولكن فرج عاجله قائلا :

— ليس الآن .. ليس الآن .

فحط سوسو بوزه متأسفاً وسألها :

— أتخجلين منى ياتيتى . أنا أختك سوسو ! . ألم يعجبك رقصى ؟

وكانت تدافع جاهدة شعوراً بالضيق والارتباك ، وتحاول فى إصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية ، فابتسمت وقالت :

— رقصك بديع جداً ياسوسو ...

فصفق سوسو بيديه حبوراً وقال :

— دمت من فتاة كريمة . الحياة فانية ياتيتى ، وأجمل ما فيها كلمة حلوة . وهل دام شيء لإنسان ؟ ... الواحد منا يشترى حق الفازلين ولا يدرى أيكون لشعره أم لشعر ورثته !

* * *

وغادرا الحجرة — أوالفصل — إلى الردهة ، فمضى بها إلى الحجرة التى تليها . وشعر بعينيها تلحظانه ولكنه تجاهلهما عن حكمة ، حتى بلغا الباب فمغمغم قائلا :

— فصل الرقص الغربى ...

فتبعته صامتة . كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلا ، وأن الماضى قد عفاه الحاضر ، فلم تر بداً من الاستسلام للمقادير ، وتساءلت هل تبلغ حقاً السعادة المنشودة ؟ . وجدت هذه الحجرة فى بنائها وصورتها كسابقتها إلا أنها حجرة حية متحركة صاخبة . كان الحاكى يبعث لحنا غريبا تلقته أذنها فى دهشة وإنكار ، وكان قوم يرقصون أزواجاً ، قوام كل زوج فتاتان ، وقد انتحى شاب أنيق البزة جانباً وهو يراقبهن بعناية ، ويوليهن بملحوظاته ، وتبادل الرجلان التحية ، وواصل الراقصات رقصهن وهن يتفحصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة . ودارت عيناها بالمرقص والراقصات فعجبت لثيابهن البديعة وزينتهن البارعة ، وسرعان ما تناست هواجسها ، واستولى عليها انفعال عارم ، فعانت شعوراً مؤلما بالضعة ، ثم استفزها إحساس حاد بالحماس والتوثب . ولاحت منها التفاتة إلى رجلها فوجدته

محافظاً على هدوئه ورزانته ، تلوح فى عينيه نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوة . والتفت نحوها فجأة كأنما جذبته عيناها ، فانبسطت أساريره ، ومال نحوها قليلا متسائلا :

— أيعجبك ما ترين ؟

فقالت ببساطة وهى تقاوم انفعالها :

— جداً ...

— أى الرقصين تفضلين ؟

فابتسمت ولم تجب . ولبثا قليلا صامتين ، ثم غادرا الحجرة ، واتجها نحو باب ثالث وقد تجلى الاهتمام فى وجهها . وما كاد يدفع الباب حتى حملقت فى دهشة وذهول . رأت فى وسط الحجرة امرأة عارية منتصبة القامة . وظلت ثوانى لا تحول بصرها عنهـا فلم تر شيئا سواها . ومن عجب أن المرأة العارية بقيت بموقفها كأنها لم تشعر بقدمهما ، وجعلت تنظر إليهما فى هدوء واستهتار وقد افتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنهـا تحييهما أو تحييه هو بالأحرى . وعند ذاك قرعت أذنيها أصوات ، فتلفتت يمنة ويسرة وأدركت أن الحجرة معمورة بالآدميين . رأت إلى يسار الداخل صفاً من المقاعد مشغولا نصفها بفتيات حسان أنصاف عرايا أو على وشك التعرى ! ... ورأت على كثب من المرأة العارية رجلاً فى بدلة أنيقة قابضاً بيمناه على مؤشر قد ركز سنانه على مقدم حذائه . ولاحظ فرج إبراهيم دهشتها ، فرغب أن يسرى عنها ، فقال لها :

— هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الإنجليزية ... !

فحدجته بنظرة إنكار كأنها تقول له « لا أفهم شيئا » فأشار لها بالتمهل ثم وجه خطابه للرجل القابض على المؤشر وقال :

— استمر فى درسك يا أستاذ ...

فقال الرجل بصوت يدل على الطاعة :

— هذه حصة تسميع .

ورفع المؤشر بخفة ولمس بسنانه شعر العارية ، فنطقت المرأة بلفظ غريب « هير » ، فأنزله إلى جبينها فهتفت « فرنت » ، وانتقل إلى الحاجب فالعين. ثم الفم ، وشرق وغرب ، وصعد وصوب ، وهى تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة ، لم تسمعها حميدة من قبل ، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجا ، وتساءلت كيف تبدو هذه المرأة عارية حيال هذا الجمع ، وكيف ينظر فرج إلى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة ! ... وغلى دمها ، والتهب خداها ، وألقت عليه نظرة سريعة فرأته يهز رأسه راضياً عن التلميذة الذكية ، ويتمتم « برافو ... برافو ... » ثم خاطب الرجل قائلا :

— أرنى شيئا من الغزل ...

فنحى الرجل المؤشر جانبا ، وأقبل على المرأة مخاطباً فى لهجة انجليزية وعاطته المرأة قولا بقول ، فتراطنا دقائق بلا تلعثم أو تردد ، حتى صاح فرج إبراهيم :

— عظيم ... عظيم ... والأخريات ؟

وأشار إلى الفتيات الجالسات ، فقال الأستاذ :

— فى طريق التحسن ! ... وإنى أقول لهن دائماً إن الكلام لا يحصل بالحفظ ، ولكنه يكتسب بالتجربة ، فالحانات والبنسيونات هى دور العلم الحقيقية ، وما هذا الدرس إلا تثبيت للمعلومات المهوشة ...

فقال فرج وهو ينظر إلى فتاته :

— صدقت ... صدقت ...

وحياه بإيماءة من رأسه ، وتأبط ذراع حميدة وانفصلا عن المكان معاً ، وقطعا الردهة الطويلة مرة أخرى صوب حجرتهما . كان وجهها جامداً ، وفمها مطبقاً ، وعيناها تنمان عن الشرود والحيرة ، وكانت تتلمس سبباً للانفجار ، لا لهدف ترمى إليه ، ولكن للترويح عن صدرها الهائج المضطرب . ولازم الرجل الصمت حتى حواها المخدع ؛ ثم قال بلطف :

— يسرنى أنى أطلعتك على مدرستى ، وأنك فتشت فصولها بنفسك .

ربما تراءت لك ذات برنامج عسير شاق ؛ ولكنك رأيت بعينيك تلميذاتها البارعات ، وجميعهن بغير استثناء دونك ذكاء وجمالا ..

فرمقته بنظرة عناد وتحد وسألته ببرود :

— أتريدني على أن أفعل مثلهن ... ؟

فابتسم فى رقة ، وقال بمكر ودهاء :

— لا سلطان لأحد عليك ، ولا راد لقضائك ، وأنت وحدك صاحبة الأمر والنهى . ولكن واجبي أن أوضح لك المعالم ، والخيرة لك . والحق أنه لمن حسن الحظ أنى وجدت رفيقاً لبيباً تكفيه الإشارة ، قد حباه الله جمالا وهمة وبهاء . فإذا سعيت إلى استثارة حماسك اليوم فعسى أن تسعى أنت غداً إلى استثارتى . إنى أعرفك حق المعرفة ، وأقرأ قلبك كصفحة مبسوطة ، وها أنا ذا أقول لك عن عقيدة ويقين أنك ستقبلين على تعلم الرقص والإنجليزية ، وإتقان كل شئ فى أقصر فترة من الزمن . ولقد اتبعت معك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنبت الكذب والخداع ، لأنى أحببتك حباً صادقا ، ولأنى أيقنت من أول لحظة بأنك لا تغلبين ولا تخدعين ؛ فافعلى ما تشائين يا محبوبتى - جربى الرقص أو انبذيه ، استهترى أو عفى ، ابقى أو عودى ، فلا قبل لى بك على جميع الأحوال ..

ولم يذهب خطابه سدى ، فقد سرى عنها ؛ وخف توتر أعصابها . واقترب منها ، وأخذ راحتها بين يديه ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :

— أنت أسعد حظ جادت به الحياة على ... ما أفتنك ... ما أجملك ...

وحدق فى عينيها بإيمان وافتتان ، ورفع يديها — وهما مضمومتان — إلى فمه ، وراح يقبل أطراف أناملها زوجا زوجا ، وهى مستسلمة ليديه ، تجد لكل لثمة من شفته تكهربا فى أعصابها ؛ حتى تندت عيناها رقة وهيام ، وند عنها نفس حار فى شبه تنهدة ؛ فأحاطها بذراعيه ، وضمها إلى صدره رويداً حتى شعر بمس ثديها لقلبه ، ثدي بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس فى صدره ؛ وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعوداً وهبوطاً ، ووجهها مدفون فى صدره ،

ثم همس « فك » فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفتاها قليلا ، فطبع شفتيه على شفتيها فى قبلة طويلة جداً ، فأطبقت جفنيها كأنما أخذتها سنة من نعاس . وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع ، وسار بها متمهلا نحو الفراش ، وقد هز ساقيها المعلقتين هزة أطاحت بالشبشب ، ثم أنامها ، ولبث ماثلا عليها معتمداً على راحتيه ، منعما النظر فى وجهها الورد . وفتحت عينيها فالتقتا بعينيه ، فابتسم إليها ابتسامة رقيقة ولكنها ظلت ترنو إليه بنظرة ساجية . وكان فى الحق متمالكا لأعصابه رغم تظاهره بعكس ذلك ، وكان فكره أنشط من قلبه ، وكان قدأجمع رأيه على خطة لا يحيد عنها ، فاستوى واقفاً وهو يغالب ابتسامة ماكرة ، وقال بلهجة من ينزع نفسه عن هواها :

— مهلا . مهلا . . إن الضابط الأمريكى يدفع خمسين جنيهاً عن طيب خاطر ثمناً للعذراء !

التفتت إليه داهشة . وسرعان ما غابت من عينيها النظرة الفاترة ، وحل محلها نظرة صارمة قاسية قادحة . ونهضت جالسة فى الفراش ، ثم انزلقت إلى الأرض بسرعة فائقة فانتصبت حياله كالحية الهائجة . وثارت بها غريزتها العنيفة فرفعت يدها وهوت بها على خده بقوة وقسوة تجاوبت أركان الحجرة رنينها . ولبث ثوانى جامداً ثم تمدد جانب فمه الأيسر فى ابتسامة هازئة ، وبسرعة تفوق الفكر رفع كفه ولطمها على خدها الأيمن بقوة متناهية ، ثم رفع يسراه — قبل أن تفيق من اللطمة الأولى — وصك بها خدها الأيسر بشدة بالغة ! . اصفر وجهها ، وسرت ارتعاشة فى شفتيها ، وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية ، فارتمت على صدره ، وأنشبت أناملها المتقبضة فى عنقه . وتلقى الرجل هذه الهجمة بسكينة ، ولم يحاول مدافعتها بل أحاطها بذراعيه وشد عليها حتى كاد يهرسها . ومضت أصابعها تلين ، ثم ارتدت عن عنقه ، وتحسست منكبيه وعلقت بهما ، ورفعت إليه وجها قانياً وثغراً مرتعشاً مشوقا . . .

٢٧

نشر الظلام رواقه على الزقاق وأطبق على جنباته سكون عميق ، حتى قهوة كرشة أغلقت أبوابها وتفرق سمارها . وفى هذا الهزيع من الليل مرق من باب الفرن شبح زيطة ، صانع العاهات ، ينطلق إلى تجواله الليلى . قطع الرجل أرض الزقاق إلى الصنادقية ، وعرج إلى اليسار متجها صوب الحسين ، فكاد يصطدم بشبح قادم فى منتصف الطريق ، وما لبث أن تنور وجهه على ضوء النجوم الشاحب فهتف به :

— الدكتور البوشى ! . . من أين أنت قادم ؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة :

— كنت ماضياً إليك . . .

— أعندك طلاب عاهات ؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس :

— عندى ما هو أهم ، لقد توفى عم عبد الحميد الطالبى !

فأضاءت عينا زيطة فى العتمة وسأله باهتمام :

— متى توفى ؟ . . . وهل دفن ؟

— دفن مساء اليوم .

— أعرفت مقبرته ؟

— فيما بين باب النصر وطريق الجبل .

وتأبط زيطة ذراعه وسار به فى الطريق الذى كان آخذاً فيه وهو يسأله مستوثقاً :

— ألا يمكن أن تضل الطريق فى الظلام ؟

— كلا . . . كنت فى أثناء سير الجنازة منتبهاً يقظاً فحفظت علامات

الطريق ؛ وفضلا عن هذا فهو طريق معروف لكلينا ، وطالما قطعناه معا فى الظلام الدامس ..

— وأدواتك ؟

— فى مكان حريز أمام الجامع ...

— وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة ؟

— عند المدخل حجرة مسقوفة ولكن القبر فى فناء مكشوف ..

فسأله بلهجة لم تخل من تهكم :

— أكنت تعرف المرحوم ؟

— معرفة بسيطة . كان بائع دقيق فى المبيضة .

— أطقم كامل أم بضع أسنان فقط ؟ ..

— طقم كامل ..

— ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل دفنه ؟

— كلا . إن أهل البلد أهل تقوى ، وهيهات أن يفعلوا ذلك ...

فقال زيطة وهو يهز رأسه أسفا :

— مضى زمن والناس يودعون القبر حلى موتاهم .

فتنهد الدكتور قائلا :

— أين منا ذاك الزمن !

وبلغا الجمالية فى ظلمة حالكة وصمت مخيم ، ومرا فى طريقهما بشرطيين ثم أخذا يقتربان من باب النصر . واستخرج زيطة من جيبه نصف سيجارة وأشعلها وراح يدخن بشغف . وقد فزع الدكتور بوشى من ضوء عود الثقاب وقال لصاحبه بنرفزة :

— بئس ما اخترت هذا الوقت للتدخين ...

ولكن زيطة لم يأبه ومضى يقول وكأنه يخاطب نفسه :

— لا فائدة ترجى من الأحياء ، وقليل من الموتى ذو نفع ... !

ومرقا معاً من باب النصر ، ومالا إلى اليمين يقطعان طريقا ضيقا تحف

به المقابر من الناحيتين ، ويرين عليه صمت رهيب وكآبة شاملة . وقال زيطة عند نهاية الثلث الأول من الطريق « هاك المسجد » فتلفت بوشى فيما حوله، وتنصت قليلا فى حذر ، ثم اقترب من الجامع متحاميا إحداث أى صوت ، وتحسس الأرض لصق جداره فيما يلى مدخله حتى عثر بحجر كبير ، ثم أزاحه عن موضعه بيديه ، واستخرج من نقرة تحته فأساً صغيراً ولفافة تحوى شمعة ، وعاد إلى صاحبه ، فاستطردا فى مسيرهما وهو يقول همساً « تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراوى بخمس مقابر » . وجدا فى السير وعينا الدكتور تتطلعان إلى المقابر على يسار الطريق ، وقلبه يدق بعنف ، ثم تثاقل بغتة وهو يهمس « هذه المقبرة »، ولكنه لم يقف ، بل حث صاحبه على السير وهو يقول :

— سور المقبرة المطل على هذا الطريق عال ، والطريق نفسه غير مأمون ، فالأفضل أن ندور حول المقابر من ناحية الصحراء ، ثم نتسور المقبرة من ناحيتها الخلفية حيث يوجد القبر فى الفضاء المكشوف ...

ولم يبد زيطة اعتراضاً ، فتقدما فى صمت حتى انتهيا إلى طريق الصحراء ، واقترح زيطة أن يجلسا على الطوار قليلا ريثما يراقبان الطريق ، وجلس جنباً لجنب ، وراحا يراقبان المكان بأربع أعين . كان الظلام شاملا ، والمكان مقفراً ، وفيما وراءهما تنتثر القبور فتشغل مساحة من الأرض لا يحيط بها البصر. ومع أن هذه المخاطرة لم تكن الأولى من نوعها إلا أن الدكتور بوشى لم يستطع أن يتمالك أعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرب ، فلبث يحملق فى الظلماء ، فؤاده خافق ، وريقه جاف ، وأعصابه متوترة ، فى حين جلس زيطة جامداً ، رابط الجأش ، لا يبالى شيئا . ولما اطمأن إلى خلو الطريق قال للدكتور :

— دع الأدوات واسبقنى إلى سور المقبرة الخلفى ، وانتظرنى هنالك . .

ونهض الدكتور على كره ، وتسلل بين القبور مائلا نحو الأسوار الخلفية للمقابر ، وسار لصق الجدران متلمساً طريقه فى ظلام دامس ليس به من

بارقة نور إلا ما تشمه النجوم ، وجعل يعد الأسوار حتى بلغ خامسها ، وألقى على ما حوله نظرة لص ، ثم جلس القرفصاء . لم تمثر عيناه بشىء يريبه ولم يبلغ أذنه حس ، ولكن القلق لم يزايله ، واشتد جزعه . وبعد قليل رأى شبح زيطة على مدى أذرع منه ، فنهض فى حذر ، وعاين الرجل السور ثم قال همساً :

— تقوس حتى أصعد على ظهرك .

وتقوس الدكتور معتمداً راحتيه على ركبتيه ، ورقى الرجل ظهره ، وتحسس الجدار حتى قبض على حافته ، ثم تسوره بمهارة وخفة ، ورمى بالفأس ولفافة الشمعة إلى داخل الفناء ، ثم مد يده إلى الدكتور حتى التقت بيده ، وأعانه على تسلق الحائط حتى تسنمه ، وهويا معاً . ووقفا عند أصل السور يستريحان ، والتقط زيطة فى أثناء ذلك الفأس واللفافة . وكانت أعينهما قد اعتادت الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت ، فرأيا الفناء فى شىء من الوضوح ، وقبرين متجاورين ينهضان على كثب من موقفهما ، وفى نهاية الفناء يقوم الباب المطل على الطريق الذى جاءا منه ، وعلى جانبيه حجرتان . وسأل زيطة وهو يومىء إلى القبرين :

— أيهما ؟

فأجابه بصوت يكاد ينحبس فى حلقه :

— على يمينك . .

ودنا زيطة من القبر بلا تردد ، يتبعه بوشى مرتجف الأوصال ، وحنى قامته متحسساً أرض المنزل فوجدها طرية ندية ما تزال ، فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة مكوما الثرى بين رجليه المنفرجتين . وثابر على العمل الذى لم يكن جديداً بالنسبة إليه حتى كشف عن السلاليم التى تسقف منزل القبر ، وشمر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه ، وأقبل على طرف السلمة الأولى ، ورفعها شاداً على عضلاته حتى انتصبت قائمة ، وأخذ يثنيها بمعونة البوشى حتى طرحها أرضا . وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية . واكتفى

(١٥)

بالثغرة التي فتحها حيث يمكن أن ينزلق منها هو وصاحبه ، ومضى إليها
ونزل الأدراج وهو يقول للدكتور مغمغماً « اتبعني » . فتبعه منقبض
الصدر مقشعر البدن . وكان الدكتور يجلس — في مثل هذا الظرف —
على الدرجات الوسطى ، ويشعل الشمعة ويثبتها في الدرجة السفلى ، ثم يغمض
عينيه ويدفنهما بين ركبتيه . وكان يدخل القبور على كره ، وطالما ناشد
زيطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر ، ولكن الآخر أبى أن يؤدي له
هذه الخدمة إلا إذا شارك في جميع خطواتها ، مستلذاً في أعماقه تعذيبه . وقد
اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر ، وألقى زيطة نظرة متحجرة على الجثث المدرجة
في أكفانها ، مطروحة في تتابع وتواز حتى غيابات القبر ، يرمز نظامها إلى
تسلسل التاريخ واطراد الزمن ، وينطق صمتها الرهيب بالفناء الأبدي . ولكنها
لم ترجع في صدر زيطة أي صدى ، فسرعان ما استرد نظرته المتحجرة وثبتها على
الكفن الجديد عند بدء القبر . وجلس القرفصاء ، ثم كشف عن رأس الجثة
بيدين باردتين ، وحسر الشفتين ، وعالج بأصابعه الطقم حتى انتزعه ، وأودعه جيبه
وقد تلوثت أنامله . ثم غطى الرأس كما كان ، وتحول عن الجثة إلى الباب ، فرأى
الدكتور دافنا رأسه بين ركبتيه والشمعة في أسفل الدرج تزهر ، فرماه بنظرة
ساخرة وغمغم في ازدراء « اصح ! » ، فرفع الدكتور رأسه مرتمداً ، ومال
نحو الشمعة فتناولها ونفخها فأطفأها ، ورقى السلم في عجلة كأنه يفر . ورقى
زيطة الدرج كذلك ، ولكنه قبل أن يبرز من الثغرة صكت أذنيه صرخة
داوية ، وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء « في عرضكم ! » . تسمرت
قدماه ، ثم تراجع نازلا الأدراج وهو لا يدري ما يفعل وقد أثلجت أطرافه ،
وما زال يتراجع حتى داس كعبه الجثة ، فتقدم خطوة ووقف متسمراً
لا يجد مهرباً . وخطر له أن يرقد بين الجثث ، ولكنه قبل أن يأتي حركة
واحدة غمره نور وهاج أغلق جفنيه قسراً ، وسمع صوتاً شديداً يصيح به
في لهجة صعيدية :

— اصمد . وإلا أطلقت عليك النار ...

وطوقه اليأس فاستسلم ، ورقى الدرج كما أمر ، وقد نسى الطقم الذهبي فى جيبه .

* * *

ولم ينته إلى الزقاق نبأ القبض على الدكتور بوشى وزيطة فى مقبرة الطالبى إلا عند عصر اليوم التالى . وفشا الخبر وعرفت أسبابه ، وتناقله القوم فى دهشة وانزعاج . وما أن علمت به الست سنية عفيفى حتى استحوذ عليها الفزع وولولت صارخة ، وانتزعت طقمها الذهبي ورمت به ، وأخذت تلطم خديها فى حالة عصبية شديدة ، ثم سقطت مغمى عليها . وكان زوجها فى الحمام ، فلما أن قرع أذنيه صراخها أخذه الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول ، وهرع إليها لا يلوى على شىء .

٢٨

كان عم كامل جالساً على كرسيه على عتبة الدكان ، مائلا رأسه على صدره ، غارقاً فى النعاس ، والمنشة فى حجره . ثم استيقظ على دبيب شىء على صلعته فتحركت يده حركة آلية ليطرد ما ظنه حشرة ، ولكنها وقعت على كف آدمية ، فقبض عليها ساخطاً ، وتأوه متذمراً ، ورفع رأسه ليرى ذاك المداعب الثقيل الذى أيقظه من نعاسه اللذيذ ، فوقعت عيناه على عباس الحلو ... لم يكن يصدق عينيه ، فحملق فيه مشدوهاً ، ثم اشتد احمرار وجهه المنفوخ فرحاً ، وهم بالنهوض ، ولكن الشاب لم يمكنه من ذلك ، واحتضنه بذراعيه فتعانقا عناقاً حارا ، والحلو يهتف به متأثرا :

— كيف حالك يا عم كامل ؟

فيجيبه الرجل فى لهفة وسرور :

— كيف أنت ياعبس ... أهلا وسهلا ومرحباً ... لشـــد ما أوحشتنى يا عكروت ! .

ووقف الحلو بين يديه مبتسما ، والآخر يتطلع إليه بعينين شيقتين . وكان يرتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً ، وقد حسر رأسه ورجل شعره فبدا أنيقاً حسن المنظر موفور الصحة مورد الوجه ، فرمقه عم كامل بإعجاب وقال بصوته الرفيع :

— ما شاء الله ! أنت رائع يا جونى . !

فضحك عباس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل وقال :

— ثانك يو . . لن يرطن الشيخ درويش بالإنجليزية وحده بعد اليوم . !

وأجال الشاب عينيه فى الزقاق المحبوب ، فوقعتا على دكانه القديم ، ورأى صاحبه الجديد مكباً على حلق ذقن زبون ، فرنا إلى الدكان رنوة حنان وتحية . ثم طار بصره إلى النافذة فوجدها مغلقة كما كانت حين قدومه ، فتساءل ترى أهى فى الدار أم فى الخارج ؟ : وما عسى أن تفعل إذا فتحت الباب فوجدت أنه الطارق ؟ . سوف تحملق فى وجهه بدهشة وذهول ، فيملأ عينيه من حسنها الباهر ! . هذا يوم أغر من الأيام المعدودة فى العمر . وانتبهَ إلى صوت عم كامل وهو يقول متسائلا :

— أتركت عملك ؟ .

— كلا ، ولكنى أخذت أجازة قصيرة .

— ألم تدر بما حصل لصاحبك حسين كرشة ؟ هجر أباه ، وتزوج ، ثم استغنوا عنه فعاد إلى بيته يجر وراءه زوجه وشقيقها .

فلاح الأسف فى وجه الحلو وقال :

— يا لسوء الحظ ... ! إنهم يستغنون عن العمال كثيرا فى هذه الأيام . وكيف استقبله المعلم كرشة ؟

فمط عم كامل بوزه وقال :

— لا يفتأ شاكياً متبرماً ، أما الفتى وأهله فيقيمون فى الدار .

وسكت الرجل نصف دقيقة ثم قال متعجلا كأنما ذكر أمرا هاما :

— أما علمت بأن الدكتور بوشى وزيطة مسجونان ؟ !

ثم قص عليه كيف قبض عليهما فى قبر الطالبى متلبسين بجريمة سرقة

طقمه الذهبي . وقد وجم الحلو وجوماً شديداً . ولم يكن يستبعد أن يرتكب زيطة أشنع الجرائم ، ولكنه عجب للدكتور بوشي كيف سولت له نفسه اقتراف هذه الجريمة النكراء ! .. وذكر كيف طلب إليه أن يركب له طقماً حين عودته من التل الكبير ، فالتوت شفتاه امتعاضاً وتقززا .

واستدرك عم كامل يقول :

— وقد تزوجت الست سنيه عفيفي ..

وكاد يقول له « العقبى لك » ولكنه أمسك فجأة وقد دق قلبه بعنف ! . ذكر عند ذاك حميدة ! .. ولكم ذكر هذا الموقف فيما تلا ذلك من أيام متعجباً من نسيان ما كان ينبغي أن يذكره لأول وهلة ! . ولكن الحلو لم ينتبه لتغيره ، وسرعان ما شغل بآماله وأفراحه فتراجع خطوتين قائلا :

— أستودعك الله إلى حين ..

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهوجة :

— أين تقصد ؟

فقال الحلو وهو يهم بالمسير :

— إلى القهوة أسلم على من بقي من الصحاب ..

فاتكأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهداً ، وتبعه متبختراً . وكان الوقت عصراً فلم يجدا بالقهوة من أصحابهما إلا المعلم كرشة والشيخ درويش . فسلم عباس على المعلم الذي لاقاه بترحيب ، وشد على يد الشيخ درويش . فرمقه الشيخ بنظرة باسمة من وراء نظارته ولم ينبس بكلمة . وكان عم كامل يعاني انقباضاً ثقيلا ، وحزناً مريراً ، ولا يدري كيف يفاتحه بالنبأ الأليم ، فقال له برجاء :

— هلا عدت معي إلى الدكان قليلا ... ؟

ووقف عباس متردداً بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة التي انتظرها جزعا بضعة أشهر ، ولكن لم يهن عليه عم كامل ، ولم يجد بأساً في المكث معه فترة قصيرة من الوقت ، فرجع معـــــه إلى دكانه مداريا برمة بابتسامة

لطيفة ، وجلسا فى الداخل جنباً لجنب ، وهو يقول بسرور :

— الحياة فى التل الكبير حياة عظيمة ، عمل متواصل ، وربح موفور . إنى لا أبعثر نقودى قانعاً بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الزقاق . حتى الحشيش لم أذقه إلا مرات معدودات مع أنه هنالك كالماء والهواء . وقد ابتعت هذا . . . انظر ياعم كامل العقبى لك . . .

واستخرج من جيب بنطلونه علبة صغيرة وفتحها ، فبان بداخلها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ، ثم استطرد وعيناه البارزتان تلمعان بسرور :

— شبكة حميدة . أما علمت ؟ ! . . سأكتب الكتاب فى إجازتى هذه . .

وتوقع أن يقول الرجل شيئاً ، ولكن عم كامل لاذ بصمت ثقيل وغض بصره كأنه يخفيه ، فنظر إليه الشاب باهتمام ، ولأول مرة رأى ما ينطق به وجهه من وجوم واكفهرار . ولم يكن عم كامل من الذين يفلحون فى إخفاء ما يعتمل فى أنفسهم ، فلاح باطنه عاريا فى وجهه . وسرعان ما قطب الحلو وساوره القلق ، فأغلق العلبة وأعادها إلى جيبه ، وأنعم فى صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه . وأشفق على قلبه الجذل الحبور أن تطفىء جذوته خيبة لا يدريها ولا يتوقعها . أشفق من ذلك إشفاقا أليما موجعا ، ولكن نذر الكدر تخايلت لعينيه فى وجه الرجل المرتبك الواجم ، ولم يستطع مع جموده صبراً ، فسأله بارتياب :

— مالك يا عم كامل ؟ . . لست كعهدى بك . ما الذى غيرك ؟ . لماذا لا تنظر إلىّ ؟ !

فرفع الرجل وجهه إليه ببطء ، وطالعه بعينين مظلمتين محزونتين ، وفتح فمه ليتكلم ، ولكن لسانه خانه فلم يطاوعه وبلغ الجزع بعباس مداه ، وتنبأ قلبه بالفاجعة ، فشعر بالقنوط يطفىء أضواء فرحه ، ويخمد أنفاس أمله ، فهتف بحزم قائلا :

— ماذا وراءك ياعم كامل ؟ ما الذى تريد أن تقوله ؟ . عندك ما تقوله

بلا ريب ، بل فى ضميرك أشياء وأشياء ، فلا تقتلنى بترددك . حميدة ؟ ! . . .
إى والله حميدة ! . . قل ما تشاء . لا تعذبنى بسكوتك . هات ماعندك دفعة واحدة.

فازدرد الرجل ريقه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— ليست موجودة ! . لم تعد هنا اختفت . لا يدرى أحد عنها شيئا .

أنصت إليه بذهول وفزع ، ونقشت الكلمات فى وعيه كلمة كلمة ، ولكن غشى فهمه ضباب وغبار ، وكأنما انتقل فجأة إلى دنيا المحمومين ، فقال بصوت متهدج :

— لست أفهم شيئاً . ماذا قلت ! . لم تعد هنا ، اختفت ؟ ! . ماذا تعنى ؟

فقال عم كامل بأسى :

— شد حيلك يا عباس . يعلم الله أنى حزين أسيف ، وأنى حملت همك من أول الأمر ، ولكن ما باليد حيلة . اختفت حميدة ، ولم يدر أحد عنها شيئاً . خرجت يوما كعادتها كل عصر ولكنها لم تعد . فتشوا عنها فى مظانها جميعاً دون جدوى . بلغنا قسم الجمالية ، وبحثنا فى قصر العينى ، ولكن لم نعثر لها على أثر .

لاح فى وجهه سهوم ، ولبث حينا جامداً صامتاً ، لا يتكلم ولا يتحرك ولا يطرف . لا مذهب ولا مهرب . ألم يتنبأ قلبه بالفاجعة ؟ . بلى ، وهاهو يصدقه . يا عجباً . . ماذا يقول الرجل ؟ . . اختفت حميدة ؟ . . وهل يختفى البشر كما تختفى إبرة أو قطعة من النقود ؟ ! . لو أنه قال ماتت أو تزوجت لأمكن أن يجد لمضطربه مدى أو نهاية ، فاليأس على أية حال أروح من الشك والحيرة والعذاب . ولكن ما عسى أن يفعل الآن ؟ ! بات اليأس نعمة لا يطمع فيها بحال . وخرج من جموده فجأة ، فاستعرت نفسه هياجا وارتعشت أطرافه ، وحدج الرجل بعينين محمرتين وصاح به :

— اختفت حميدة ! . . وماذا فعلتم ؟ . . بلغتم قسم الجمالية وبحثتم فى قصر العينى ؟ . . جزاكم الله كل خير ، ثم ماذا ؟ . . عدتم إلى أعمالكم كأن شيئاً لم يكن ! . . يا لطف الله ! . . انتهى كل شىء ، فرجعت أنت إلى دكانك

وراحت أمها تطرق أبواب المرائس ، وانتهت حميدة ، وانتهيت أنا أيضاً . ماذا تقول يا رجل ؟ خبرنى عما تعلم ؟ ماذا تعرف من أمر اختفائها ؟ . . كيف اختفت ؟ ومتى وقع ذلك ؟ !

استحوذ الاضطراب على عم كامل لما بدر من صاحبه من حدة وغضب ، وقال بصوته الحزين :

— مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بنى . كان حادثا مروعا مفزعا ارتجت له القلوب . والله يعلم أننا لم نأل جهداً فى البحث والاستفسار ، ولكن ما باليد حيلة !

فضرب عباس كفا على كف ، وقد احتقن الدم بوجهه ، وازدادت عيناه جحوظا ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— زهاء شهرين ! . . رباه . . هذا تاريخ قديم . لا أمل فى العثور عليها . ماتت ؟ . . غرقت ؟ . . خطفت ؟ . . من لى بأن أدرى ؟ . . خبرنى بما يقول الناس ؟

فقال عم كامل وهو يرمقه بحزن وحنان :

— ظنوا ظنونا كثيرة ، ثم رجحوا أنها ذهبت ضحية لحادث، أما الآن فلا يذكرون شيئاً . .

فهتف الشاب متأوها :

— طبعاً . . طبعاً ، فلا هى ابنة لأحد منهم ، ولا قريبة أحد ، حتى أمها ليست بأمها . ترى ماذا حدث لها ؟ . . كنت فى هذين الشهرين أسعد الناس أحلاما . أرأيت كيف يحلم إنسان بالسعادة إذ الشقاء يترقب يقظته ساخرا هازئا طاويا مصيره بيديه القاسيتين ؟! . . ولعلى كنت أنعم بلذيذ السمر بينما كانت تنهرس تحت عجلة ، أو تتخبط فى قعر النيل . . شهران يا حميدة ! . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

ونهض قائما ضاربا الأرض بقدمه ، ثم قال بامتعاض :

— أستودعك الله .

فسأله بلهفة :

— علام نويت ؟

فقال بفتور :

— سأقابل أمها ...

وذكر وهو يدلف من باب الدكان متثاقلا كيف جاء يكاد يطير من جلده فرحاً ، وكيف يذهب محطما مهيضاً . فعض على شفته ، وتسمرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه ، وتحول نحو صاحبه فرآه ينظر إليه بعينين مغرورقتين بالدمع ، ففقد جنانه وهرع نحوه بلا وعى ، وارتمى على صدره فى قنوط ، ونشج منتحبا باكيا كالأطفال ...

***

ألم يداخله شك فى حقيقة اختفائها ؟ ... ألم يساوره ما يساور المحبين من ارتياب وسوء ظن فى مثل حالته ؟ الحق أن طيف شك قد لاح بخاطره ولكنه لم يلق إليه بالا فتبدد . كان بطبعه شديد الثقة ، يجود بالظن الحسن بغير حساب . كان طيب القلب جداً ، ومن هذه القلة من الناس الذين ينزعون بفطرتهم إلى إقامة المعاذير لغيرهم ، واختيار أخف التأويلات لأفظع الفعال . ولم يغير الحب من طبعه هذا ، بل لعله رسخه وقواه ، فلم تظفر منه وسوسة الغيرة وهمهمة الشك بأذن مرهفة . وقد أحب حبيبه حبا شديداً باركته فطرته الطيبة بثقة وطمأنينة . وآمن — إلى هذا كله — بأن فتاته أكمل فتاة فى هذه الدنيا التى لم ير منها شيئا يذكر . فلم يداخله شك فيها ، أو أن طيف الشك الذى لاح له لم يجد فى قلبه مرتعا يعيث فيه . وقد ذهب لمقابلة أمها ذلك اليوم ، ولكنها لم ترو له غلة ، وأعادت عليه ما قصه عم كامل بصوت مختنق بالعبرات . وزعمت له أن الفتاة كانت لاتفتأ تتذكره وتترقب عودته بصبر فارغ فضاعفت بكذبها أحزانه ، وغادرها كما جاءها كسير الفؤاد مبلبل الفكر معذب النفس . وغادر الزقاق تسوقه قدماه الثقيلتان ، وقد زعفر الأصيل هامة النهار ، تلك الساعة التى اعتاد — فى الأيام الخوالى —

أن يرى فيها مطلعها المحبوب إذا خرجت لنزهتها اليومية . وقطع الطريق ذاهلا عما حوله ، فتمثلت لعينيه بجسمها الملفوف فى الملاءة السوداء وعينيها النجلاوين المحبوبتين ، وهفت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة ، فتنهد من الأعماق ، ونفخ محزونا قانطا . ترى أين هى الآن ؟ ... ماذا تصنع ؟ وماذا صنع الله بها ؟ ... أتعيش على ظهر الأرض أم ترقد فى قبر من قبور الصدقة ؟ . . رباه . كيف تحجر قلبـه طوال ذلك العهد فلا استشف ريبة ولا شام نذيرا ! ... كيف استنام إلى طمأنينة الأحلام ولذة المنى فأكب عن العمل غافلا عما يخبئه له الغد ؟ ! . وأيقظه الزحام من ذهوله فتنبه إلى الطريق ، هذا الموسكى طريقها المختار بأناسه ودكاكينه ، كل شىء فيه باق على حاله ، إلا هى ، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس . وألمت به رغبة فى البـكاء ، ولـكنه لم يستسلم لها هذه المرة . لقد أراحه البكاء على صدر عم كامل ، وأرخى توتر أعصابه ، وتركه لحزن عميق هادىء ، فيجدر به الآن أن يتساءل عمـا هو فاعل ، أيدور على الأقسام وقصر العينى ... ولـكن ما جـدوى ذلك ؟ ، أيدوخ شوارع القاهرة منـاديا باسمها ؟ ، أيطرق أبواب البيوت بابا بابا ؟ . لله ما أعجزه وما أعجز حيلته . إذن هل يعود إلى التل الـكبير متناسيا ما وراء ظهره ؟ ، ولـكن لماذا يعود ؟ ، لماذا يصر على تحميل نفسه آلام الغربة ؟ . لماذا يكد ويكدح ويجمع النقود ؟ . الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لاطائل تحته . غاضت فى قلبه مشاعرها جميعا إلا فتوراً يزهق الأنفاس وخموداً يقتل الإحساس ، وهوى إلى هذه الحالة المضنية التى تبدو فيها الحياة فراغا كئيبا يحدق به سـد هائل من القنوط . كان يعيش على الفطرة لا يدرى شيئا عمـا وراءها ؛ مخلصا لقوانين الحيـاة الأوليـة ، فوجد فى الحب جوهر حيـاته وخلودها ، فلمـا أن فقده فقد الأسبـاب التى تصله بالحيـاة ، وتردى مزعزعا كذرة هائمة فى الفضـــاء . ولولا أن الحياة ـــ التى تجرع غصص الآلام ـــ تتفنن فى إغراء بنيها بالتعلق بها حتى فى أحلك أوقاتها ، لختم عمره وقضى . ولـكنه مضى فى سبيله حائراً

قد ضل هدفه ، بل شعر فى تلك اللحظة أنه ضله إلى الأبد . بيد أنه ما زال معلقاً بخيط دقيق يدق على وعيه . ولمح فى عرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدرى إلا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن . فوقفن داهشات وقد تذكرنه فى غير مشقة ، وقال لهن بلا أدنى تردد :

— مساء الخير يا بنات ، لا تؤاخذننى ، ألا تذكرن صاحبتكن حميدة ؟

فقالت إحداهن :

— نذكرها جميعاً ! . ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ ذلك اليوم !

فسأل بصوت ينطق بالأسى :

— ألا تدرين شيئاً عن اختفائها ؟

فقالت أخرى وقد لاحت فى عينيها نظرة ماكرة :

— لا ندرى شيئاً على وجه اليقين . إلا ما قلته لأمها حين جاءتنى يوم اختفائها تسأل عنها ، من أننا رأيناها مرات بصحبة أفندى يسيران معاً فى الموسكى . .

وحملق فى وجه محدثته بذهول وقد ارتعش جانب فيه ، وسألها :

— أرأيتها بصحبة أفندى . . ؟ !

ونال منظره من الفتيات فاختفت من أعينهن نظرات خبيثة ساخرة ، وتكلفن الرزانة ، وقالت محدثته برقة :

— نعم يا سيدى :

— وأخبرت أمها بذلك ؟

— نعم . . .

وشكرهن بكلمة ، وسار فى طريقه . ولم يداخله شك فى أنهن سيجعلن منه حديثهن بقية الطريق ، ولعلهن يضحكن كثيراً من الفتى المغفل الذى هاجر إلى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوبته ، فآثرت عليه آخر وفرت معه . ياله من مغفل حقاً ! . ولعل أهل حيه جميعاً قد لغطوا بغفلته . وقد رحمه

عم كامل فأخفى عنه الحقيقة ، كما أخفتها أم حميدة ، وهل كان بوسعهما أن يفعلا غير مافعلا ؟. وخاطب نفسه ولما يفق من ذهوله قائلا : « هذا ما حدثنى به قلبى لأول وهلة » . ولم يكن صادقا فى قوله ، لأن الشك لم يلم به إلا إلمامة خفيفة ، ولكنه لم يعد يذكر فى محنته غير هذه الإلمامة الخفيفة من الشك ، بيد أنه تأوه فى اللحظة التالية وتساءل يبسط أصابعه ويقبضها فى حركات تشنجية : « رباه كيف أعقل هذا ! . أهربت حميدة حقاً مع رجل ؟ ! . من يصدق هذا ؟ ! » . لم تمت إذن ، ولم يعرض لها حادث ، ولقد أخطأوا خطأ كبيراً فى البحث عنها فى الأقسام وقصر العينى ، وغاب عنهم أنها تنام سعيدة رخية البال بين ذراعى الرجل الذى خطفها . ولكنها وعدته ومنته ، أفكانت تخادعه ؟ .. أم توهمت خطأ أنها تميل إليه ؟ .. كيف عرفت ذلك الأفندى ؟ ومتى أحبته ؟ . وأى جرأة شيطانية أغرتها بالفرار معه ؟ ! . . كان ممتقع اللون ، بارد الأطراف ، تلوح فى عينيه نظرة ساهمة قاتمة ، وتبرق فيها من آن لآن لمحة خاطفة تقدح شرراً . خطر له خاطر فصعد رأسه إلى الدور على جانبى الطريق ، ينظر إلى نوافذها ويتساءل : فى أى دار ترقد لصق رجلها الآن ؟ . انقشع غبار الحيرة ، وحل محله غضب نارى ومقت نهم ، وتقبض قلبه وتلوى تحت ضغط يدى الغيرة القاسيتين . غير أن شعوره بالخيبة — الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود فى التراب — كان أفظع من الغيرة نفسها . إن الغرور والكبرياء وقود للغيرة يورثان لهيبها . ولم يكن حظه منهما ملحوظاً ، ولكنه كان شديد الأمل كبير الأحلام ، فذوى أمله وتبدد حلمه ، وانفجرت نفسه غضباً . وأفاده الغضب من حيث لايدرى ، فاستنقذه من ذلك الحزن الصامت الثقيل ، وعلله بالانتقام يوماً ولو على سبيل البصق والازدراء . والواقع أن فكرة الانتقام استحوذت على مشاعره فى تلك الساعة الجهنمية من الغضب والقهر ، فتمنى أن يتمكن من طعن قلبها الغادر الخائن بمدية حادة . الآن يستطيع أن يدرك سر مواظبتها على الخروج فى العصارى ، فقد كانت تنطلق عارضة

نفسها على ذئاب الطرق ! . ولكنها جنت بغير شك ، جنت بهذا الأفندى ، وإلا لما آثرت المهر معه على الزواج به ! . وعض على شفته ألماً وحنقاً لهذا الخاطر . وانتقل راجماً وقد ضاق ذرعاً بالمشى والوحدة . وتحسست يده علبة العقد فى جيبه ، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنها صرخة غضب فى رداء ضحكة . ليته يستطيع أن يشنقها بسلسلة هذا العقد الذهبية ! وذكر كيف وقف فى دكان الصائغ يقلب عينيه بين الحلى وقلبه يكاد يقفز من صدره جذلا وسروراً ، وهفت الذكرى على قلبه كالنسيم الوانى إلا أنها التقت بوهج قلب مضطرم فانقلب النسيم حرورا . . .

٢٩

ما إن وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب حتى شد الخواجا الجالس قبالته على يده وقال له :

— مبارك عليك ياسليم بك . هذه ثروة طائلة . . .

وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضى فى سبيله حتى توارى وراء باب الوكالة . صفقة رابحة . وبحسبه أنه تخلص من مخزون الشاى الذى اشتراه الخواجا جملة ، فربح الشىء الكثير وأمن شر المخاوف ، خصوصاً وأن صحته لم تعد تطيق أهوال السوق السوداء . بيد أنه قال لنفسه ساخطا متبرما « ثروة طائلة ولكنها ملعونة ، لقد حلت اللعنة بكل شىء فى دنياى » . والحق أنه لم يبق من السيد القديم إلا شبح هزيل ، وكانت أعصابه أشد مايضنيه ، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه ، فسامته تفكيراً متواصلا فى الموت حتى صار الموت شغله الشاغل . ولم يكن الرجل فى الأصل بالضعيف الإيمان ولا كان بالرعديد الجبان ، ولكن تهافت أعصابه أنساه آداب الإيمان وألوى بشجاعته . وما انفك يفكر فى ساعة الاحتضار — وقد ذاق بعض مرارتها فى إبان مرضه — ويستذكر ذكرياته عنها عمن حضرهم الموت من

أقاربه ، ذاك الرقاد المستسلم الأليم ، وصعود الصدر وهبوطه ، وهذه الحشرجة المتقطعة ، وإظلام المقلتين ، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعماق والأطراف ، وتودع الروح الجسد . أفيقع كل هذا فى يسر ؟! إن الإنسان ليجن إذا انتزع ظفره ، فكيف يكون إذا انتزعت روحه وحياته ؟! . ولا يدرى إلا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم ، فما نستطيع أن نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة ، أما صداها فى الروح ورجعها فى الجسد ، فسر الميت الذى ينطوى عليه صدره ، ويقبر معه فى جدثه ، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا فى أفظع حالاتها وأبشعها . ولو أنه أتيح لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم إنسان بساعة صفو واحدة فى الحياة ، ولمات الناس ذعراً قبل أن تدركهم النهاية . وطالما تمنى أن يسلكه الله فى زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكتة القلبية . ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء ، إنهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون ، أو حين يقومون أو يقعدون ، وكأنهم يمكرون بالاحتضار فيتحينون منه غفلة ثم ينسلون خفية إلى باب الأبدية ! . . ولكنه فى شبه يأس من هذه الميتة السعيدة ، وقد ضرب له أبوه — وجده من قبل — مثل الميتة التى يشعر قلبه المتهافت الفزع بأنها ستجرى عليه ، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان من كان يصدق أن السيد سليم علوان — الرجل القوى السعيد — سيمسى فريسة لهذه الأفكار والمخاوف ؟ . . . . هكذا كان ، ولم يكن الاحتضار بفزعه الوحيد ، فقد انجذبت أفكاره المحمومة نحو ضجعة الموت نفسها ، فأطال فيها التفكير والتفلسف على طريقته ! وصور له خياله وثقافته المتوارثة عن الأجيال ، أن بعض شعوره سيلازمه بعد الموت ، أليس يقولون إن عينى الميت تريان من يحدقون به من الأهل ؟ ... لحتم أن يرى الموت جهرة ، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهى تشتمله ، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغربته وهياكله وعظامه وأكفانه بل بضيقه واختناقه ، وما يحتمل أن يتردد فى النفس من أشواق وحنين وحب للدنيا وأهلها ! . . . تمثل ذلك كله

بصدر منقبض وقلب متشنج وأطراف باردة وجبين يتفصد عرقا ، ولم ينس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب ، أواه . . . ما أبعد الشقة بين الموت والجنة ! . . .

لذلك تعلق بأهداب الحياة بقوة الخوف واليأس ، على رغم أنها حياة عاطلة من أسباب النعيم ، فلم تترك له دوراً يلعبه فى مسرحها إلا المراجعة وعقـد الصفقات ، ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه ، فأكد له الطبيب شفـاءه من الذبحة وآثارها ولـكنه نصحه بالحـذر والحـرص والاعتدال . وشكا إليه عـدة مرات ما يعانى من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة إخصائى فى الأعصاب ، ومن ثم مضى يتردد بين الإخصائيين فى الأعصـاب والقلب والصدر والرأس ، وتفتح له باب المرض عن عالم لا يقل عن عالمنا اتساع رقعة وازدحاما بالسكان من الجراثيم والأعراض الخفية . ومن عجب أنه لم يكن يؤمن لا بالطب ولا بالأطباء ، ولـكنه آمن بهما فى اضطرابه ، ولعل إيمانه هذا كان من بين أعراض المرض الذى ألم بأعصابه ! . .

فى هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته ، وفى أوقات عمله ، وأويقات السلام التى تصفو فيها نفسه وتنقى من غش الهواجس كان كأنه يتفرغ لإفساد علاقاته بالمحيطين به من البشر ، فهو إما فى حرب مع نفسه وإما فى حرب مع الناس . وأدرك عمال الوكالة من بادىء الأمر أن سيدهم قد استحال شخصاً شاذا ملمونا ، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرت ربع قرن من حياته ، وبقى من بقى من العمال على مضض وتوجس واستكراه . وقال عنه أهل الزقاق إنه بين العقل والجنون ، وقالت حسنية الفرانة بشماتة لم تحاول إخفاءها « إنها صينية الفريك والعياذ بالله » .

ويوماً قال له عم كامل عن قصد حسن ونية سليمة :

— هلا أمرتنى ياسى السيد أن أصنع لك صينية بسبوسة مخصوصة

يرد عليك ثوب العافية بإذن الله ! ولكن السيد غضب غضباً شديداً وانفجر صائحاً فيه :

— إليك عنى أيها الغراب . أجننت يا أعمى القلب والبصيرة ! . . . إن أمثالك فقط من البهائم تبقى لهم أمعدتهم سليمة حتى القـ . .

ولم يعد بعدها عم كامل إلى التعرض له بخير أو بشر .

أما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه ، ولم يفتأ يلقى على حسدها المزعوم له تبعة ما حصل له فى جسمه وعقله ، وكان ينتهرها قائلا :

— لشد ما نقمت على صحتى وعافيتى ، حتى تحطمت بين يديك ، فهنيئاً لك الراحة ياأفعى . . . واشتد به سوء الظن ، حتى ارتاب يوماً أن يكون نما إليها عزمه على الزواج من حميدة ، لأن أمثال هذه الأمور تتصدى لها أعين كثيرة فتراها فى خفية من صاحبها ، وتتطوع ألسنة كثيرة لإذاعتها وإيصالها لصاحب الشأن ، ولم يستبعد عند ذاك أن تكون المرأة قد انتقمت منه بأن عملت له «عملا» هو الذى أودى بصحته وعقله ! . . . ولم يكن فى حالة تسمح له بأن يزن مايعرض له من فكر بميزان العقل ولا أن يسبرها بمسبار الحكمة ، فسرعان ما انقلبت الريبة يقينا . فتميز غيظاً ، وامتلأ حنقا ، وتوثب للانتقام . اشتط فى معاملتها ، ودأب على سبها ونهرها ، ولكنها قابلت قسوته بالامتثال والصبر والأدب ، فلم يجده شططه ، ولبث يتحرق إلى إثارتها ، وإخراجها من التعوذ بالصمت والصبر إلى الأخذ بأسباب التشكى والتذمر وذرف الدموع ، فقال لها مرة بجفاء وازدراء :

— لقد مللت عشرتك ، ولا أخفى عنك أنى شارع فى الزواج ، سوف أجرب حظى مرة أخرى . . . وصدقته المرأة ، فتصدع بنيان رزانتها المتماسك ، وفزعت إلى أبنائها فباحت لهم بما تلقاه على يديه من سوء القول والفعل . وهالهم الأمر ، ودهمهم الخطب ، فأيقنوا أن أباهم ينزلق إلى مهوى وخيم العواقب . وزاروه يوماً واقترحوا عليه — إبقاء

على صحته — أن يصفى تجارته ويفرغ للراحة والعناية بنفسه . وفطن الرجل إلى ما يساورهم من خوف غير جديد عليه ، فغضب غضبة هائجة ، وعنفهم بفظاظة لا عهد لهم بها ، وخاطبهم بحدة قائلا :

— حياتى ملك لى أصرفها كيفما أشاء ، وسأبقى عاملا ما راق لى العمل فاعفونى من نصحكم المغرض .

وضحك متهكماً ثم استدرك وهو يقلب فى وجوههم عينيه الذابلتين :

— ألم تحدثكم أمكم عما اعتزمت من الزواج مرة أخرى ؟ . . هو الحق . لقد شرعت أمكم فى قتلى ، فسآوى إلى كنف امرأة جديدة على شىء من الرحمة ، وإذا تضاعف عددكم بهذا الزواج فثروتى كفيلة بإشباع أطماعكم جميعاً . .

وأنذرهم بأنه سيقبض يده عنهم ، وأن على كل منهم أن يعتمد فى حياته على موارده الخاصة . قال بسخط وغضب :

— إنى كما ترون لا أكاد أذوق غير مر الدواء ، فلا يصح أن يتمتع الآخرون بمالى .

قال كبيرهم :

— كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المرة ونحن أبناؤك البررة ؟

فقال السيد ساخراً :

— بل أبناء أمكم . .

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شىء من طرفه إلى بيوت أبنائه ، وحرم مطبخ سراياه من الأنواع الفاخرة التى اشتهر بها ، والتى حرمت عليه هو بعد مرضه ، ليشاركه الجميع — خصوصاً زوجه — فيما فرض عليه . ولهج بحديث الزواج المزعوم حين وجد السهم النافذ الذى تحطمت دونه ما تدرع به زوجه من صبر وأناة . وتشاور أبناؤه فيما بينهم ، وقد ألفاهم الخطب قلبا واحداً فى التوجع لأبيهم ، والإخلاص له فى محنته ، وقال كبيرهم :

— نتركه وشأنه حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

بيد أن المحامى قال بشىء من الحزم مستدركا :

— اللهم إلا إذا شرع فى الزواج حقا ، فأشد ما نتخذه من احتياط أهون من أن نتركه هملا بين أيدى الطامعين . .

* * *

وكان اختفاء حميدة حدثا فظيعا فى حياته . ومع أنه لم يعد إلى ذكرها — منذ مرضه — فتخلفت عن تيار شعوره ، إلا أن خبر اختفائها أثار اهتمامه وجزعه ، فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها . ولما تناهى إليه ما تهامس به اللاغطون من أنها فرت مع رجـــل مجهول ، انزعج انزعاجا شديداً ، وثار غضبه ذلك اليوم فلم يجرؤ أحد على الدنو منه ، فرجع مع المغيب إلى بيته مهدم الأعصاب ، وأصابه صداع شديد أرقه حتى مطلع الفجر . وحنق على الفتاة الهاربة حنقا كبيراً ، وتملأ كل قلبه حقداً وغضبا ، وتمنى أن يراها يوما متدلية من مشنقة ، مندلقة اللسان ، جاحظة العينين . ولما علم بعودة عباس الحلو من التل الكبير سكن روعه لغير ما سبب واضح ، ودفعته رغبة لا تقاوم إلى استدعاء الشاب ، وقربه ، ولاطفه فى الحديث وساءله عن أحوال معيشته ، متجنباً ذكر الفتاة ، فسر الشاب بعطفه ، وشكر له حدبه ، وأقبل على الحديث فى استفاضة من استنام إلى لطفه ، والسيد يسترق إليه النظر من عينيه الفاترتين . . وفى الأيام الأولى التى أعقبت فرار حميدة وقع حادث — ربما كان فى ذاته تافها — ولكنه مما يؤرخ به فى زقاق المدق . كان السيد سليم علوان متجها نحو الوكالة فى ضحوة من النهار فالتقى بالشيخ درويش ذاهبا لبعض شأنه . وكان السيد — فى عهده الأول — من محبى الشيخ درويش ، وكثيراً ما تعاهده بالبر والإحسان والهدايا ، ولكنه أغفله فى مرضه وأهمله وكأنه لم يعد يشعر له بوجود . ولما التقيا على كثب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكأنه يخاطب نفسه :

— اختفت حميدة . .

فبهت السيد ، وظنه يعنيه بقوله ؛ فما تمالك أن صاح به :

— مالى أنا ولهذا !

ولكن الشيخ درويش واصل خطابه قائلا :

— ولم تختف فحسب ؛ ولكنها هربت ، ولم تهرب فحسب — ولكنها هربت مع رجل ؛ ويسمون ذلك فى الإنجليزية Elopement وتهجيتها . . e »

وقبل أن يتم الرجل تهجية الكلمة انفجر السيد صارخا :

— إنه ليوم شؤم إذ أصبحت على وجهك يا مجنون ؛ اغرب عن وجهى عليك لعنة الله . .

وجمد الشيخ فى مكانه كأنه تسمر فى الأرض ، ولاحت فى عينيه نظرة طفل مذعور إذا لوح له شخص بعصا مهدداً ؛ ثم أعول باكيا . ومضى السيد لطيته ، ولبث الشيخ درويش بموقفه باكيا ؛ وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ ، حتى أهاب نواحه بالمعلم كرشة وعم كامل والحلاق العجوز فهرعوا إليه متسائلين ، وقادوه إلى القهوة ، وأجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه . وطلب له المعلم كرشة قدحا من الماء ؛ وربت عم كامل على كتفه قائلا بتوجع :

— وحد الله يا شيخ درويش ، اللهم اكفنا السوء . . بكاء الشيخ نذير غير محمود العواقب . . اللهم لطفك .

ولكن الشيخ ازداد بكاء وعويلا ، فاضطربت أنفاسه ، وارتجفت أوصاله ؛ وأطبقت شفتاه فى توتر وتشنج ، وراح يشد ربطة رقبته بعنف ، ويضرب الأرض بقبقابه . وفتحت نوافذ الدور وأطلت الرءوس فى دهشة وانزعاج ؛ وجاءت حسنية الفرانة . وشق النحيب طريقه إلى مسمعى السيد سليم علوان فى الوكالة ، فأنصت إليه غاضبا حانقا ، وظل ينصت إليه هائجا ، وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل ؟ . . وعبثا حاول أن يغيب بانتباهه عنه ، فكأنه كان يلح فى مطاردته والتضييق عليه ، حتى خيل إليه أن الدنيا جميعا تبكى

وتنوح . وسكت غضبه وسكن هياجه ، ولكن ما طفق البكاء يرعش أوتار قلبه فترن فى إشفاق وألم . ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الولى ! .. ليته لم يصادفه فى طريقه ! . وما كان ضره لو أغضى عنه ومر به مر الكرام ! . وتأوه نادما ، ومضى يقول : إن الإنسان فى مثل حالته من المرض حرى بأن يزدلف إلى الله لا أن يغضب ولياً من أوليائه . وطوى كبرياءه ، ونهض قائماً ، وغادر الوكالة متوجها إلى قهوة كرشة . وقصد الشيخ الباكى غير عابىء بالأنظار التى سددت نحوه فى دهشة ، ووضع يده على منكبه برفق ، وقال بلهجة تنم عن الاعتذار والأسف :

— يا شيخ درويش .. سامحنى .

(٣٠)

كان عباس الحلو يجلس مختبئاً بنفسه فى شقة عم كامل حين دق البـاب بعنف ، فنهض إليه وفتحه فرأى حسين كرشة مرتديا القميص والبنطلون ، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته ، ثم بادره قائلا :

— كيف لم تقابلنى وهذا ثانى يوم لك فى المدق !.. كيف حالك ؟

فمد له الحلو يده مبتسما ابتسامة باهتة وقال :

— كيف أنت يا حسين ؟ .. لا تؤاخذنى فتعب أخاك لا ناس ولا مهمل . هلم نسر معا .

وخرجا معا . وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهداً ، وقطع النهار متفكراً ، فسار مصدع الرأس ، مثقل الجفون . لم يكد يبقى من ثورة الأمس أثر ، سكت الغضب الجنونى ، وبرد الهياج الحامى ، وتلاشت خواطر الانتقام الدموى ، على حين رسب فى قرارة نفسه حزن عميق ويأس مدلهم ، وبمعنى آخر تخلصت نفسه مما لا تطيقه من ألوان الانفعال ، مسلمة بكليتها للحزن واليأس وقال له حسين متسائلا :

— أما علمت بأنى كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة ؟

— حقاً ! . .

— وتزوجت ، وأخذت بأسباب حياة رائعة . .

فقال الحلو وهو يكسب صوته شيئاً من الاهتمام الذى لا يجده :

— حمداً لله . . مبارك . . عال . . عال . .

وكانا بلغا الغورية ، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح بحدة :

— بل زفت وهباب ! . . . استغنوا عنى فعدت إلى الزقاق على رغمى ، وأنت هل استغنوا عنك أيضاً ؟ .

فأجابه الشاب بفتور :

— كلا . . ولكنى منحت إجازة قصيرة .

فأكلت الغيرة قلبه ، وضحك ضحكة باردة ثم قال :

— أنا الذى دفعتك إلى العمل دفعا وأنت قانع ، وها أنت ذا تنعم به على حين أنسكع أنا متعطلا .

وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوى عليه طبيعة صاحبه من غل وشر فقال بانكسار :

— نهايتنا قريبة على أية حال ، هذا ما يؤكدونه لنا .

فارتاح حسين قليلا ، ثم استدرك يقول بصوت أسيف :

— كيف انتهت الحرب بهذه السرعة ؟ ! . . من كان يصدق هذا ؟ ! .

فهز الحلو رأسه دون أن ينبس بكلمة . سيان عنده أن تستمر الحرب أو تنتهى ، وأن يبقى فى عمله أو يفصل منه ، إنه لا يبالى شيئاً على الإطلاق . وكاد يضجره حديث صاحبه ، إلا أنه ألفاه أخف من الوحدة والفكر ، ومن ناحية أخرى تحمله — كما اعتاد أن يتحمله — دفعاً لشره . واستطرد حسين قائلا :

— كيف انتهت بهذه السرعة ! . . كان الأمل معقوداً بهتلر أن يطيلها إلى مالا نهاية ، ولكن أنهاها حظنا الأسود .

— صدقت . .

فصاح حسين بشدة :

— نحن تعساء . بلد تعس وأناس تعساء .. أليس من الحزن ألا نذوق شيئا من السعادة إلا إذا تطاحن العالم كله فى حرب دامية ؟! . فلا يرحمنا فى هذه الدنيا إلا الشيطان !

وأمسك قليلا وهما يشقان طريقا بين سابلة السكة الجديدة ، وقد أخذ ستار الظلام فى الانتشار ، ثم قال متنهداً فى حسرة :

— لشد ما تمنيت أن أكون جنديا محاربا ! . تصور حياة جندى باسل ، يخوض غمار الحرب ، وينتقل من نصر إلى نصر ، يركب الطيارات والدبابات ، يهاجم ويقتل ويسبى النساء الفارات ، ويبذل له المال عن سخاء ، فيسكر ويعربد فوق القانون . هذه هى الحياة . ألا تتمنى أن تكون جنديا ؟ .

الحق أن ركبتيه كانتا تتخاذلان إذا سمع صفارة الإنذار ، وكان من رواد المخبأ المواظبين ، فكيف يتمنى أن يكون جنديا من المحاربين ؟ بيد أنه تمنى صادقا لو كان خلق جنديا فظا متعطشا للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه فى السعادة والحياة الرغيدة ! . وقال بلهجته الفاترة :

— من لا يتمنى ذلك ؟!

وانتبه إلى الطريق ، فازدحمت برأسه الخواطر ، رباه . . كيف للزمان أن يمحو ذكريات هذا الطريق من صدره ؟! ، إن أرضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين ، وإن هواءه لا يبرح معبقا بأنفاسها المحبوبة ، وكأنه يراها رؤية العين وهى تخطر بقوامها المعتدل المشوق ، أنى له أن يطمع فى نسيان هذا كله ؟! . وقطب متغيظا على نفسه لجودها بهذا الحنان لغير أهله ، وأطبق فمه فلاح وجهه صارما قاسيا ، وعاودته لفحة من ثورة الأمس ، ينبغى أن ينبذ من ينبذه ، وأن يطرح من يخونه ، وألا يحرق

أضلعه حزناً — ولا حتى غضبا — على من يرقد ناعماً بين أحضان غريم له . تباً للقلب من صاحب خئون ، دسيسة على الروح والجسم ، يحب من لا يحبهما ، ويحرص على من يفرط فيهما ، فيسيم صاحبه الخسف والهوان . واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاخب وهو يلكزه هاتفاً :

— حارة اليهود .

وأوقفه بيده عن السير متسائلا :

— ألا تعرف حانة فيتا ؟ . . ألم تدمن الخمر فى التل الكبير ؟ .

فأجابه عباس قائلا باقتضاب :

— كلا . .

— كيف عاشرت الإنجليز ولم تشرب الخمر ؟ يا لك من خروف تمس . . الخمر شراب منعش ومفيد للمخ ، تعال . .

وتأبط ذراعه ومال به إلى حارة اليهود ، وكانت حانة فيتا تقع على بعد يسير من مدخلها ، على جانبها الأيسر ، وهى أشبه بدكان ، متوسطة ، مربعة الشكل ، يمتد فى جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخامى ينهض وراءها الخواجا فيتا ، وقد ثبت فى الجدار خلفه رف طويل صفت عليه الزجاجات ، وقامت فى نهايته من الداخل براميل ضخمة ، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس والأقداح ، ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد ، حوذية وعمال وآخرون حفاة ونصف عراة كالشحاذين إن كان الشحاذون يسكرون . وبقى من الحانة غير ذلك موضع اتسع لبعض المناضد الخشبية ، فجلس إليها أعيان السوقة والعاجزون عن الوقوف لكبر أو لسكر شديد . ورأى حسين مائدة شاغرة فى نهاية الحانة فقاد صاحبه إليها ، وجلسا حولها . وقلب عباس عينيه فى المكان الصاخب المدوى فى صمت وقلق ، حتى استقرتا على غلام فى الرابعة عشرة قصير مفرط فى البدانة ، مطين الوجه والجلباب ، حافى القدمين ، يزحم الشاربين ويكرع من قدح مترع ، ويتمايل رأسه سكراً ، فاتسعت عيناه دهشة ولفت حسين إليه ، ولكن هذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية :

— هذا هو كل بائع الجرائد . يبيع الجرائد فى النهار ويسكر فى الليل غلام ولكن قل فى الرجال مثله . أرأيت يا غشيم !

ومال برأسه نحوه قليلا وقال :

— كأس النبيذ بقرش ونصف لذة للمتعطلين أمثالى . منذ شهر كنت أشرب الويسكى فى بار فنش ولكنها الدنيا القلب ، معلهش يا زهر ! .

وطلب كأسين ، فجاء بهما الخواجا ووضعهما على المائدة ومعهما طبق ترمس . ونظر عباس إلى كأسه بقلق وقال مشفقاً من لسان صاحبه إشفاقه من الإقدام على التجربة الجديدة :

— يقولون إنها مؤذية ! .

فقبض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية :

— تخاف على نفسك ؟ ! . خلها تقتلك . . فى داهية يا سيدى ، لا انت فى الزيادة ولا فى النقصان ، صحتك .

وفرغ كأسه بكأسه ، ثم أفرغه فى جوفه بغير مبالاة ، ورفع عباس كأسه وكرع منه كرعة ، ثم أبعده عن فيه متقززا ، وقدشعر كأن لساناً من لهب اندلع فى حلقه ، فتقبض وجهه وكأنه وجه لعبة من المطاط ضغطته أصابع طفل ، وقال متأففاً :

— فظيع . مر . حامى .

فتضاحك حسين ساخراً ، شاعراً بزهو واستعلاء وقال بازدراء :

— تشجع يا طفل ، الحياة أمر من هذا الشراب ، وأوخم عاقبة ...

ورفع كأسه ووضع حافته بين شفتيه وهو يقول « اشرب حتى لا يندلق على قيصك » فتجرعه الآخر حتى الثمالة . ونفخ متقززاً ، ثم أحس حرارة فى بطنه ، سرت بسرعة عجيبة ناشرة وهجها فى جوفه ، فشغل بالانتباه إليها عن تقززه ، وتتبع أثرها وهو يندفع مع دمه ، ويجرى فى عروقه ، حتى إذا بلغ رأسه خفت وطأة الدنيا عليه قليلا ، وقال حسين بسخرية :

— اكتف اليوم بكأسين ولا تزد . .

وطلب كأسا أخرى لنفسه وراح يقول :

— أقيم الآن عند أبى وممى زوجى وشقيقها ، ولكن نسيبى وجد عملا فى الترسانة وسيفارقنا اليوم أو غداً . ويقترح أبى على أن أشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهات فى الشهر ، وبمعنى آخر أشتغل من الفجر حتى نصف الليل بثلاثة جنيهات ! . . ولكن ماذا تقول لحشاش مجنون ؟ ! . . وهكذا ترى أن الدنيا تناصبنى العداء ، وتستفز غضبى ومقتى ، وليس عندى إلا جواب واحد : فإما الحياة التى طابت لنا وإما حرقنا الدنيا ومن عليها . .

فسأله عباس ، وكان أخذ يستشمر راحة وجدها عجيبة لذيذة بالنسبة لما تمناه طوال يومه من هم وفكر :

— ألم توفر مالا ؟ . .

فقال حسين بحدة وسخط :

— ولا مليما ! كنت أسكن شقة نظيفة بالوايلية ، فيها الكهرباء والماء ، وكان عندى خادم صغيرة تقول لى بكل احترام « يا سيدى » ، وكنت أرتاد السينما والفرقة القومية . ربحت كثيراً ، وضيعت كثيرا ، وهذه هى الحياة . إن أعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود ؟ بيد أن النقود ينبغى أن تساير العمر حتى نهايته ، وإلا فالويل لمصر إذا لم تساير النقود الأعمار . ليس لدى الآن إلا قليل من الجنيهات غير حلى زوجى . .

وصفق طالبا كأسا ثالثة ثم قال بإشفاق :

— والأدهى من ذلك أن زوجى تقيأت فى الأسبوع الماضى . .

فقال عباس متظاهراً بالاهتمام :

— لا بأس عليها .

— لا بأس ولا زفت ، هذه أمارات الحبل كما تقول أمى ، وكأن الجنين غثت نفسه تقززا من الحياة التى تنتظره فأعدى أمه . .

ولم يطق عباس أن يتابعه بالإصغاء لسرعته ولهوجته ، ولم يعد يهتم

بذلك ، وانتابته كآبة فجائية بعد أن نعم ساعة بالراحة ، ولاحظ الآخر شروده وسهومه فقال باستياء :

— مالك ؟ .. إنك لا تصغى إلى ..

فقال عباس بصوت حزين :

— اطلب لى كأسا أخرى ..

وحقق حسين مشيئته بسرور ، ورنا إليه بنظر مريب ثم قال :

— أنت متكدر وأنا أعلم بسبب كدرك ..

فخفق فؤاد الشاب وقال بعجلة :

— لا شيء مطلقا . هات ما عندك إنى مصغ إليك ..

ولكنه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار :

— حميدة ..

فاشتد وجيب قلبه ، وكأنه تجرع كأسا ثالثة ، فهاج دمه وسرى إليه الوجد والحزن والغضب ، فقال بصوت متهدج :

— أجل حميدة ، هربت ، خطفها رجل ، عار وشقاء ! .

— لا تحزن كثيراً كالحمق ، وهل طابت حياة من لم تفر عنهم نساؤهم ؟ !

وتناهى الانفعال بالشاب فقال بغير وعى :

— ترى ماذا تفعل الآن ؟ !

فضحك حسين ساخراً وأجابه :

— تفعل ما عسى أن تفعله أية امرأة فرت مع رجل ..

— أنت تهزأ بألمى .

— ألمك سخيف ، خبرنى متى علمت بفرارها ؟ .... مساء الأمس ! ... كان ينبغى أن تكون نسيتها الآن ..

وهنا أحدث عوكل — الغلام الشريب بائع الجرائد — حركة لفتت إليه أنظار الجلوس ، وكان استوفى شربه ومضى ثملا مترنحا حتى إذا بلغ عتبة الحانة . نظر فيما حوله بعينين زائغتين ورأسه يميل إلى الوراء فى عظمة وسلطنة وصاح بلسان ملتو:

— أنا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال ، أسكر وأنبسط ، وها أنا ذاهب إلى عشيقتى ، فهل لأحد منكم اعتراض ؟ . . . أهرام ، مصرى البمكوكة . . .

واختفى الغلام تاركا وراءه عاصفة من الضحك ، أما حسين كرشة فقد عبس غاضباً ، ولاح الشر فى عينيه ، وبصق بصقة طارت إلى الموضع الذى كان به الغلام ، وأخذ يسب ويلعن . كانت أقل إثارة من محمد — ولو على سبيل المزاح — كافية لإشعال غضبه وإهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه ، ولو كان الغلام يتناول يده للكمة أو ركله أو أخذ بتلابيبه . والتفت إلى عباس - وكان يتجرع كأسه الثانية — وقال بحدة وكأنه نسى ما كانا آخذين فيه من أسباب الحديث :

— هذه حياة وليست لعبة خشبية ، يجب أن نعيش ؛ . . ألا تفهم ؟

ولم ينتبه عباس إليه ؛ كان يخاطب نفسه قائلا : « لن تعود حميدة ، اختفت من حياتى إلى الأبد ، وماذا تجدى عودتها ؟ ، ولكن سأبصق على وجهها إذا التقيت بها يوماً ، هذا أشد من القتل . أما ذاك الأفندى فالويل له منى ؛ سأدق عنقه . . » .

واستدرك حسين قائلا :

— هجرت الدق فأعادنى الشيطان إليه ، سأضرم به النار ، هذه خير وسيلة للتحرر منه . .

فقال عباس بأسى :

— زقاقنا لطيف ، وما طمعت يوما فى أكثر من حياة طيبة فيه . . .

— إنك لخروف ! وحلال أن تنحر فى عيد الأضحى . علام تبكى ؟ . إنك عامل وفى جيبك نقود ، ولتجمعن غدا بتقتيرك مالا وفيرا فماذا تشكو ؟

فقال عباس بلهجة تشف عن الاستياء :

— إنك أكثر منى شكوى ، وعمرك ما حمدت الله . .

فحدجه الشاب بنظرة قاسية أثابته إلى رشده وجملته يستدرك قائلا بلين :

— لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولى دين ..

فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة ، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب برأسه :

— خير لى أن أشتغل خمارا من أن أشتغل مكان أبى فى القهوة ، الربح هنا موفور ، وفضلا عن هذا فالخمر مبذولة للخمار بغير حساب ...

فابتسم عباس ابتسامة فاترة وقد بات أشد حذراً فى مخاطبة صاحبه الديناميتى ، وكان دبيب الخمر يسرى فى أعصابه ، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه . وصاح حسين مرة أخرى :

— فكرة رائعة ! .. سأتجنس بالجنسية الإنجليزية ، فى بلاد الإنجليز الكل سواسية ، لا فرق بين الباشا وابن زبال . فلا يبعد أن يصير ابن القهوجى رئيس وزارة ...

وانبعثت نشوة مباغتة فى دم الحلو فقال بحماس :

— فكرة طيبة !... سأتجنس أيضاً بالجنسية الإنجليزية ...

ولكن حسين لوى شفتيه ازدراء وقال بسخرية .

— مستحيل ، أنت خرع ، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الإيطالية ، ومهما يكن من أمره فسنسافر على سفينة واحدة ... قم بنا .

ونهضا واقفين ، وأديا حسابهما ، وغادرا الحانة والحلو يتساءل :

— أين نذهب الآن ؟

٣١

لعل الساعة الوحيدة التى داومت عليها من حياتها الغابرة هى انطلاقها إلى الخارج فى الأصيل من كل يوم . ولكنها الآن تطيل الوقوف أمام المرآة المصقولة ؛ أصلها ثابت فى الحوض الذهبى وفرعها سامق فى سماء الغرفة . وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها وأخذت زينتها ؛ فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت فى أحضان النضارة ، ونمت وترعرعت فى مطارف الجاه والنعيم .

على الرأس عمامة بيضاء مرتفعة فى تقوس كالخوذة ، عقص تحتها شعرها المدهون العبق ، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الأصباغ ، بعد تجربة طويلة دلت على أن بشرتها البرنزية أفتن للجنود الحلفاء وأحب إليهم ، الأشفار مكحلة والأهداب مدهونة مفصلة تهدف إلى عل أطرافها الحريرية ، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر ، هلالان مزججان خطتهما يد ماهرة مكان الحاجبين ، سلسلتان من اليلانين ذات نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الأذنين ، غير ساعة ذهبية فى معصمها وهلال منغرس فى مقدم العمامة . فستان أبيض يشف أعلاه عن قميص وردى وتنضح حاشيته بسمرة فخذيها ، جورب رمادى من الحرير الخالص لبسته لا لشىء إلا غلو ثمنه ، وقد تطاير شذا عبق من تحت إبطيها وراحتيها وعنقها ، فلشد ما تغير كل شىء !

* * *

ولقد اختارت سبيلها من بادىء الأمر بمحض إرادتها ، وبعد تجربة وعناء ، تكشف لها أفقه عن أفراح وضاءة وخيبة مريرة ، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينيها بين اليمين والشمال متحيرة متلهفة ...

علمت من أول يوم ما يراد بها ، فثارت غاضبة هائجة ، لا لتكسر إرادة عشيقها الحديدية ، ولكن استسلاما لداعى عجرفتها وإشباعاً لغريزتها المتعطشة للعراك ، ثم أذعنت بعد ذلك وكأنها تذعن بمحض مشيئتها . وأدركت بوضوح ، وبفضل بلاغة فرج إبراهيم ، أنها لكى تتمرغ فى التبر ينبغى أن تتمرغ فى التراب ، فلم تبال شيئاً . وفتحت صدرها للحياة الجديدة بحماس وسرور وهمة ، حتى صدق عليها قول عشيقها يوم وصلها بالتاكس إلى حيها من أنها « عاهرة بالفطرة ! » وتجلت مواهبها فبرعت فى فترة قصيرة فى أصول الزينة والتبهرج وإن سخروا أول الأمر من سوء ذوقها ، فكانت سريعة التعلم محسنة للتقليد ، ولكنها سيئة الاختيار لألوان ثيابها وفى ميلها إلى الحلى تبذل ملموس . ولو كان ترك الأمر على ما تشتهى وتحب

لتبدت وكأنها « عالمة » فى زواقها الفاقع وحليها التى تكاد تغطى جسمها . وفيما عدا ذلك فقد تعلمت الرقص بنوعيه ، ودلت على مهارة فى تعلم المبادىء الجنسية للغة الانجليزية . ولم يكن النجاح الذى جاءها يجر أذياله بمستغرب ، فتهافت عليها الجنود وتساقطت عليها أوراق النقود ، وانتظمت فى سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير . وبدا لها أنها فازت بكل شىء ، وأنها لم تخسر شيئا ، فلم تكن فى عهدها الأول بالساذجة فتأسى للخدعة التى أطاحت بها ، ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب نفسها حسرات على مافقد من أمل فى الحياة الطيبة ، ولم تكن بالفاضلة حقا فتبكى على شرفها المثلوم ولم تشدها إلى ذلك الماضى ذكرى حسنة يهفو إليها الفؤاد فانغمرت فى حاضرها المحبوب لا تلوى على شىء . وعلى العكس من ذلك كانت غالبية الفتيات اللاتى يضطربن فى مضمارها . فمنهن جماعة يتطاحن فى قلوبهن الأسى والطمع والشقاء واليأس . ومنهن بائسات يشقين ليقمن أود أسرات جائعات . ومنهن تعيسات يخفين تحت شفاههن المصبوغة قلوباً دامية ، ونفوساً حنانة إلى الحياة الفاضلة أما هى فقد طابت بحياتها نفساً ، وأذكت عيناها الفاتنتان ضياء الزهو والحرية والرضا والفرح ، ألم تتحقق أحلامها ؟ بلى الثياب والحلى والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذلك ، ناهيك بهذه السطوة السحرية التى دان لها المعجبون . أفمن الغريب بعد ذلك أن يلوح المدق كما يلوح السجن للآبق الطليق ؟ ولقد ذكرت يوماً كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها عن الزواج منها . وتساءلت أكانت تفضل حقا أن تتزوجه ؟ . وجاءها الجواب بالنفى بلا تردد . ولو تحقق ذلك الزواج لكانت الآن قابعة فى بيت . دائبة علي القيام بدور الزوجة والخادم والأم وغير ذلك من الواجبات التى تذرى الآن عن تجربة ويقين أنها لم تخلق لها . فلله ما أبرعه وما أفطنه وما أبعد نظره ! . ومع ذلك أقول حذار ! . . إياك أن تتصورها امرأة شهوانية ، تستحوذ عليها شهوة طاغية . هى أبعد ما تكون عن ذلك ! والحق أن شذوذها لا يكمن فى قوة شهوتها . لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتى تستأسرهن الشهوة وتستذلهن فيجدن

بشكل غال فى سبيل إرضائها ، كانت تتلهف بروحها وجسمها على الظهور والسطوة والمراك ، وكانت — حتى بين ذراعى الرجل الذى محضته الحب — تتلمس أنامل الحب خلال اللكمات والصفعات ، وقد باتت شاعرة بهذا الشذوذ فى عواطفها ، أو هذا النقص فى طبيعتها ، وكان ذلك من دواعى تماديها واستهتارها ، بيد أنه كان ذلك من أسباب تملقها بعشيقها ، وعن هذا التملق نجمت الخيبة المريرة التى منيت بها .

* * *

كانت تجتر خواطر هذه الخيبة وهى ماثلة أمام المرآة تأخذ زينتها ، ثم طرق أذنيها وقع خطاه — ذلك الرجل — ورأت صورته فى المرآة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن ذاك العاشق الولهان ، فتحجر بصرها وتشنج قلبها لم يعد الرجل الذى عرفته من قبل ، وهذه هى الخيبة المريرة ولو طال به العهد لربما هان الخطب بعض الشىء ، ولكنه دهمها فى نشوة الأيام الأولى ، فلم تنعم بحبه خالصاً فى لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وأمل ، إلا زهاء عشرة أيام ! ثم غلب المدرب فيه على العاشق ، ومضى يتكشف رويداً عن التاجر ، ذلك الرجل القاسى الفظ الذى يتجر بالأعراض . والواقع أن قلبه لم يعرف الحب قط ، ولعله من الغريب أن تقوم حياته على هذه العاطفة التى لم تحرك فؤاده أبداً . كانت طريقته إذا أوقع فريسة فى شباكه أن يمثل معها دور العاشق — وهو ما أتقنه بطول الممارسة وأسعفته عليه خولته — حتى إذا استنامت إليه تمتع بها فترة قصيرة ، ومن ثم يطمئن إلى سيطرته عليها بما يبثه فيها من تعلق به وما يكبلها به من قيود مالية ، ثم بما يتهددها عادة من رقابة القانون ! . فإذا تم له سعيه بدا على حقيقته ، وتمخض العاشق عن تاجر الأعراض . ولقد عزت حميدة فتور عاطفته إلى الجو المشبع بأنفاس النساء الذى يعيش فيه ، فانقلبت ولا هم لها إلا الاستئثار به ، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذى نغص عليها صفوها ، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب . واستحوذت

عليها هذه المشاعر جميعاً وهى تنظر إلى صورته التى تطالعها على صفحة المرآة ، فتحجر بصرها وتوثبت إرادتها وتوترت أعصابها . أما هو فقال بلهجة سريعة متظاهراً بالعجلة :

— انتهيت يا عزيزتى . . ؟

ولكنها لم تعبأ به ، وتعمدت ألا تجيبه استكراها لما يبدى من ملاحظات عن « العمل » وتذكرت بحسرة عهداً لم يكن يحدثها إلا عن الحب والإعجاب ، الآن لا تنفرج شفتاه إلا عن العمل أو الربح ! . . والآن لا تستطيع عنه فكاكا بحكم هذا العمل ، وبطغيان عواطفها نفسها ، وإن الغضب ليملأ صدرها ، ولكن ماذا يجدى هذا الغضب ؟ ! . . لقد فقدت حريتها التى استباحت فى سبيلها كل منكر . وإنها ليداخلها شعور بالقوة والسيادة ما دامت فى الطريق أو الحانة ، حتى إذا رأيه أو ذكرته حل محل هذا الشعور الباهر إحساس بالأسر والذل . ولو اطمأنت إلى قلبه لهان كل عسير ، فذل الحب فى أعماقه ظفر ، أما والحال غير ذلك فما تدرى إلا الجنون مهرباً من حيرتها ، وكان فرج إبراهيم يعلم بما يختلج فى صدرها ، ولكنه كان يريدها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم بالقطيعة المرتقبة . ولو كانت امرأة أخرى لهان عليه هجر بغير عناء ، ولكنه آثر أن يجرعها كأس القنوط نقطة فنقطة ، واستوصى بالصبر والأناة شهراً طويلا ، حتى بات متأهبا للضربة الحاسمة ، قال بلهجته العرية عن العاطفة :

— هيا يا عزيزتى فالوقت من ذهب .

فصرفت وجهها إليه بعنف وقالت بحدة :

— هلا أقلعت عن هذه العبارات السمجة ؟ !

— هلا أقلعت أنت يا عزيزتى عن الإجابات الجافة !

فتهدج صوتها غضبا وهى تقول :

— أهكذا يحلو لك أن تخاطبنى الآن ؟ !

فتظاهر بالملل وقال :

— أوه . . أنعود مرة أخرى إلى هذا الحديث المجوج ؟ ! « تخاطبنى بهذه اللهجة » . . « أنت لا تحبنى » ... . « لو كنت تحبنى لما اعتبرتنى مجردسلعة !».. ماجدوى هذا الكلام ؟ . . ألا أكون عاشقا إلا إذا رددت صباح مساء « أنا عاشق » ؟ . . ألا أكون محبا إلا إذا بادرتك كلما التقينا « أحبك » ؟ . . ألا يكون حب إلا إذا شغلنا بحديث الحب عن عملنا وواجباتنا ؟ . . أحب أن يكون عقلك كبيرا كغضبك ، وأن تكرسى حياتك — كما أكرس حياتى — لعملنا العظيم ، وأن تجمليه فوق الحب نفسه وفوق كل شىء ...

وأصغت إليه بوجه مصفر من الغضب . هذا كلام بارد فاتر ، هذه مراوغة لا أثر فيها لعاطفة ولقد بلت مثل هذا الكلام من قبل ، وكادت تألفه مذ آنست منه الفتور . وإنها لتذكر كيف بدأ الماكر بنقدها متعمدا ، فكان يفحص يديها بعناية ، ويحثها على المزيد من الاهتمام بهما قائلا : « أطيلى أظافرك واصبغيها بالمانيكور ... يداك نقطة ضعف فى جمالك ! » وقال لها مرة أخرى متشفيا وقد طال بينهما الجدل : « حذار ، هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل ، صوتك ياعزيزتى . . ازعقى إذا شئت من الفم لا من الحنجرة ، فهذا صوت خشن فظ ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع ، ولعله أن يذكر السامع بالدق ولو كنت فى عماد الدين ! » . . هكذا تكلم الفاجر !.. لشد ما آلمها قوله وأذل قلبها الفخور . وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب ، ولكنه بكرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة ، وربما قال لها فى ملل « الحب لعب ونحن جادون ! » أو قال بغير مبالاة « هلمى إلى العمل . . الحب كلام فارغ » . تبا له ، لشد ماملأ وعاء خيالها بالذكريات الأليمة ! . وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدة :

— كلامك هذا لا يجوز على ، لماذا تذكرنى دائما بالعمل ؟ ألاهية عنه أنا ؟ ! إنك لتعلم أنى أفوق الأخريات وأبرع عليهن ، وإنك لتربح من

كدى أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات ، فاهجر أنت هذا الحديث المعاد الممجوج ، وخبرنى صراحة فقد ضقت باللف والدوران . أما زلت تحبنى ؟!

وحدثته نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع ! ألم يعهد له بما فيه الكفاية ؟ . . ونشط فكره فى سرعة وقلق وعيناه اللوزيتان لا تتحولان عن وجهها الغاضب ، ولكنه تردد وآثر السلامة ولو إلى حين ، فقال يدارسها :

— عدنا كما توقعت إلى الحديث القديم ...

فانفجرت صارخة :

— أجبنى صراحة أحسبتنى أموت أمس لو حرمتنى نعمة حبك ؟

ليس الوقت مناسبا لعله لو جابهته بهذا السؤال على أثر إيابها من الخارج ، أو فى الصباح — حين يتسع الوقت للملاحاة والشجار — لكان أجابها كما يشاء ، أما الآن فالجواب الصريح حرى بإضاعة ثمرة اليوم هباء فلذلك ابتسم ابتسامة باردة وقال بهدوء :

— أحبك يا عزيزتى ...

أقبح بكلمة الحب إذا ندت عن فم مملول ، كالبصقة ! استحوذ عليها القهر ، وشعرت فى قهرها بأنها لا تتأبى عن هوان وإن جل لو ضمن أن يعيده إلى أحضانها ! وأحست لحظة أن حبه مطلب تهون من أجله الحياة ، ولكنها كانت لحظة عابرة سرعان ما أفاقت من غشيانها ، ثم امتلأ قلبها ضغينة ، فاقتربت منه خطوات وعيناها تلمعان لمعان الماس الناشب فى عمامتها ، وقالت مصممة على أن تشق طريق التحدى حتى نهايته :

— تحبنى حقا ؟! إذن فلنتزوج .

ونطقت عيناه بالدهشة ، ونظر إليها بين مصدق ومكذب . ولم تكن تعنى ما قالت ولكنها أرادت سبر أغواره ، فقال لها :

— وهل يغير الزواج من أمرنا شيئاً ؟

— أجل . لنتزوج ، ولنهجر هذه الحياة .

ونفد صبره ، وتولدت فى صدره عزمة صادقة : أن يحسم الأمر بما يقتضيه من صراحة وقسوة ، وأن يحقق ماجال بخاطره طويلا ولو ضاعت ثمرة الليلة ، وقهقه ضاحكا فى غيظ وسخرية وقال هازئا :

— نعم الرأى ! ، أحسنت ياعزيزتى ، نتزوج ونعيش كما يعيش الشرفاء . إبراهيم فرج وحرمه وأبناؤهما ليمتد ! ، ولكن خبرنى ماهو الزواج ؟ . . لقد أنسيته كما أنسيت الآداب الشريفة جميعاً ، أو دعينى أتذكر قليلا ، . . زواج ؟ ! . . شىء خطير فيما أذكر يتضمن رجلا وامرأة ومأذونا ووثيقة دينية وطقوسا كثيرة ، . . متى عرفت هذا كله يا إبراهيم ؟ . . فى الكتاب أو المدرسة ؟ ! ولكن لا أدرى أما تزال هذه العادة متبعةأم قد أقلع الناس عنها ! .. خبرينى يا عزيزتى ألا يزال الناس يتزوجون ؟

وارتعشت أطرافها غضباً ، وأفعم قلبها يأساً وغما ، ونظرت إليه فإذا به مبتسما هازئا سادرا فجن جنونها وارتمت عليه ناشبة أظافرها فى عنقه ؛ ولم تفجؤه حركتها المباغتة فتلقاها بسكينة ، وقبض على ساعديها وفرج بينهما ثم تخلص منها والابتسامة الهازئة لاتفارق شفتيه ، فاشتد حنقها وغضبها ، ورفعت يدها بسرعة خاطفة وصفعته بكل ما أوتيت من قوة وعصبية . وغاضت ابتسامته ولاحت فى عينيه نظرة وعيد وشر ، فردت عليها بنظرة جريئة متحدية ، وانتظرت شبوب العاصفة بجزع وتلهف ، وكادت تنسى أسباب آلامها فى لذة العراك المرتقبة ، ومنتها أحلامها الهستيرية بختام سعيد لهذا النضال البهيمى . ولكنه كان من ناحية أخرى يقدر عواقب الاستسلام للغضب ، ولا يغيب عنه أن دفع العدوان بالعدوان سيوثق الرباط الذى يروم نقضه ، ويزيد من تعلقها بها ، فضبط نفسه ، وكبح جماح غضبه ، وصمم على أن يكاشفها بالقطيعة السافرة وذلك بالانسحاب من المعركة دون دفاع ، فتراجع خطوة ، وانفتل آفلا وهو يقول بهدوء :

— هلمى إلى العمل يا عزيزتى ...

ولم تكد تصدق عينيها ، وألقت على الباب الذى غيبه نظرة ساهمة رنق بها القنوط . وأدركت سر تقهقره بغريزتها فاستشف قلبها الحقيقة المفجعة . وتقلقل صدرها برغبة حارة مباغته فى قتله ! ، انفجرت فى صدرها بقوة آسرة لا كأمنية الضعيف الحاقد ، ولكن رغبة فتاكة شعرت بأنها فى نطاق طاقتها . لقد عرفت جوانب كثيرة من نفسها على ضوء هذا الرجل ، وها هو ينم صنائعه فيكشف عن أخطر هذه الجوانب جميعاً . ولكن أيرضيها حقا أن تبيع الحياة من أجل الفتك به ؟ إنها استهانت بكل شىء فى سبيل الحياة ، أما الاستهانة بالحياة نفسها . . ؟ ! وانقبض صدرها ، واستحوذ عليها قلق مفعم بالنفور ، وبقيت رغبتها فى الانتقام تتلظى ويندلع لهيبها . ينبغى أن تغادر البيت أولا ، وفى الخارج مهرب من جحيم الفكر ، ومجال للأناة والتدبير . وسارت متثاقلة صوب الباب ، ثم ذكرت أنها تهجر هذه الحجرة — حجرتهما — لآخر مرة ، فدارت على عقبيها كأنما لتلقى عليها نظرات الوداع . تنزى قلبها فى صدرها فى تلك اللحظة الفاصلة ، رباه . . كيف انتهى كل شىء بهذه السرعة ؟ ! . . هذه المرآة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة ، وهذا السرير الوثير مهد الغرام والأحلام ، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين يديه تصغى إلى إرشاداته بين العناق والقبل ، وهذا الخوان يحمل صورتهما معا فى ثياب السهرة ! . ثم ولت الذكريات ظهرها وفرت من الحجرة . وفى الطريق لفحها الهواء الدافىء فتنسمته فى إعياء ، وأخذت فى سبيلها وهى تقول لنفسها « لن أعدم طريقة للفتك به ! » كم يكون هذا شافيا على شرط ألا تدفع حياتها ثمنا له ، لم تخلق الحياة للتضحية ، الحياة فوق كل شىء ، بل فوق الحب نفسه . حقا بات الحب ندبا عميقا فى سويداء قلبها ، ولكنها ليست المرأة التى يفنيها الحب . بها جرح عميق ، ولكن الجريح يعيش حتى وهو ينزف ، بل يستطيع أن يتمتع بحياة عريضة فيها الذهب والسرور والسطوة والعراك . هكذا لاقت خيبتها . ورأت عربة فأشارت إلى الحوذى وركبت ،

واستشعرت حاجة ملحة إلى مزيد من الراحة والهواء فقالت له :

— إلى ميـدان الأوبرا أولا ، ثم عد من شارع فؤاد الأول . واحدة واحدة من فضلك .

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها إلى الوراء ، واضعة رجلا على رجل ، فانحسر الفستان الحريرى عن بطن فخذيها ، واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر ، وأشعلت سيجارة ، وراحت تدخن بشغف غير عابئة بالأنظار التى تتخاطف ما انجلى من لحمها ...

وغرقت فى خضم الفكر . هيهات أن يبرأ قلبها من أوجاعه ، ومع ذلك فهيهات أن تسترخى يدها القابضة على حبـل الحياة . وتمزت بآمال كثيرة ومسرات مرتقبة ، ولـكن لم يجر لها فى خاطر أنها قد تستجد حباً ينسيها هذا الحب الخائب لأنها كانت حاقدة على الحب ، ولأن الإنسان — إذ يفقد جوهرة الحب اللامعة — لا يتصور أنه سيسعد بالعثور عليها مرة أخرى . وانتبهت إلى الطريق فإذا بالعربة تدور فى محيط الأوبرا ، ولمحت فى دورانها عن بعد ميدان الملـكة فريدة ، فطار الخيال بها إلى الموسكى والسكة الجديدة والصنادقية والدق ، ولاحت لعينيها أخـلاط أطياف نساء ورجالا ، وتساءلت : ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء إذا رآها فى هذا الزى ؟ . . أيستطيع أحدهم أن يستشف حميدة وراء تيتى ؟ ! . وماذا تبـالى ؟ ! . لا أب لهـا ولا أم ! . ونفخت دخان سيجارتها فى استهانة ورمت بالعقب . وأخذت تتسلى بمشاهدة الطريق حتى رجعت العربة إلى شارع شريف ، واتجهت نحو الحـانة التى تقصدها ، وفى تلك اللحظة قرع أذنيها صوت كأنما انشق عنه قبر هاتفاً « حميـدة » ، فالتفتت نحوه وقد تملـكها الذعر ، فرأت عباس الحلو على بعد ذراع منها لاهثاً . .

(٣٢)

وهتفت وهى لاتدرى :

— عباس ...

كان الفتى يلهث مبهوراً بعد أن ركض شوطاً كبيراً وراء العربة من ميدان الأوبرا ، وقد اندفع لا يلوى على شىء ، يصطدم بالكتل البشرية ، لا يعتاقه ما ناله من دفع ، ولا يثنيه ما لحقه من شتم ولعن . وكان قبل ذلك يسير متأبطاً ذراع حسين كرشة ، يتخبطان على غير هدى — عقب مغادرتهما الحانة فيتا — حتى انتهى بهما التخبط إلى ميدان الأوبرا ، فالتقى بصر حسين بالعربة التى تحمل حميدة ، ورأى الجالسة داخلها ، فلم يعرفها ، وأرعش حاجبيه استحساناً وهو يلفت صاحبه إليها . ونظر عباس إلى العربة المقبلة عليهما فى طوافها بالميدان ، وعلق بصره بالفتاة الغائبة فى أفكارها ولم يستطع أن يسترد عينيه ، جذبهما بقوة سحرية شىء فى الوجه ، وفى القوام ، شىء كالشبه ، أو هو شبه رقيق يحسه القلب قبل أن تحسه العينان ، وتمشت فى مفاصله رعدة اقلب بعدها من سكره الخفيف صاحيا ، وهتف القلب « هى ؟ » ، وكانت العربة قد ولته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكية ، فلم يأل عدواً وراءها بلا تدبر ولا تفكير وصاحبه يزعق وراءه معربداً صاخباً ، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأول ولكن عينيه لم تتحولا عن العربة ، ثم استأنف العدو جاهداً لا تكاد تسعفه قدرته إلا قليلا ، حتى أدركها وهى توشك أن تدخل الحانة فناداها . ولما أن التفتت إليه وهتفت باسمه قطع الشك باليقين ، وأدركت حواسه ما سبق القلب إليه ، فوقف حيالها لاهثاً مبهوراً لا يدرى كيف يصدق عينيه . وغلبتها الدهشة والانزعاج أول وهلة واستحوذ عليها الانفعال ، ثم شعرت بحرج موقفها وأشفقت من فضول المتسكعين ، فتمالكت مشاعرها . وأشارت إليه ومضت فى عجلة

إلى عطفة سابقة للحانة — وهو يتبعها — ودخلت أول باب إلى يسارها وكان حانوت أزهار . وحيتها بائعة الزهور — التي عرفتها بحكم ترددها على المكان — فردت تحيتها. وسارت به إلى نهاية الحانوت متحامية مواقع الأنظار وأدركت بائعة الزهور أنها تريد أن تختلى بصاحبها فمضت إلى مقعدها ، وراء معرض الزهور وجلست بغير مبالاة كأن أحداً لم يقتحم عليها حانوتها . وقفا وجهاً لوجه ، يلفه الانفعال والحيرة وترتعش أطرافه تأثراً ما الذى دعاه إلى هذا العدو القاتل ؟! ماذا يروم من هذا اللقاء المتصعب ! . وجد نفسه فى تلك اللحظة عريا من كل رأى أو عزم . ولقد كانت ذكريات الشر الذى هصر آماله — فى أثناء عدوه — تذر على عينيه غباراً فتكاد تحجب عنه الطريق ، ولكنه لم يبيت رأياً أو يستجد عزماً ، فركض ركضاً آلياً لا يتبين له غاية ، حتى إذا هتفت باسمه فقد البقية من وعيه وتبعها إلى الحانوت كالسائر فى نومه . وأخذ يفيق رويداً من الإعياء والجهد والانفعال ، وراح بصره يعاين المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزينتها الغريبة متلمساً عبثاً أن يجد فيها موضعاً للفتاة التى أحبها ، فارتد البصر كليلا ، وتجرع قلبه غصص اليأس المرير . لم تكن بساطة قلبه من البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى ، ولقد أجبرته الشائعات فى المدق على تصديق أمر فظيع ، ولكن الشائعات بلا ريب كانت دون الحقيقة الماثلة لعينيه وامتلأ قلبه المقهور شعوراً بتفاهة الحياة وعبثها ، بيد أن غضبه الذى أصلاه نارا حامية فى ليله ونهاره ، لم ينفجر ، فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتى البصق عليها . وجعلت حميدة تنظر إليه فى ارتباك وحيرة ، واستشعر قلبها خوفا حيال هذا الأثر من الماضى الذى تتحاماه ، ولكنه لم يحرك بها عطفاً أو ندما ، بل استثار ازدراءها ومقتها ولعنت فى سرها شؤم الحظ الذى رمى به فى طريقها واشتد الصمت على أعصابهما ، ولم يعد فى الوسع احتماله ، فقال الحلو بصوت مبحوح متهدج :

— حميدة ! . أهذا أنت ؟! . . رباه كيف أصدق عينى ؟! . . كيف هجرت بيتك وأمك وانقلبت إلى هذه الحال ؟!

وأجابته فى ارتباك غير خاف :

— لا تسألنى عن شىء ، فليس عندى ما أقوله ، وهذا قضاء الله الذى لا يرد .

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر ، فاستفزا غضبه وأثارا حنقه ، فملأ صوته مزمجراً حتى ملأ الحانوت :

— كاذبة فاجرة ... أغواك فاجر مثلك ففررت معه . وتركت وراءك فى حيك أسوأ الذكرى ، وها هو الفجر السافر يطالعنى فى وجهك وتبرجك الفاضح ...

واستفز هذا الغضب المفاجىء شراستها الطبيعية فغضبت غضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف ، وضاعفها ما احتملته فى يومها من حنق وخيبة ، فاربد وجهها وصرخت فى جنون :

— صه ... لا تزعق كالمجانين ، أحسبت أنك تخوفنى بصراخك ؟ ! ماذا تريد منى يا هذا ؟ . لا حق لك على فاغرب عن وجهى ...

وخبا غضبه قبل أن تتم كلامها ! قهر غضبها غضبه فأماته فى صدره وكأنه كان يشعله الماء وتطفئه النار . وحملق فى وجهها ذاهلا وغمغم بصوت مرتعش النبرات :

— كيف سولت لك نفسك أن تقولى هذا القول ؟ ... ألست ... ألم تكونى خطيبتى ؟

وتشفت بهزيمته ، وارتاحت إلى غضبتها التى أسعفتها فى الوقت المناسب وقالت بتململ :

— أى فائدة تجنى من ذكر الماضى الآن ؟ ! لقد مضى وانقضى ...

فقال متحيراً متوجعاً :

— أجل مضى وانقضى ، ولكنى فى حيرة من أمرى وأمرك ، ألم تقبلى يدى ؟ ... ألم أهاجر إلى ذاك البلد البعيد من أجل سعادتنا معاً ؟ ! .

لم تعد تشعر نحوه بارتباك أو حرج ، وتساءلت فى جزع : متى يمسك عن هذا ؟ متى يفهم ؟ متى يرحل ؟ . ثم قالت بلهجة لاتخلو من برم :

— أردت شيئاً وأرادت الأقدار سواه . .

ولم يغب عنه تململها ولكنه بات أشد تشبثاً بالكلام والاستفسار ، واستمد من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول بيأس :

— ماذا صنعت بنفسك ؟ كيف انقلبت إلى هذا المصير الأسود ؟ . . أى شؤم أعمى بصيرتك ؟ . . . ومن يكون (وهنا استغلظ صوته) ذلك المجرم الذى خطفك من حياتك الطاهرة وطرحك فى مزبلة الدعارة ؟ . .

واكفهر وجهها ، وتناهى بها الجزع ، وقالت بلهجة تشى بالملل :

— هذه حياتى ، هذه النهاية التى لامهرب منها ، نحن الآن غريبان وكلانا ينكر صاحبه ، لم يعد بوسعى الرجوع ، ولن تستطيع مهما قلت أن تغير من الواقع شيئاً ، وحذار أن تغلظ لى القول فلست على حال أملك معها السماحة أو العفو ، وإنى لأقر بعجزى حيال حظى ومصيرى ، ولكنى لا أحتمل أن يضاعف لى إنسان الكرب بالغضب والزجر . انسنى ، واحتقرنى كما تشاء ، واتركنى بسلام . .

ما هذه بفتاته ، أين منها حميدة التى أحبها وأحبته ؟ ياعجبا ! ألم تحبه حقا ؟ ألم تلصق شفتيها بشفتيه على بسطة السلم ؟ ألم تدع له يوم الوداع وتمده باستشفاع الحسين لإجابة الدعاء ؟ . . فمن تكون هذه الفتاة ؟ ؟ . ألا تستشعر ندما ؟ ألم تلنها إثارة من حنان قديم ؟ وأوشك أن يغضب مرة أخرى لولا إشفاقه من غضبها ، فتنهد تنهد المغيظ المقهور وقال :

— إنك تحيريننى ، وكلما أصغيت إليك تضاعفت حيرتى ، لقد عدت بالأمس من التل الكبير فدهمنى الخبر الأسود على غرة ، أتعلمين ماذا دعانى لهذه العودة ؟ ! . . . (وأبرز علبة القلادة وأراها إياها) . . . عدت بهذه هديةً لك ، وكان فى نيتى أن أعقد عليك قبل أن أرجع إلى البلد . . .

وألقت على العلبة نظرة صامتة . وفى أثناء ذلك وقعت عيناه على الهلال

الماسى والقرط اللؤلؤى فتراجعت يده بالعلبة إلى جيبه ، وتناهى به الضيق فسألها بحدة :

— ألا تأسفين على هذه النهاية ؟ ! .

ولمت عيناها بخاطر غامض بث فى نفسها يقظة محمومة ، فقالت بلهجة حزن مصطنعة :

— أنت لا تدرى كم أنى شقية .

فاتسعت عيناه فى دهشة وريبة ، وقال بألم بالغ :

— يا للشقاء ياحميدة ! . . . لماذا أصغيت لنداء الشيطان ؟ . . . كيف هانت عليك حياتك الشريفة ؟ . . كيف تبذت الحياة الطيبة والأمل المرتقب من أجل (وهنا تحشرج صوته) . . مجرم آثم وشيطان رجيم ؟ ! . . . هذه جريمة لا تغتفر . . .

وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلتهم أفكارها ، فقالت بلهجتها الأسيفة الجديدة :

— إنى أؤدى ثمنها من لحمى ودمى . . .

وازدادت دهشته ، وخالطها ارتياح غامض سروراً بالشقاء المزعوم الذى اعترفت به ، ولكنها لم تنكسر عن حدتها اعتباطا ، كانت أفكارها تتوارد بسرعة جنونية فى إلهام شيطانى ، خطر لها أن تحرضه على الرجل الذى هرس قلبها بقسوة وسخرية ، وأملت أن تجعله أداة انتقامها وهى بمأمن من عوادى الشقاء . ورقت نظرة عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

— لست إلا شقية يا عباس . لا تؤاخذنى على سوء قولى فقد أفقدنى الشقاء وعيي . إنكم جميعاً تروننى عاهرة فاجرة ، والحق أنى شقية بائسة ، خدعنى الشيطان الرجيم كما دعوته بحق ، لا أدرى كيف أذعنت إليه ، ومع ذلك فلست أنتحل لنفسى عذرا ، ولا أطمع أن أسألك العفو ، فإنى أعلم أنى مذنبة ، وها أنذى أدفع ثمن جريرتى النكراء . اعف عن غضبى الذى أهاجته كلماتك العادلة ، وابغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك الطاهرة

الـكريمة ، واشمت بى فلست فى حاضرى إلا ألعوبة رخيصة فى يد من لا يرحم ، يطلقنى فى الطرق ويستغل شقائى بعد أن استلبنى أعز ما أملك . إنى أمقته ، أمقته بكل ما فى من شقاء ومهانة هما من غرسه ، ولـكن هيهات أن أجد لى منه مهرباً . .

أذهله حديثها الشاكى عن نفسه ، وراعته نظرة الشقاء تغشى عينيها ، فنسى المرأة المتنمرة التى كادت تفتك به منذ برهة قصيرة ، وأهابت به رجولته أن يغضب ، فزمجر صائحا :

— يا للشقاء ياحميدة ، إنك شقية ، وإنى شقى ، كلانا شقى بفعل هذا المجرم . أجل ، لا أستطيع أن أنسى أنك أخطأت خطأ أثيما ، وأن هذا الخطأ يحول بيننا إلى الأبد ، ولـكن بينا يشقى كلانا بهذا الخطأ ، إذا بالمجرم الأول مطمئن سعيد كأنما يسعد بشقائنا ، فلا كانت حياة إذا أنا لم أحطم رأسه ! .

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها أن يفضحها ، وكانت سرعة انزلاقه إلى شبا كها فوق مطمعها ، وارتاحت بصفة خاصة إلى قوله : « هذا الخطأ يحـول بيننا إلى الأبد » فأمن قلبها أن يجرجره الانفعال إلى حـد العفو عنها ، والسعى لاستردادها ، وما كانت تحلم بهذا كله . أما الحلو فاستدرك يقول عابسا راغبا :

— لا ارتاح لى بال قبل أن أحطم رأسـه وأهشم عظمه ! . أجل ، لا أستطيع أن أنسى أنك فررت معه ، ولا أنهم رأوك تسيرين فى صحبته ، فلا أمل أن نجتمع مرة أخرى ، لقد فقدت حميدة التى أحببتها إلى الأبد ، ولـكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى كلينا . خبرينى أين أجده ؟

فقالت وعقلها فى تفكيره أسرع من لسانها فى نطقه :

— لا سبيل لك عليه اليوم ، ولـكن تعال يوم الأحـد ظهراً إذا شئت فتجده فى الحانة عند أول هذه العطفة ، ولن تجـد مصريا سواه فيها ، فإذا التبس عليك الأمر أشرت إليه بعينى . ولـكن ماذا تنوى أن تفعل به ؟

نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الإشفاق عليه من العواقب ، ولكنه أجاب فى جنون الغضب واليأس قائلا :

— سأحطم رأس القواد الوضيع . .

وتساءلت وعيناها تتفرسان فى وجهه : أيستطيع الحلو أن يقتل ؟! . .

ولم يغب الجواب عن فراستها ، ولكنها أملت أن يثير من حوله فضيحة تسوقه إلى يد القانون ، فتنتقم منه وتخلص من أسره . وارتاحت إلى أفكارها بلا تدبر أو نقد ، بيد أنها لم تخل من رغبة صادقة فى ألا يصيب الحلو شر فادح من مخاطرته ، وتمنت على الله أن ينتقم لها من غريمها دون أن يذهب ضحية لفعله !. . ولذلك قالت تحذره :

— لاتبلغن بك الرغبة فى الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك ! اضربه افضحه . . جره إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه . . .

ولكنه لم يكن يصغى إليها ، وكان يقول وكأنه كان يخاطب نفسه :

— لايصح أن نشقى بلا ثمن : انتهت حميدة ، وانتهى عباس ، فكيف يروح القواد آمنا ضاحكا من تماستنا ؟ لأدقن عنقه ولأكتمن أنفاسه ، (ثم علا صوته موجهاً إليها الخطاب) : وأنت ياحميدة ماذا تصنعين بحياتك إذا نحيت عن سبيلك هذا الشيطان ؟

وخافت على نفسها ماعسى أن يؤدى إليه هذا السؤال ، وأشفقت من أن يتطرق إلى مسارب نفسه ضعفه القديم ، فقالت بحزم وهدوء :

— انقطع مابينى وبين العالم القديم ، ولكنى سأبيع ماعندى من حلى وأجد لنفسى عملا شريفاً فى مكان بعيد . . .

وصمت صمتاً طويلا متفكراً محزونا ، فسانت فى صمته من القلق ألوانا ، حتى طامن من رأسه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

— لا يستطيع قلبي أن يعفو . . لا يستطيع ، لا يستطيع . . . ولكن لاتعجلى بالاختفاء مرة أخرى حتى نرى كيف ينتهى هذا الأمر ..

ووجدت فى لهجته ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام ، فلمت

عيناها فى حذر وقلق ، وآثرت فى أعماق قلبها الثائرة أن يهلك هو وغريمها على أن يعود إليها فاتحاً ذراعيه ؛ بيد أنها لا تستطيع أن تفصح له عما يدور بخلدها ، ولن يشق عليها الاختفاء إذا شاءته ، وإذا تم لها الانتقام الذى تتلهف عليه فما أيسر أن تشد الرحال إلى الاسكندرية التى حدثها عنها إبراهيم فرج كثيرا ، وهنالك تصفو لها الحياة وتطيب فى حرية لا يحدها قيد ؛ وفى أمن من المتطفلين ، ولذلك لم تجد بأسا فى أن تقول له بمثل لهجته الرقيقة :

— لك ما تشاء ياعباس . .

وكان قلبه يعانى مرارة الشقاء والقنوط والتحفز للانتقام ؛ ولكنه ما انفك ينبض بالحيرة والعطف . .

٣٣

كان يوم وداع وسرور ، فدبت فى قلوب الرفاق عاطفة واحدة ، ذلك أن للسيد رضوان الحسينى منزلة رفيعة فى القلوب جميعا على السواء . كان السيد قد استخار الله فى أداء فريضة الحج هذا العام فأخاره ، وعلم الجميع أنه يسافر عصر اليوم بمشيئة الرحمن إلى السويس فى طريقه إلى الأراضى المقدسة . وامتلأ بيته بالمودعين من أصدقاء العمر وإخوان الصفاء ، وحفوا به فى الحجرة القديمة الوديعة التى طالما أصغت جدرانها إلى سمرهم الورع اللطيف عاما بعد عام . واستفاض حديث الحج ، وثارت ذكرياته ، ولهجت بها الألسن فى أركان الغرفة حول خط متموج من دخان البخور يتصاعد من المجمرة ، ورووا نتفاً من أخبار الحج شملت المعاصرين والغابرين ، واستشهدوا بالكثير المأثور من الأحاديث الشريفة والأشعار الجميلة . ورتل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ثم أنصتوا جميعا إلى فيض من كلام السيد رضوان أفصح به فؤاده عما يكنه من رقة وطيبة . .

وكان أحد الأصفياء قد قال له :

— سفر سعيد وعود حميد .

فأشرقت في وجه السيد ابتسامة وضاءة كسته جمالا على جمال ، وقال بصوته الحنان :

— أخى لا تذكرنى بالعود . إن من يقصد بيت الله وفى قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيب دعاءه وينفد سعادته . سأذكر العودة حقا إذا فصلت عن مهبط الوحى فى طريقى إلى مصر ، وأعنى بها العودة إلى الحج مرة ثانية إذا أذن الرحمن وأعان . من لى بمن يقرنى ماتبقى من العمر فى البقاع الطاهرة ، أمسى وأصبح فلا أرى إلا أرضا تطامنت يوما للمس أقـدام الرسول ، وهواء خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة ، ومغانى أصغت للوحى الـكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء ، هنالك لا يطوف بالخيال إلا ذكريات الخلود ، ولا يخفق الفؤاد إلا بحب الله ، هنالك الدواء والشفاء . أخى ... أموت شوقا إلى استطلاع أفق مكة ، واستجلاء سماواتها ، والإنصات إلى همس الزمان بأركانها ، والسير فى مناكبها ، والانزواء فى معابدها ، وإرواء الغلة من زمزمها ، واستقبال الطريق الذى مهده الرسول بهجرته فتيممته الأقوام من ثلثمائة وألف عام ولا يزالون ، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر النبوى والصلاة فى الروضة الشريفـة ، وإن بقلبى من مـكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثه ، ولدى من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوره . أرانى يا إخوان ضاربا فى شعاب مكة تاليا الآيات كما أنزلت أول مرة . كأنما أسمع درسا للذات العلية ، أى سرور ! . . وأرانى ساجدا فى الروضة متخيلا الوجه الحبيب كما يتراءى فى المنام أى سـعادة ! . . . وأرانى متخشعا لقاء المقام مستغفراً فأى طمأنينة ! . وأرانى واردا زمزم أبل جوارح الشوق بندا الشفاعة فأى سلام ! . أخى لا تذكرنى بالعودة وادع الله معى أن يحقق لى المنى . .

فقال له صاحبه :

— حقق الله مناك ومتعك بطول العمر والعافية .

فضم السيد راحته المبسوطة على لحيته وقد تألقت عيناه بسرور وهيام وراح يقول:

— نعم الدعاء ، والحق إن حبي الآخرة لا يدفعني إلى الزهد فى الدنيا أو التململ من الحياة ، لطالما لستم بأنفسكم حبي الحياة والسرور بها ، كيف لا وهى من خلق الرحمن ؟ خلقها الله وملأها بالعبر والأفراح فمن شاء فليتفكر ومن شاء فليشكر ، ولذلك أحبها ، أحب ألوانها وأصواتها ، وليلها ونهارها ، ومسراتها وآلامها ، وإقبالها وإدبارها ، وما يدب على ظهرها من حى أو يقيم عليه من جماد ، هى خير خالص ، وما الشر إلا عجز مرضى عن إدراك الخير فى بعض جوانبه الخافية ، فيظن العاجز المريض بدنيا الله الظنون . لذلك أقول لكم إن حب الحياة نصف العبادة وحب الآخرة نصفها الآخر ، ولذلك يهولنى ما تنوء به الدنيا من دموع وأنات وسخط وغضب وغل وسخيمة ، وما تبتلى به فوق هذا كله من ذم المرضى العاجزين ! أكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا ؟ أكانوا يحبون لو لم تخرج من العدم ؟ أتسول لهم نفوسهم الاعتراض على الحكمة الإلهية ؟ وما أبرىء نفسى ، فلقد ملكنى الحزن مرة على اقتطاع فلذة من كبدى ، وتساءلت فى غمرة الحزن والألم لماذا لم يبق الله على طفلى حتى يتمتع بحظه من الحياة والسعادة ، ثم شاء الله أن يهدينى ، فقلت لنفسى أليس هو — عز وجل — الذى خلقه ، فلماذا لا يسترده وقتما يشاء ! ولو أراد الله له الحياة للبث فى هذه الدنيا حتى يشاء الله ، ولكنه استرده لحكمة اقتضتها مشيئته ، فهو لا يفعل شيئا إلا لحكمة ، والحكمة خير ، فقد أراد ربى به وبى خيرا ، وسرعان ما غلبنى السرور بإدراك حكمته على حزنى ، ولسان قلبي يقول : ربى لقد وضعتنى موضع البلاء لتختبرنى وها أناذا أجوز امتحانك ثابت الإيمان ، ملهماً حكمتك ، « فاللهم شكراً » وصار ديدنى إذا أصابتنى مصيبة أن ألهج من أعماق قلبي بالشكر والرضا .

كيف لا والله يخصنى بالامتحان والعناية ، وكلما عبرت محنة إلى بر السلام والإيمان ازددت إدراكا لما فى مقاديره من حكمة وما فيها بالتالى من خير ، وما تستحق بعد ذلك من شكر وسرور ، وهكذا وصلت المصائب ما بينى وبين حكمته على دوام لا ينقطع ، حتى خلتنى طفلا مدللا فى ملكوته يقسو على لأزدجر ، ويخوفنى بعبوس مصطنع ليضاعف سرورى بالأنس الحقيق الدائم ، وإن الحبيب ليسير محبوبه بالصد حيناً ، وإن عرف المحبوب أن الصد مكر محب لا هجر قال ، تضاعف حبه وسروره . فما عدوت أن وقر فى اعتقادى أن المصابين فى هذه الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه ، خصهم بحب مقنع ، ورصدهم غير بعيد ، ليرى إن كانوا حقاً أهلا لحبه ورحمته .. فالحمد لله كثيرا ، بفضله عزيت من حسبوا أننى أهل للعزاء ..

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من إلحاح التعبير عن مكنون صدره مايجده المغنى إذا سكر بحلاوة الطرب وتاه فى سلطنة الفن ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد :

— يذهب أناس إلى أن هذه المصائب وأمثالها مما يبتلى به الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفطن لحكمتها عامة الناس ، وتراهم يقولون إنه لو تفكر الأب الثاكل مثلا لوجد أن ثكله جزاء ذنب اقترفه هو أو أحد آبائه الأولين ، ولكن لعمرى إن الله أعدل وأرحم من أن يأخذ البرىء بالمذنب وتراهم يستشهدون على صواب رأيهم بما وصف الله به نفسه من أنه عزيز ذو انتقام ، ولكننى أقول ياسادة إن الله تعالى غنى عن الانتقام ، وإنه إنما أضاف هذه الصفة لذاته لينبه الإنسان إلى احتذائها ، وقد سبقت إرادته بألا تستقيم أمور هذه الدنيا إلا بالثواب والعقاب ، أما ذاته العزيزة الجليلة فسنتها الحكمة الربانية والرحمة الإلهية . ولو أننى اكتشفت تحت مصائبى عقابا أستحقه ، أو وجدت وراء جثث أبنائى جزاء استأهله ، لاعتبرت حقا ، ولا زدجرت حقا ، ولكن كان يبقى فى النفس ضنى وفى العين دموع ،

ربما هتف قلبي المحترق : ضعيف أذنب وبرىء هلك ، فكيف العفو والرحمة ؟ ! فأين هذا من مصيبة تستشف الحكمة والخير والسرور ! . .

وأثار رأيه اعتراضات كثيرة ، فتمسك البعض بالنص ، وأول البعض التفسير ، ورد آخرون الانتقام إلى الرحمة . وكان كثيرون أقوى منه عارضة وأوسع علماً ولكنه لم يكن متهيئاً للجدل ، كان متفتحا فحسب للتعبير عما يضطرم فى فؤاده من الحب والسرور ، فجعل يبتسم ببراءة الطفل ، متورد الوجه متألق العينين ، وراح يقول بصوت رققه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين :

— معذرة ياسادة فإنى أحب الحياة ، بل أحب نفسى ، لا كذات تتملق بى ، ولكن كفلذة من قلب البشرية ، ونبض من الحياة ، وخلق للصانع الأجل ، وتجربة للحكمة الإلهية ، وأحب الناس جميعاً حتى المجرمين الشائهين . أليسوا يرمزون إلى عناء الحياة الممض فى سبيل الكمال ؟ . . أليسوا ظلمة تلق عتمتها على بهاء الخير ضياء ؟ ذرونى أبح لكم بسر دفين ، أو تعلمون ما الذى بعثنى إلى الحج هذا العام . .

وصمت السيد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج ، ثم قال يجيب نظرات الاستطلاع التى عكستها الأعين :

— لا أنكر أن الحج أمنية طالما نازعنى الفؤاد إليها ، ولكن قضت إرادة الله أن أؤجلها عاما بعد عام ، حتى حسبتنى قد بت أوثر الشوق إلى الحبيب على الحبيب نفسه ، ولأشواق العبادات لذة كقضائها . ثم كان من أمر زقاقنا ما تعلمون ، نشد الشيطان على أعين رجلين وفتاة من جيراننا ، أما الرجلان فقادهما إلى قبر ينبشانه وغادرهما فى السجن . وأما الفتاة فاستدرجها إلى هاوية الشهوات وغاص بها فى حمأة الرذيلة . هنالك زلزل قلبى زلزالا شديدا تصدعت له أضلعى . ولا أكتمكم ياسادة أن شعوراً بالذنب داخلنى لأن أحد الرجلين كان يقتات على الفتات ، وقد نبش القبر لعله يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسغيها ، كالكلب الضال يلتقط رزقه من أكوام الزبالة .

فلشد ماذكرنى جوعه بجسمى المكتنز ووجهى المتورد ، حتى استحوذ على الخجل وغلبنى استعبار : وقلت لنفسى معنفاً متقززاً ماذا فعلت — وقد أتانى الله خيراً كثيراً — لدفع البلاء أو التخفيف من وقعه ، ألم أترك الشيطان يعبث بأهل جيرتى وأنا ذاهل عنه بسرورى وطمأنينتى ؟ ألا يكون الإنسان الطيب بتقاعده عونا للشيطان من حيث لا يدرى ؟ . . واستصرخنى الضمير المعذب أن ألبى النداء القديم ، وأن أشد الرحال إلى أرض التوبة مستغفرا ، حتى إذا شاء الله لى أن أعود عدت بقلب طاهر ، وجعلت من قلبى ولسانى ويدى أعوانا للخير فى مملكة الله الواسعة ...

ودعا له الإخوان بصدق وحرارة ، وواصلوا الحديث فى سرور وحبور .

* * *

وأبى السيد رضوان بعد أن ودع بيته إلا أن يزور قهوة كرشة مودعا . فاتخذ مجلسه محوطا بالمعلم « كرشة » وعم كامل والشيخ درويش وعباس الحلو وحسين كرشة . وجاءت المعلمة حسنية الفرانة فقبلت يده وحملته السلام أمانة ، وقد قال لهم السيد :

— الحج فريضة على من استطاع إليه سبيلا ، يؤديها عن نفسه وعمن تقعد بهم الأعذار من الصادقين .

فقال له عم كامل بصوت الأطفال :

— صحبتك السلامة فى الحل والترحال ، وعسى ألا تنسى أن تجيئنا بسبحة من المدينة المنورة . .

فابتسم السيد وقال :

— لن أكون كمن وهبك كفنا ثم ضحك عليك .

وضحك عم كامل وكاد يعود إلى هذا الموضوع القديم لولا أن رأى وجه عباس الحلو الواجم فأمسك . وقد أثار السيد هذه الذكرى متعمداً ليدخل منها إلى نفس الشباب التعس مدخلا لطيفا ، والتفت إليه بحنان وقال :

— يا عباس أصغ إلى كما ينبغى لشاب شهد له جميع أهل الزقاق بالعقل واللطف ؛ عد إلى التل الكبير فى أول فرصة ، بل اليوم إن سمعت وأطعت .

واعمل بما أوتيت من همة ، واقتصد من النقود ما تشق به حياة جديدة إن شاء الله . إياك وأن تلقى برأسك فى خضم الفكر ، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب ، ولا تحسبن ما اعترضك من سوء الحظ هو ختام ما قدر لك فى الحياة . إنك بعد شاب فى نهاية الحلقة الثانية من عمرك ، وما تلقاه من ألم ليس إلا بعض ما يصيب الإنسان فى حياته ، وكأنه ما ينتاب الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولفهما ، فإذا صمدت له بشجاعة جزته رجلا خليقاً بالرجولة ، وذكرته فيما يقبل من حلقات العمر ببسمة الظافر وتأسى المؤمن . انهض مستوصياً بالصبر متعوذاً بالإيمان ، واسع إلى رزقك ، ولتهنأ بسرور المؤمن إذا أدرك أن الله قد اختاره لمصاف المصابين من أوليائه .

ولم يحر عباس جوابا ، ولكنه لما رأى عينى السيد لا تتحولان عنه ، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرضا ، وغمغم بلا وعى تقريباً :

— سيمضى كل شىء كأن لم يكن .

فابتسم السيد ، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول :

— أهلا بشاطر زقاقنا ! . سأدعو الله لك الهداية فى أرض مستجابة الدعاء ، ولأجدنك إن شاء الله حين عودتى محتلا مكان أبيك كما يريد لك ، ونعم ما أراد ، وطوبى للمعلم الصغير الجديد .

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقا :

— يا سيد رضوان ، اذكرنى إذا أحرمت ، وذكر أهل البيت بأن محبهم تلف وشفه الغرام ، وأنه أضاع ما يملك من مال وعتاد على حب لا تنقع له غلة ، واشك إليهم خاصة ما يلقى من ست الستات .

***

وغادر السيد رضوان القهوة يحف به الصحاب ، وقد لحق به من البيت قريبان اعتزما السفر معه حتى السويس ، ومال السيد إلى الوكالة فوجد السيد سليم علوان مكباً على بعض دفاتره ، فابتسم قائلا :

— تأذن الرحيل فدعنى أعانقك .

ورفع الرجل وجهه الذابل فى دهشة ، وكان علم بميعاد الرحيل دون أن يحرك ساكنا . ولكن السيد رضوان لم يلق بالا إلى إهماله ، وكان يعلم من سوء حالته ما يعلم الجميع ، فأبى أن يغادر الحى قبل أن يودعه . وكأنما شعر الآخر بخطئه فى هذه اللحظة فاعتراه ارتباك ، إلا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقبله ودعا له طويلا ، ولبث عنده مليا ، ثم قال وهو ينهض قائماً :

— لندع الله أن نحج معاً فى عامنا القادم .

فغمغم السيد سليم وهو لا يعنى ما يقول :

— إن شاء الله .

وتعانقا مرة أخرى ، ورجع السيد إلى أصحابه ، ومضوا جميعا إلى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة محملة بالحقائب ، فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريباه ، وانحدرت العربة صوب الغورية تتعلق بها الأعين ، ثم مالت إلى الأزهر .

(٣٤)

قال عم كامل لعباس الحلو :

— ليس وراء نصح السيد رضوان مذهب لناصح ، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر ، وسوف أنتظرك طال الزمان أو قصر ، وستعود بإذن الله ظافراً وتكون على رأس حلاق هذا الحى جميعا .

وكان الحلو يجلس على كرسى أمام دكان البسبوسة غير بعيد من عم كامل ينصت إلى صاحبه دون أن ينبس بكلمة ، ولم يكن باح لأحد بسره الجديد ، وقد هم حين نصحه السيد رضوان الحسينى بالإفصاح عما يثقل كاهله ، ولكنه تردد لحظة فوجه السيد خطابه إلى حسين كرشة ، وسرعان ما عدل عما قام بنفسه . ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكر فيها مليا ، بيد أن

يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره وكان مضى على اللقاء الغريب فى حانوت الورد ليلة ونهار ، فقلب وجوه الفكر فى هدوء وأناة وعرف فى النهاية أنه لا يزال يحب الفتاة ، وإن كانت أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد ، وأن رغبته فى الانتقام من غريمه لا تقاوم . وقد أنصت إلى كلام عم كامل صامتاً ، ثم تنهد من الأعماق ، تنهد إنسان تمس كبلته الأقدار بأغلال الشقاء ، ووضعته على شفا جرف هار من الدمار . وسأله عم كامل بقلق :

— خبرنى عما اعتزمت ؟ .

فنهض الشاب قائماً وهو يقول :

— سأمكث هنا بضعة أيام أخر ، على الأقل حتى يوم الأحد ، ثم أتوكل على الله .

فقال عم كامل فى إشفاق :

— ليس السلوان بالمطلب العسير إذا نشدته صادقاً .

فقال الشاب وهو يغادر موضعه :

— صدقت ! .. السلام عليكم .

ومضى وفى نيته أن يقصد حانة فيتا ، حيث يظن أن حسين كرشة قد سبقه إليها عقب توديع السيد رضوان مباشرة ، وظل فكره فريسة للأفكار القلقة ، وقلبه نهباً للعواطف المضطرمة . إنه ينتظر يوم الأحد ، وما يوم الأحد ببعيد ، ولكن ما عسى أن يصنع إذا حان الحين ؟! . أيمضى إلى الموعد حاملا خنجراً ليغمده فى قلب غريمه ؟ . لعل هذا ما يتحرق إليه بكل ما يمتلىء به قلبه من غضب وحقد وشقاء ، ولكن هل يسعه ارتكاب الجريمة ؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة ؟! . وهز رأسه فى شك وكمد وحقد . إنه أبعد ما يكون عن العنف والإجرام ، وهذا ماضيه يشهد له بالوداعة والمسالمة ، فما عسى أن يصنع إذا جاء يوم الأحد ! وتضاعفت رغبته فى لقاء حسين كرشة ليقص عليه قصة حميدة ويسأله

المشورة والعون ! ، بل العون قبل سواء ، لأنه يبدو عاجزاً بغير هذا العون . وفى هذه الحال من الإقرار بالعجز عاودته نصيحة السيد رضوان الحسينى «... عد إلى التل الكبير فى أول فرصة ، بل اليوم إن سمعت وأطعت ، . . إياك وأن تلق برأسك فى خضم الفكر أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب .. » ، استحضر كلام السيد الذى أوشك أن ينساه . أجل ، لماذا لايطوى الماضى بأحزانه وينطلق فى شجاعة وصبر فى طريق السلوان والعمل ؟ لماذا يحمل نفسه مالا طاقة لها به ؟ لماذا يعرض حياته لأهوال أخفها السجن ؟ وارتاح إلى أفكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأى حاسم ، ولم تزل نفسه تنازعه إلى الانتقام ، ولعل الانتقام لم يكن وحده الذى يستبد بشعوره ، ولعله خاف العدول عنه لأن فى هذا العدول قطعاً حاسما لهذا الخيط الواهى الذى وصله بحميدة أمس ، وقد أبى أن يصدق أنه يستطيع العفو عما سلف ، وقال وكرر القول — بداع وبلا داع — إن أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد ، ولكن هذا الإلحاح فى القول نفسه أخفى رغبة — لعله لم يدرها — فى استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما ! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلا لتعلقه بالمرأة التى يحبها ولا يطيق هجرها . وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا . وكان حسين كرشة بمجلسه يكرع من النبيذ الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه ، فمضى إليه وحياه تحية مقتضبة ، وقال برجاء حار :

— حسبك ما شربت فإنى أريدك لأمر هام . . هلم معى .

ورفع حسين حاجبيه منكراً ، وكأنما كبر عليه أن يعكر القادم صفوه ، ولكن عباس — وقد أذهله الهم عن وعيه — أمسك بذراعه وشده حتى أقامه وهو يقول :

— إنى فى مسيس الحاجة إليك .

فنفخ الشاب مستاء ، ودفع ما عليه ، وغادر الحانة برفقة صاحبه ، وقد أضمر عباس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته .

ولما صارا فى الموسكى قال وكأنما يزيح كابوساً عن صدره :
— وجدت حميدة يا حسين ..
فلاح الاهتمام فى العينين الصغيرتين وسأله :
— أين ؟
— ألا تذكر امرأة العربة التى عدوت وراءها أمس وسألتنى عنها اليوم دون أن تظفر منى بجواب شاف ؟ هى حميدة دون غيرها ..
فصاح الشاب بدهشة وسخرية :
— أسكران أنت ؟ ! . ماذا قلت !
فقال عباس بلهجة جدية شديد التأثر :
— صدقنى فيما قلت ، هذه المرأة هى حميدة بلحمها ودمها ، وقد عرفتها من أول نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت ، حتى أدركتها وحادثتها .
فتساءل حسين فى دهشة وإنكار :
— كيف تريدنى على أن أكذب عينى ؟ !
فتنهد الحلو بأسى ، وراح يروى له ما دار بينهما من حديث دون أن يخفى عنه شيئاً ، والآخر يصغى إليه باهتمام شديد ، حتى ختم حديثه قائلا :
— هذا ما أردت أن أطلعك عليه ، ولقد تردت حميدة فى الهاوية ولا نجاة لها ، ولكننى لن أترك المجرم الأثيم بغير عقاب .
وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار فى تفسيرها ، وكان الفتى بطبعه مستهتراً قليل الاكتراث ، فأفاق من دهشته بأسرع مما قدر صاحبه ، ثم قال بازدراء :
— حميدة هى المجرمة الأصلية ، ألم تفر معه ؟ . . ألم تستسلم له ؟ . . . أما هو فماذا تؤاخذه به ؟ . . فتاة أعجبته فغواها ، ووجدها سهلة فنال منها وطره ، وأراد أن يستغلها فسرحها فى الحانات ، هذا لعمرى رجل حاذق ، وبودى لو أفعل مثله حتى تنجاب عنى هذه الأزمة التى أكابدها . حميدة هى المجرمة يا صاح .

وكان عباس يحسن فهم صاحبه ، فلم يداخله شك فى أنه لا يتورع عن شىء مما ارتكبه غريمه ، ولذلك تحامى عن حكمة ذم الرجل فى سلوكه أو خلقه ، وعمد إلى إثارة نخوته من سبيل آخر فقال :

— ولكن ألا ترى أن هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا بما يستوجب تأديبه ؟

ولم يغب عنه قوله « كرامتنا » . وأدرك أنه يشير إلى الأخوة التى تربطه بحميدة ، وذكر لتوه شقيقته المطروحة فى السجن بسبب فضيحة مماثلة ، فاستشاط غضباً وحنقاً وزأر صائحاً :

— هذا شأن لا يعنينى ، ولتذهب حميدة إلى الشيطان .

ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فيما قال ، ولو كان لقى ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه ، ولكن الحلو خدع بقوله فصدقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب :

— ألا يغضبك أن يعتدى رجل على بنت من زقاقنا هذا الاعتداء المنكر ؟ . أسلم لك بأن حميدة مجرمة حقاً ، وأن عمل الرجل فى ذاته لا غبار عليه ، ولكن أليس هو بالنسبة إلينا اعتداء مشيناً يستوجب الانتقام ؟ !

فصاح حسين بحدة :

— أنت أحمق ، ولست تغضب لكرامتك كما تتوهم ، ولكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع ، ولو أن حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحا . كيف لقيتها يا رطل ؟ ! . نازعتها الحديث والشكاة ؟ ! . مرحى . مرحى . حييت من رجل همام ! . . لماذا لم تقتلها ؟ . . لو كنت مكانك ورمت المصادفات إلى يدى بالمرأة التى خانتنى لخنقتها بلا تردد ، ثم ذبحت عشيقها . واختفيت عن الأنظار ، . . هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل .

وتلبست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية ، فاستدرك مزمجراً :

— لست أقول هذا متهرباً ، فالحق أن هذا الرجل ينبغى أن يدفع

عن اعتدائه غالياً ، وليدفعنه غالياً ، وسنمضي معاً في الموعد المضروب ونوسعه ضرباً ، ثم نرصده بعظائه جميعا ونوالي ضربه ولو اقتضى الحال أن نحشد له جيشا من الأعوان ، ولا نكف عنه حتى يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال ، وبذلك ننتقم ونستفيد معا . . !

وسر عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة ، وقال بحماس :

— نعم الرأى هو . . حقا أنت رجل الملمات . . !

وسره الثناء ، ومضى يفكر في تنفيذ خطته مدفوعا بغضبه لكرامته ، وميله الطبيعي إلى العدوان ، وطمعه في الحصول على مبلغ من النقود ، ثم غمغم بصوت ملئه النذير « مايوم الأحد ببعيد ! » ، وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقف عن السير وهو يقول :

— عد بنا إلى حانة فيتا . . .

ولكن الآخر تشبث بذراعه وهو يقول :

— أليس من الأفضل أن نمضي إلى الحانة التي سنلقاه بها يوم الأحد لتعرف الطريق بنفسك ؟

وتردد حسين لحظات ، ثم سار معه كما أراد وقد حثا الخطا . وكانت الشمس قد مالت للمغيب ، ولم يكد يبقى من نورها إلا ظلال خفيفة ، وشمل السماء ذلك الهدوء الحالم الذى تخلد إليه إذا تراءت لها طلائع الظلام . واشتعلت مصابيح الطريق واطرد سيل السابلة لا يعبأون اختلاف الليل والنهار . ودوى سطح الأرض على غير انقطاع ، فمن جعجعة الترام إلى أزيز السيارات ، ومن نداء الباعة إلى نفخ الزمارات غير همهمة البشر ، فكأنهما بخروجهما من المدق إلى هذا الطريق قد انتقلا من المنام إلى يقظة صاخبة . وارتاح عباس الحلو وانقشعت الحيرة التى غشيته طويلا فعرف سبيله بفضل صاحبه الجرىء القوى ، أما حميدة فقد ترك أمرها معلقاً للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء ، ولم يستطع أن يبت فيه برأى ، أو أنه أشفق من البت فيه برأى حاسم . وقد خطر له لحظة أن يفاتح صاحبه ببعض خواطره

ولكنه ما كاد يختلس إلى وجهه الأسود نظرة حتى غاص الكلام فى حلقه فلم ينبس بكلمة. وواصلا السير حتى بلغا موقف الأمس الذى لا ينسى فلكز عباس صاحبه وهو يقول:

— هاك دكان الأزهار التى حادثتها فيها .

ونظر حسين إلى الدكان التى يشير إليها صامتا ، ثم سأله باهتمام :

— وأين الحانة ؟

فأومأ له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم « ها هى ذى » ، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينيه الصفيرتين الحادتين .

ونظر عباس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمران بها فجذب عينيه منظر غريب ندت عنه شهقة ، وتصلبت عضلات وجهه ، ثم جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى . رأى حميدة فى جلسة شاذة بين نفر من الجنود ، كانت تجلس على كرسى وإلى ورائها جندى واقفا يسقيها خمراً من كأس فى يده ، ينحنى عليها قليلا وتميل هى برأسها إليه وقد مدت ساقيها على حجر آخر يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون . بهت الفتى وتسمر فى موقفه ، ونسى ما كان علمه عن مهنتها ، وكأن الخطب يدهمه على غير علم به ، وطمس الدم الفائر بصيرته ، فلم يعد يعرف غريماً له فى دنياه سواها ، واندفع إلى الحانة كالمجنون وصاح بصوت كالرعد :

— حميدة ...

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسى ، وحملقت فى وجهه بعينين ملتهبتين ، وغلبتها الدهشة ثوانى ، ثم ثابت إلى رشدها وقد هالها ما يهددها به حمقه من الفضيحة ، فصاحت به بصوت خشن فظ جمله الغضب كالزئير :

— لا تبق هنا لحظة واحدة . أغرب عن وجهى ...

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار ، جن جنونه ، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد ، ووجد أخيراً ما عناه فى الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقباً فى مرجل نفسه ، فانطلق منه صارخا

مصفراً مجنونا ، ولمح إلى يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على طاولة الحانة ، فتناول واحدة وهو لا يدرى ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط ، فى سرعة خاطفة لم يستطع أن يمنعها أحد ، لا من الجنود ولا من عمال الحانة ، فأصابت الزجاجة وجهها ، وتفجر الدم غزيراً من أنفها وفمها وذقنها ، وامتزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها . واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين ، وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر ، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات ...

ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدى والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعاً . وكلما تلقى ضربة هتف صارخا : « يا حسين ... يا حسين » ، ولكن الفتى الذى لم ينكص عن خوض معركة فى حياته لبث متسمرا لا يدرى كيف يشق سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين ، وتملكه الغضب ، واشتعلت بصدره ثورة جائحة ، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد آلة حادة أو عصا أو سكينا . وبقى مقهوراً مغلوبا على أمره ، وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة بأعين فزعة وأيد مغلولة ...

(٣٥)

أضاء الصباح بجنبات الزقاق ، وألقت الشمس شعاعا من أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكان الحلاق . وغدا الغلام سنقر صبى القهوة فملأ دلواً ورش الأرض . وكان المدق يقلب صفحة من صفحات حياته الرتيبة ، وأهله يستقبلون الصباح بهتافاتهم المحفوظة . وفى هذه الساعة الباكرة ينشط عم كامل على غير عادته فيقف أمام صينية البسبوسة يحف به صبية المدرسة الإلزامية ويمتلىء جيبه بالملاليم ، وفى مواجهته أكب الحلاق العجوز على المواسى يشحذها ، ومضى جعدة الفران يحمل العجين من البيوت ، وأقبل

العمال على الوكالة يفتحون أبوابها ومخازنها ويخرقون السكون المخيم بجلبتهم التى لا تنقطع طوال النهار ، بينما تربع المعلم كرشة وراء صندوق الماركات فى جلسة حالمة يقضم شيئا بثنيتيه ويلوكه فى فمه ثم يمتصره بقدح من القهوة ، وقد جلس على كثب منه الشيخ درويش فى صمت وغيبوبة . وفى هذه الساعة الباكرة أيضا تلوح الست سنيه عفيفى فى نافذتها ، تشيع زوجها الشاب وهو يغادر الزقاق فى طريقه إلى القسم . هكذا تطرد الحياة فى المدق على وتيرة واحدة إلا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتياته أو ابتلاع السجن لرجل من رجاله ، لكن سرعان ما تنداح هذه الفقاعات فى بحيرته الهادئة أو الراكدة ، فلا يكاد يأتى المساء حتى يجر النسيان ذيوله على ما جاء به الصباح . أضاء الصبح والزقاق يستقبل هذه الحياة الهادئة المطمئنة ، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين كرشة مكفهر الوجه ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة ، يضرب الأرض بخطوات ثقال ، فمضى إلى مجلس أبيه وارتمى على كرسى لقاءه ، وهو يقول بصوت غليظ دون تحية أو سلام :

— قتل عباس الحلو يا أبى ...

وكان المعلم قد أوشك أن ينتهره لقضائه الليل خارج البيت ، فلم ينبس بكلمة ، وحملق فى وجهه بعينين ذاهلتين ، ولبث لحظات جامدا ساهما كأنه لم يفهم ما ألقى على سمعه ، ثم سأل بانزعاج شديد :

— ماذا قلت ؟

وكان حسين ينظر فيما أمامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجش :

— قتل عباس الحلو !.. قتله الإنجليز !..

وازدرد الفتى ريقه ثم أعاد على أبيه ما حدثه به عباس وهما يسيران فى الموسكى قبيل مغيب الأمس ؛ وقال بصوت حاد مضطرب :

— وقد مضى بى ليريني الحانة التى وعدته إياها الفتاة الشريرة ، وإنا لنمر ببابها إذ رأى العاهرة تعربد فى جمع من الجنود ، ففقد وعيه واندفع إلى داخل الحانة ورماها بزجاجة فى وجهها قبل أن أتنبه لقصده ، وهاج

الجنود وانقضوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضرباً حتى سقط بينهم لا حراك به.

وكور قبضته بحنق وقرض أسنانه قائلا بغضب :

— يا للشيطان ! . . ما كان بوسعى أن أخف إلى نجدته ! . : حالت دون ذلك جموع الجنود الكثيفة التى سدت الباب سدا . . آه لو بلغت يداى عنق جندى من أولئك الملاعين . .

وكان هذا ما يحز فؤاده حزاً ، وما يشب فى صدره نار الغضب من غير انقطاع ، حتى لقد انقلب إلى الزقاق يكاد يستخفى من الخزى والعار ، أما المعلم كرشة فقد ضرب كفاً بكف وقال :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، وماذا فعلتم به ؟

— جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء ، وضربوا حول الحانة حصاراً . وما عسى أن يفيد الحصار ؟ ، وحملوا جثته إلى قصر العينى ، ونقلوا المصاهرة إلى الإسعاف . .

فسأل المعلم باهتمام :

— وهل قتلت ؟ . . .

فأجاب الشاب والحقد يأكل رأسه :

— لا أظن . . . لا أظن الضربة كانت قاتلة . . ! . ضاع الفتى هدراً .

— والإنجليز ؟

فقال الشاب بلهجة أسيفة :

— تركناهم والشرطة تحيط بهم . ولكن من ذا يستطيع أن ينال منهم حقا ؟

فضرب المعلم كفا بكف مرة أخرى وقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، وهل علم أهل الفتى بالخبر الأسود ؟ . اذهب إلى خاله عم حسن القباقيبى بالخرنفش وآذنه بموته ، والله يفعل مايريد .

ونهض حسين يغالب تعبه وإعياءه وغادر القهوة . وذاع الخبر ، وأعاد

المعلم كرشة القصة التى رواها أبنه مرات ومرات على السائلين ، فتناقلتها الألسن ، وزادت عليها ما شاء لها الهوى ، وجاء عم كامل القهوة مترنحاً وقد دهمه الخبر فصعقه وارتمى على أريكة وراح يبكى بكاء مراً وينتحب كالأطفال ، ولا يكاد يصدق أن الفتى — الذى أعد له كفناً — لم يعد من الأحياء . ونمى الخبر إلى أم حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال بعض من رآها إنها « تبكى على القاتل لا على القتيل ! » . وكان أشد الناس تأثراً السيد سليم علوان ، لا حزنا على الفقيد ، ولكن فزعاً من الموت الذى اقتحم عليه الزقاق فأثار مخاوفه وضاعف آلامه ، فعاودته أفكاره السوداء ، وتصوراته المريضة ، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التى نهكت أعصابه . واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه ، وجعل يروح ويجىء فى الوكالة ، أو يخرج إلى الزقاق فيلقى نظرة زائغة على الدكان الذى كان دكان الحلو أعواماً طوالا . وكان أعفى نفسه — لشدة الحرارة — من شرب الماء الدافىء . فأمر العامل المكلف بخدمته بأن يدفىء له ماء للشرب كما كان يفعل فى الشتاء ، وقضى تلك الساعة نهباً للخوف والقلق وبكاء عم كامل يصك مسامعه صكا . .

* * *

وانداحت هذه الفقاعة أيضاً كسوابقها ، واستوصى المدق بفضيلته الخالدة فى النسيان وعدم الاكتراث ، وظل كدأبه يبكى صباحا — إذا عرض له البكاء — ويقهقه ضاحكا عند المساء ، وفيما بين هذا وذاك تصر الأبواب والنوافذ وهى تفتح ثم تصر كرة أخرى وهى تغلق . ولم يحدث فى هذه الفترة أمر ذو بال . اللهم إلا ما كان من إصرار الست سنية عفيفى على إخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور بوشى قبل سجنه ، وما كان من تطوع عم كامل بنقل أثاثه ومعداته الطبية الى شقته ، وقيل فى تفسير هذا إن عم كامل آثر إشراك الدكتور فى مسكنه على الوحدة التى لم يألفها ، ولم

يعاتبه أحد فى ذلك ، بل لعلهم عدوها له من المكرمات ، لأن السجن لم يكن مما يشين المرء فى المدق .

وتحدثوا فى تلك الأيام عن اتصال أم حميدة بابنتها التى دخلت فى طور النقاهة والشفاء ، وعما تحلم به المرأة من جنى بعض ثمار هذا الكنز المترع . ثم ثار اهتمام الزقاق فجأة حين سكنت أسرة أحد القصابين شقة الدكتور بوشى ، وكانت مكونة من القصاب وزوجه وسبعة من الأطفال وفتاة حسناء ، قال حسين كرشة عنها إنها كفلقة القمر . ولكن عندما اقترب موعد عودة الحاج رضوان الحسينى من الأقطار الحجازية لم يعد يفكر أحد إلا فى هذا اليوم الموعود ، وقد علقت الثريات والأعلام وفرشت أرض الزقاق بالرمل ، ومنى الجميع نفوسهم بليلة فرح وسرور تدوم ذكراها على الأيام . .

ويوماً رأى الشيخ درويش عم كامل وهو عازح الحلاق العجوز ، فهتف وهو يرفع رأسه إلى سقف القهوة :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

فتجهم وجه عم كامل ، وانطفأ لونه ، واغرورقت عيناه . ولكن الشيخ درويش هز منكبيه استهانة ، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى السقف :

من مات عشقاً فليمت كمداً لا خير فى عشق بلا موت

ثم وحوح متنهداً واستدرك قائلا :

— ياست الستات . . يا قاضية الحاجات . . الرحمة . . الرحمة يا آل البيت ، والله لأصبرن ما حييت ، أليس لكل شىء نهاية ؟ ! بلى لكل شىء نهاية . . . ومعناها بالإنجليزية end وتهجيتها e n d . . .

كتب للمؤلف

جميعها تطلب من «مكتبة مصر» بالفجالة

الكتاب		الطبعة الأولى	الطبعة الثانية
مصر القديمة	(مترجم عن الإنجليزية)	١٩٣٢	
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	
رادوبيس	» »	١٩٤٣	١٩٤٦
كفاح طيبة	» »	١٩٤٤	١٩٤٧
القاهرة الجديدة (فضيحة فى القاهرة)		١٩٤٥	١٩٥٣
خان الخليلى		١٩٤٦	١٩٥٤
زقاق المدق		١٩٤٧	١٩٥٥
السراب		١٩٤٨	
بداية ونهاية		١٩٤٩	١٩٥٦
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٥٦	
قصر الشوق		١٩٥٧	
السكرية		١٩٥٧	



دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي الفجالة

